التراث العربي الإسلامي وفكرة اللانهاية

د. عبد الكريم اليافي

التراث العربي الاسلامي في تصورنا كالبحر المحيط الزاخر فيه من الجواهر واللآلىء والعوالم ما لا يحصى ولا يحصر عدده . والذين يطالعون بعض جوانبه ويبحثون طائفة من مضامينه يجدر بهم التواضع قبل أن يصدروا أحكاماً فطيرة أو عشوائية في حق تلك المضامين والجوانب والا جانبوا الصواب وزلت أقلامهم . واني في الحين تلو الحين أقرأ ما يكتبه بعضهم في هذا المجال فأتمثل بقول شاعرنا المتنبي :

ولكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح والعلوم

ولو وضعنا الأفهام مكان الآذان لصحّ . ومعنى البيت واضح وهو أن كل أحد يدرك مما يسمع أو يقرأ على قدر طبعه وعلمه . ومن لا علم لديه لا يستطيع أن يحكم على علم العلماء الأفذاذ وأن يفهم ما قصدوه .

وأذكر أني شاركت مرة في مؤتمر علمي رياضي يتعلق بالتراث فزعم أحد المعارف ، وهو من المختصين ، أن العرب والمسلمين لم تتحصل عندهم فكرة اللانهاية في علومهم . فأجبته : بلى ! قد عرفوا فكرة اللانهاية . وأدليت عندئذ بما حضر لي اذ ذاك وهو برهان القاضي الباقلاّني في كتاب « التمهيد » بصدد اثبات الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ وهو قوله : «والدليل على اثباته علمنا بأن الفيل أكبر من الذرّة . فلو كان لا غاية لمقادير الفيل ولا لمقادير

الذرة لم يكن أحدهما أكثر مقادير من الآخر • ولو كان كذلك لم يكن أحدهما أكبر من الآخر كما أنه ليس بأكثر مقادير منه • » أي لو كانت مقادير الفيل ومقادير الذرة لا نهاية لها لم يكن أحدهما أكثر مقادير من الآخر •

وانه ليطيب لي أن أورد هنا شواهد على هذه المعرفة واستعمال العلماء والمفكرين لها في مجالات هامشية بالقياس الى الرياضيات تدل على تبحرهم وتعمقهم وتداولهم لهذه التصورات والمفاهيم • أما البحوث الرياضية فليس هنا مناسبة بحثها الا ما سهل أمره وتيسر فهمه •

أورد هنا أيضاً المسألة الرابعة التي سألها أبو الريحان البيروني (٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م ـ ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م) الرئيس ابن سينا (٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م ـ ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م) في جملة المسائل التي طرحها عليه احراجاً له وطلباً للجواب عنها وهي :

« لِمَ استشنع أرسطوطاليس قول القائلين بالجزء الذي لا يتجزأ ؟ والذي يلزم القائلين بأن الجسم يتجزأ الى ما لانهاية أشنع • وهو ألا يدرك متحرك متحركاً يتحركان في جهة واحدة ، ولو كان المتحرك متقدماً منهما أبطأ حركة • ولنمثل بالشمس والقمر • فانه اذا كان بينهما بعد مفروض وسار القمر سارت الشمس في ذلك الزمان مقداراً أصغر مما ساره القمر • واذا سار القمر سارت الشمس في ذلك الزمان مقداراً أيضاً أصغر ، وكذلك الى ما لا نهاية • وقد نراه يسبقها • ويلزم أصحاب الجزء أيضاً أمور أخرى كثيرة معروفة عند المهندسين • ولكن الذي ذكرته مما يلزم مخالفيهم أشنع • فكيف التخلص من كليهما ؟ » •

ومقصد البيروني في هذه المسألة الهجوم على الفيلسوف اليوناني أرسطو (٣٨٤ ق•م ـ ٣٢٢ ق•م) في استشناعه قول القائلين بالجزء الذي لا يتجزأ والدفاع عن المتكلمين المسلمين الذين يثبتونه • وهو يعترف بوجود مصاعب في هذه النظرية أيضاً • ولكن آراء أرسطو والفلاسفة المشّائين أتباعه وابن سينا الذي يوافقهم أشنع وأحق بالنقد •

وتمثيل أبي الريحان بحركة الشمس والقمر هو توسعة لاحدى غرائب

الفيلسوف اليوناني زينون الايلي (عاش في القرن الخامس قبل الميلاد) الذي أراد أن يبرز الخُلف في فكرة الحركة المتصلة فمثّل أخيلوس ذا القدمين الخفيفتين يلحق بالسلحفاة. فلو كان الطريق بينهما متصلا أي مؤلفاً مما لانهاية له من الأجزاء لكان أخيلوس كلما قطع نصف المسافة مثلا بينه وبين السلحفاة ووصل الى النقطة التي كانت بها السلحفاة لزم أن تكون السلحفاة قد قطعت مسافة ما ·

وهكذا لا يمكن له أن يلحق بها منطقياً مع أن الواقع بلوغه مكانها · وانما استطردنا لذكر زينون وتمثيله هذا ايضاحاً لكلام البيروني الموجز ·

هذا والاعتقاد بوجود الجزء الذي لا يتجزأ مذهب فريق واسع من المسلمين وهم غالبية المعتزلة وجمهور المتكلمين · ولم تصدر آراؤهم بادىء ذي بدء عن دواع علمية بمقدار صدورها عن دواع دينية وفلسفية · ولما جاء أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤ هـ ـ ٩٣٥ م) أخذ هذه النظرية عن سابقيه واعتمدها في دعم اتجاهه الديني · وقد حصر التناهي في المخلوقات والأشياء المحدثة وترك اللاتناهي لله جل وعلا ·

لقد ورد في القرآن الكريم : « وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » (سورة يس ٣٦ ـ ١٢) وورد أيضاً فيه «وأحصى كل شيء عدداً» · (الجن ٧٢ ـ ٢٨) · ولا يتم الاحصاء الا بما له نهاية فيجب أن تكون أجزاء الجسم متناهية في عددها · ثم أتى تلميذه القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣ ـ ١٠١٢) فكتب في « التمهيد » ما ذكرناه آنفاً حين مثل بالفيل والذرة (النملة) ·

وقد أجاب ابن سينا عن مسألة البيروني تلك بأن أرسطو انما اعتبر المادة قابلة للتجزئة الى مالا نهاية بالقوة لا بالفعل · ولكن البيروني يلزمه اذ ذاك بمشكلة أنه لو انقسمت الأبعاد انقساماً غير متناه لوجب أن يساوي قطر المربع احدى أضلاعه وهذا ممتنع ·

وتناقل العلماء والمفكرون في الحضارة العربية الاسلامية قضية التناهي واللاتناهي في الأجسام والأبعاد أي قضية الاتصال والانفصال فيها حسب التعبير الفلسفي · وعرض الامام فخر الدين الرازي (٥٤٤ هـ / ١١٥٠ م ـ ٦٠٦ هـ

/ ١٢١٠ م) في كتابه «المباحث المشرقية» مختلف المذاهب في هذا الشأن مع براهين كل فئة على مذهبها بحيث تتجلى صعوبة كلا الموقفين وحرجهما · ومن العلماء الذين تناولوا طرفاً من هذه المناقشات وأنعموا النظر فيها بهاء الدين العاملي (٩٥٣ هـ / ١٥٤٧ م ـ ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢) في كتابه (الجوهر الفرد) · وقد ألمّ ببعض تلك المناقشات في كتابه المشهور « الكشكول » ·

ثم ورث العلم والفلسفة هذه المشكلة في العصور الحديثة وتوزعها الباحثون على اختلاف مذاهبهم فلاسفة وفيزيائيين وكيمياويين ·

بل تجاوز تداول فكرة اللانهاية عند العلماء والمفكرين المسلمين الى مايقتضيه اجراء الحساب عليها · من المعروف الآن في الرياضيات أن الجزء لا يساوي الكل · ذلك أن ٣ + ٤ = ٧ مثلا · فالكل الرياضي يساوي مجموع أجزائه الرياضية · أما في حساب اللانهايات فان الجزء يساوي الكل · وقد انتبه لذلك العلماء في الحضارة العربية الاسلامية · يستطرد أبو البقاء في كتابه « الكليات » عند بحثه الشيء والمشيئة الى الشيئية وهي مصدر صناعي مأخوذ من الشيء فيقسمها نوعين :

« شيئية ثبوتية · وهي ثبوت المعلومات في علم الله متميزاً بعضها عن بعض · وهي أقسام : أحدها ما يجب وجوده في العين كذات الواجب سبحانه ، وثانيها ما يمكن بروزه من العلم الى العين وهو الممكنات ، وثالثها ما لا يمكن ، وهو الممتنعات ·

ومتعلق ارادته وقدرته هو القسم الثاني دون الأول والثالث · ومن هنا يقال : مقدورات الله أقل من معلوماته لشمول العلم الممتنعات مع عدم تناهي المقدورات و (عدم) انقطاعها · ولا يخفى أن ما وجد من معلومات الله ومقدوراته فهي متناهية · وما لم يوجد منهما فلا نهاية لهما · فلا يقال : إن أحدهما أكثر من الآخر اذ لا ينتهي الى حدٍ لا يوجد فوقه حد آخر ···

والنوع الثاني شيئية وجودية وهي وجودها خارج العلم ··· »

جملة « لا يقال إن أحدهما أكثر من الآخر إذ لا ينتهي الى حد لا يوجد فوقه حد آخر » هي الشاهد في بحثنا · أي إن معلومات الله ومقدوراته التي لم توجد

حتى الآن لا نهاية لها • فليست إحداهما أكثر أو أكبر من الأخرى أي ان الجـزء الذي هو المقدورات يساوي في اتساعه المعلومات التي هي الكـل ، لأن كلا منهما لا حد نهائياً له أي لا نهاية له •

نوضح الأمر بمثال رياضي بسيط :

إن مجموع الأعداد الصحيحة الطبيعية : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ••••••• ∞

ومجموع الأعداد الصحيحة الفردية : ١ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، •••••••• ∞

متساويان مع العلم أن المجموع الثاني هو جزء من المجموع الأول •

يمكن اثبات ذلك ببساطة كبيرة :

ننسب المجمـوع الأول مج١ الى المجموع الثاني مج٢ • ولتكـن النسبة ن

$$\text{ن} = \frac{\text{مج١}}{\text{مج٢}}$$

$$\text{ن} - ١ = \frac{\text{مج١}}{\text{مج٢}} - ١ = \frac{\text{مج١} - \text{مج٢}}{\text{مج٢}}$$

فاذا جنح المخرج (المقام) نحو اللانهاية غدت النسبة تساوي الصفر •

$$\frac{\text{مج١} - \text{مج٢}}{\text{مج٢}} = ٠ \quad \text{ومنه مج١} - \text{مج٢} = ٠ \quad \text{أي مج١} = \text{مج٢}$$

وللعالم الفيزيائي النمساوي شرودنغر (الحائز على جائزة نوبل) أسلوب طريف في إثبات تساوي الجزء والكل فيمباحث اللانهايات عند بحثه مصاعب فكرة الاتصال وذلك في كتابه الموجز « العلم والثقافة الانسانية » • وقد نقلنا الكتاب منذ حين الى العربيـة • وربمـا كـان الرجوع اليه مفيداً •

هذا ولا نستغـرب أن نجـد حدس الشعراء العرب تجـاه فكـرة اللانهاية يقترب من تفكير العلماء وتحصيلهم •

لأبي العلاء المعري (٣٦٣ هـ/٩٧٣م ـ ٤٤٩ هـ/١٠٥٧ م) قصيدة رثائية منها هذان البيتان :

امنس الذي مرء على قربه — يعجز أهل الأرض عن رده
أضحى الذي أُجِّل في سنه — مثلَ الذي عوجل في مهده

معنى البيت الثاني أن حياة طفل توفي قبل نهاية العام الأول من عمره تعادل حياة شيخ عجوز عاش مثلا مائة سنة لأن عدد السنين في الحالين منسوباً الى الأبد أي اللانهاية يساوي الصفر كما مرت الاشارة الى ذلك ٠

أما البيت الذي قبله فربما لا يدرك القارىء العجلان صلته بالبيت التالي ولا علاقته المنطقية به ٠ ولا شك أن المعري يدرك تماماً أن الزمان ذو اتجاه واحد لا يرجع ٠ ولكنه يريد هنا أن يقول : إن اليوم الذي يمضي نسبته الى الزمان المتطاول أو الأبد عدم أو بمثابة العدم ولذلك كانت السنون الحاصلة من تراكم الأيام بمثابة الأصفار بالقياس الى الأبد ٠ وهكذا يترتب على هذا منطقياً معنى البيت الآخر الذي يليه ٠

هذا الاعتبار مستند الى اللانهاية كما ذكرنا ٠ فان المعري يدرك أهمية الحياة التي هي دار التكليف وطريق الخلود فهو القائل في قصيدة أخرى :

خُلِقَ الناس للبقاء فضلت — أمة يحسبونهم للنفاد
انما يُنقلون من دار أعما — ل الى دار شقوة أو رشاد

وقديماً قال الفقهاء : « اختلاف العبارات باختلاف الاعتبارات » ٠

ومثل ذلك قول ابن سينا في قصيدته العينية المشهورة التي يتحدث فيها عن النفس الانسانية واتصالها بالبدن ٠ فيرى أن حياة المرء في نطاق الأبد كالبرق لا يكاد يلمع حتى ينطفىء فكأنه لم يلمع ، حين تُنْسَبُ مدةُ لمعانه الى اللانهاية :

فكأنها برقٌ تألق بالحمى — ثم انطوى فكأنه لم يلمع

وقد أعجب هذا الحدس الرياضي الشعري الفيلسوف الشهاب يحيى بن حبش

السهروردي (٥٤٩ هـ/١١٥٤ م ـ ٥٨٧ هـ/١١٩١ م) فعارض هذه القصيدة بقصيدة على بحرها وقافية القاف واقتبس هذه الفكرة مع أكثر ألفاظ البيت:

فكانها برق تالق بالحمى ثم انطفا فكانه ما ابرقا

ان كلام القاضي الباقلاني وكلام أبي الريحان البيروني متعلقان بمشكلة تقسيم المكان تقسيماً لا نهائياً ، ثم إنما ذكره أبو البقاء في معلومات الله ومقدوراته التي لا حصر لها في المستقبل يتناول حساب اللانهايات مباشرة • أما ما أشار اليه حكيم المعرة والشيخ الرئيس ومقتول حلب فمن قبيل المقايسة بين مختلف الأزمنة ولا سيما بالنسبة الى الأبد •

ومقايستهم هذه جديرة بالتأمل والتفهم • لنستطرد قليلاً ولنتأمل حدوس هؤلاء الفلاسفة والشعراء تأملاً يسيراً يتيح لنا بيان فكرة الزمن النسبية بالقياس الى الجنوح نحو الأبد واللانهاية• « وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » (الحج ٢٢ ـ ٤٧) •

إن حياة الانسان على الرغم من ضآلة مدتها ومساواتها للصفر بالنسبة الى الأبد حافلة بالأعمال والمشاعر والأفكار بالنسبة الى الزمن الذي يعيشه والذي يقاس مبدئياً بدوران الأرض حول محورها أي بالليل والنهار ودورانها حول الشمس أي بالسنين الشمسية •

ولا شك أن أعمار الكائنات يتفاوت مداها طولاً وقصراً بتفاوت أنواعها حتى لتبدو فكرة الزمن التي يتصورها الفلاسفة فكرة مجردة مقطوعة عن واقع أنماط الحيوات المتعددة • ربما كان من الجدير بالباحثين أن يتأملوا أصنافاً مختلفة من الزمان • ما أقصر حياة الورد في عالم الأزهار لا يكاد البرعم يتفتح ويبتسم لندى الصباح حتى يداهمه المساء بالذبول على حين نجد في عالم الأشجار ما يُعمِّر آلاف السنين • وفي عالم الحيوان لكل نوع أجل كما لكل فرد في النوع الواحد أجل • واذا كان نسر لُبَد قد عُمِّر آلاف السنين كما تزعم الأساطير وكانت السلحفاة تتمتع بتطاول أمد العيش فان الانسان أقصى أجله المتوسط يكاد يربو على السبعين • وهذا بصرف النظر عن أعمار الجمادات البعيدة المدى •

وخلاصة أعمال الانسان وأفكاره ومايؤلفه من حضارة يتجمع بعضها الى بعض ليؤلف تاريخ الانسانية بمكاسبها الايجابية • لنفرض أن التاريخ الانساني

وما قبل التاريخ قد استغرقا مليون سنة وعمر الأرض أربعة مليارات من السنين تقريباً • فلو اعتبرنا عمر الأرض بمثابة عام واحد في التصور لكان ظهور الانسان قد حصل في الساعتين الأخيرتين من ذلك العام ولكان التاريخ الهجري عبارة عن العشر الثواني الأخيرة ولكان عمر الانسان بالنظر الى أجله المتوسط لا يزيد على نصف الثانية • أو ليست هذه اللحظات الخاطفة تعادل وميض البرق حين ينبلج بين كفاف السحاب ثم سرعان ما ينطوي؟! هذا إن استطاع الانسان أن يومض في حياته وأن ينير دجى العيش ولو لحظة واحدة • ما أقل ذلك الوميض وما أندره!

وهكذا نتفهم تفاوت النظرات والمواقف بالقياس الى تطاول السنين والعصور والآباد • حياة الانسان إذن على وجه الكرة الأرضية ومضة برق • وعلى قصرها تتخطفها الأمراض والحروب والخطوب • وهكذا تنجلي حدوس العلماء والفلاسفة والشعراء •

إن أولئك المفكرين الأفذاذ قد اتسعت آفاق معارفهم وحدوسهم اتساعاً رائعاً بحيث لا يجوز أن نتكلم في علم من علوم الحضارة العربية الاسلامية دون أن يكون عندنا اطلاع مناسب على مضامينها المتعددة وأن يكون بأيدينا بعض المفاتيح العلمية الحديثة لتفهم عناصرها المشتبكة •

ان المعارف مشتبك بعضها ببعض • ويدرك الفلاسفة هذا الاشتباك • كذلك يدركه من يخرج في الحين تلو الحين من نطاق اختصاصه فينظر في آفاق المعارف والاختصاصات الأخرى • لقد تقدمت بحوث اللانهايات الرياضية كما تقدمت سائر بحوث الرياضيات تقدماً هائلاً • وتدخل بحوث اللانهايات في بحوث المتصل والمنفصل في الفلسفة كما تدخل في الكيمياء والفيزياء هل ينقسم الجسم والمكان والزمان انقساماً غير متناه أو يقف الانقسام عند حد من الحدود • وهل هذا الحد واقعي أم هو نظري وذلك كما سلف في حوار ابن سينا والبيروني وما هو حقيقة الجزء الذي لا يتجزأ • كذلك يدخل تصور اللانهايات في علم الكلام وفي فلسفة الدين وعلم التوحيد •

على أن هذه المعارف مع استقلال كل علم وكل شعبة منها قد تستفيد من نتائج العلوم وتستند اليها بعض الاستناد توكيداً للايمان وتنسيقاً للمواقف

والآراء • وقد اعتمد علماء الكلام وفلاسفة الدين قديماً ما حصلوه من الرياضيات ومن العلوم •

فقد يضرب الباحثون لدعم نظريتهم في الفيض والتكوين لنشوء الأعيان والكائنات عن الوجود الأول الأصلي مثل نشوء الأعداد كلها عن عدد الواحد • كذلك قد يوردون بحوث اللانهاية لتقريب الأذهان في مجال الأمور الميتافيزيائية.

بَيْدَ أنه ينبغي التفريق دائماً بين تصور عدد الواحد وتصور اللانهاية في الرياضيات وبين الواحد الأحد في بحوث علم الكلام • ربما ينفع المثل للافهام • ولكن التفريق واجب وضروري • بعد هذا الاحتراز نستطيع أن ننتقل الى القضايا الدينية علوّاً وغيباً •

لا شك أن فكرة اللانهاية منذ بداية الاسلام قد ظهرت في هذا الدين القويم • فهو سبحانه وتعالى الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية • ووجوده جلّ وعلا هو الوجود الحقيقي وهو الأزلي والأبدي •

إنه جل وعلا قريب منا كقرب الصفر بعيد منا كبعد اللانهاية •

إنه سبحانه يتجاوز المكان والزمان والأعداد ويتعالى فوقها • خزائنه لا تحصى وكلماته لا تنفد انه في كماله يبصر الكون الذي خلقه وأبدعه ومايشتمل عليه من زمان ومكان وخصائص إبصاراً مباشراً في الماضي والحاضر والمستقبل مثلما يبصره في خصائصه وصفاته الحالية • علمه لا ينبني على ما يشبه معرفتنا المستندة الى النظر والتأمل والتتابع والتلاحق • إنه يرى ما عملناه وما سنعمل غداً وبعد غد وفي قابل الأيام مثلما يرى ما نعمل اليوم • سرمديته لا تقوم على لحظات وآنات تتعاقب كما تتعاقب لحظات حياتنا وآناتها • إنهاديمومة لا أطوال فيهاولا أبعاد ولاحدود • انها امتداد الحضرة الالهية الذي يندرج به الأزل في الأبد وكلاهما في الوقت الحاضر انها الآن الدائم •

وقد جاء في القرآن الكريم : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولوجئنا بمثله مداداً » • الكهف (١٠٨ ـ ١٠٩) وجاء فيه أيضاً « ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إنالله عزيز حكيم » • (لقمان ٢٦ـ٢٧) . صدق الله العظيم •

أثر الحركة الإصلاحية في نهضة الشعر الجزائري

د. عبدالقادر هني*

إن من يعود الى ما حبّر عن الأدب الجزائري الحديث من مقالات وأنجز من دراسات ، لا يعدم في طائفة منها اشارات وايماءات الى أن الحركة الاصلاحية كانت عبء ثقيلاً على قرائح المبدعين الجزائريين بسبب ارتباطها في مشروعها النهضوي بالمنهج السلفي الذي سارت عليه الحركة الاصلاحية بالمشرق في مشروعها الاحيائي ، فكان ذلك قيداً كبّل المواهب وحال بينها وبين الانعتاق من سلطان التقليد وترسم خطا الأولين والافادة المثمرة من الحركات التجديدية التي كان يزخر بها عالم الأدب في الشرق والغرب وقتئذ . بل ان سلفية هذه الحركة أدت في تقدير بعض من أصحاب هذه المقالات والدراسات الى قص أجنحة الذين حاولوا أن يحلقوا بعيداً عن أجوائها ، فذهبت أصواتهم المنادية بالتجديد والتحرر من قبضة التيار المحافظ أدراج الرياح ، فلم تترك آثاراً واضحة المعالم في الحركة الأدبية الحديثة بالجزائر ، فظل طابع المحافظة والتقليد هو الغالب عليها ، وبقيت الأصوات المجلجلة هي أصوات الادباء والشعراء السالكين السبيل التي سلكتها المدرسة المحافظة ، على حين ظلت الأصوات المناوئة لها مبحوحة لا تكاد تسمع أو تلفت الأنظار .

لا أود أن أستعجل الأمور أو أستبق الأحداث فأحكم حكماً قبلياً على مثل هذه الآراء فأصفها بالارتجال أو بالتحامل على الحركة الاصلاحية ونكران دورها في اقامة صرح الشعر الجزائري الحديث ، وانما سأحاول أن أبدأ بالبحث عن اسهامات هذه الحركة في انتشال الشعر الجزائري من الوهدة التي تردى فيها وتوجيهه الوجهة الصحيحة . فاذا ما بلغنا هذه الغاية ، فانه سيتجلى لنا نصيب وجهات النظر المشار اليها من الاعتدال أو المبالغة في تقويم جهود الاصلاحيين وأثرها في الارتقاء بالشعر الجزائري ونفض غبار السنين المجاف عنه ، وفي هذا المضمار نطرح على أنفسنا سؤالا مؤداه : ما هي الحال التي كان عليها الشعر في الجزائر قبل ميلاد الحركة الاصلاحية رسمياً سنة ١٩٢٥ ؟.

★ باحث من الجزائر ومدرس في جامعاتها ـ معهد اللغة والأدب العربي .

اذا رجعنا الى تراث الجزائر الشعري في القرن الماضي وأوائل القرن الحالي مثلاً ، فان الظاهرة التي لا تحتاج الى بذل كبير جهد لادراكها هي الضعف الشديد الذي كان غالباً على الحركة الشعرية في هذه المرحلة من تاريخ الجزائر الأدبي ، فالقسم الأكبر من النماذج الشعرية التي كانت تتردد في الأوساط الأدبية في هذه الآونة هي صورة مكرورة لنماذج الشعر العربي في عصر الضعف من حيث الوهن الذي كان يسمها سواء في شكلها أم في مضمونها فلا نكاد تلمس فيها من عناصر الشعر سوى الوزن ، بل حتى هذا العنصر كثيراً ما نجده مكسوراً ممجوجاً ، يقول الدكتور محمد ناصر عن شعر هذه الفترة في الجزائر : « أغلبه لا يرقى الى أن يكون شعراً بالمفهوم الصحيح لكلمة شعر ، فاذا فتشته وجدته كلمات مرصوفة مشتقة من مجالات غير أدبية، فأصحابه لا يفرقون بين لغة الشعر التي هي لغة عواطف ومشاعر وبين لغة النحو والفقه لذلك تراهم يشتقون استعاراتهم وكناياتهم من الفنون التي لا صلة لها بالأدب، مثل الفقه والتوحيد ويزنون قصائدهم ببعض المنظومات التي يقرأونها في المواسم ومجامع الأذكار ، فيقولون هذه القصيدة من بحر البردة وتلك من بحر الهمزية »(١) ٠

وقد كانت هذه الحالة التي بلغها الشعر في الجزائر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين سبباً للتذمر الذي نلمسه لدى بعض النقاد الذين استاؤوا استياءً عميقاً لما أصاب الحركة الشعرية من تدهور شديد في هذه الأثناء جعل الهوة بينها وبين الشعر الحق سحيقة ، فالشيخ البشير الابراهيمي قد اطلع على حد قوله على أكثر أشعار هذه الحقبة « فاذا هي أخت الأشعار الملحونة الرائجة في السوق ، لأنها منقطعة الصلة بالشعر في أعاريضه وأضربه، ومنقطعة الصلة بالعربية في ألفاظها ومعانيها ومنقطعة الصلة بالخيال في تصرفه واختراعه »(٢) ٠

ونظراً الى هذه الصورة من التدني التي آلت اليها الحركة الشعرية في هذه الفترة المظلمة من الحياة الأدبية بالجزائر ، فَقَدَ الشعر كما يقول محمد بن عبد الرحمن الديسي أحد شهود هذه الفترة : « محبيه والمهتمين به فصارت حرفة الأدب بئس الاحتراف »(٣) ٠

وانه ليمتد بنا الكلام لو أردنا أن نستعرض كل النصوص التي تحمل اشارات الى الوضع المزري الذي بلغه الشعر الجزائري في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي، وهو وضع له أسبابه الموضوعية التي لا يدخل بحثها في المجال الذي حددناه لأنفسنا في هذه السطور ٠

وكيما نتحاشى الحماس والتعصب الأعمى للحركة الاصلاحية في تحديد ما كان لها من أثر في بعث الحيوية والرواء في هذا الوجه الشاحب الذي خبا فيه تألق الحياة ، فانه يجب علينا أن نلمع الى أن بدايات عودة الشعر الجزائري الى الحياة قد تقدمت نهاية الربع الأول من القرن العشرين تاريخ نشأة الحركة الاصلاحية ، فما جادت به قرائح أمثال عمر بن قدور وعبد القادر المجاوي والمولود بن موهوب وغيرهم تبين أن الملامح الأولى للتغيير الذي بدأ يعرفه الشعر الجزائري قد سبقت الحرب العالمية الأولى نفسها ٠ فقد بدأت تطرق الآذان ـ قبيل هذه الحرب ـ أنغام جديدة لم يألفها الناس في شعر العهد

السابق اذ آخذ أمثال الشعراء الذين ذكرناهم يخوضون في موضوعات وثيقة الصلة بواقع الجزائريين في هذه المرحلة ، كالدعوة الى الاصلاح الاجتماعي ومحاربة ما كان يثقل المجتمع من جهل وبدع وخرافات قعدت بـه عن مواكبة الحضارة الحديثة والأخذ بأسباب المدنية ، الى جانب الدعوة الى التعلق باللغة العربية والدين الاسلامي بحسبهما مقومين رئيسين من مقومات الشخصية الجزائرية ،قال أستاذنا الدكتور ناصر يتحدث عن المظاهر الجديدة في شعر عمر بن قدور خاصة : « غيرأن الموضوع الذي نحسبه كان أكثر استحواذاً على اهتمامات الشعراء هو محاربة الخرافات والبدع التي تفشت في أعقاب ما تنشره بعض الطرق المنحرفة من تصرف عقيم • ويبرز في هذا المجال عمر بن قدور بروزاً واضحاً ، اذ تلمس في قصائده عناية خاصة بالناحية العقائدية واهتماماً لافتاً للنظر بالقومية الاسلامية حسب تعبيره ، الى جانب ما نلحظه في شعره من تحسن في الشكل تجلى في سلامة اللغة واستقامة الوزن وصدق العاطفة »(٤)٠

واذا كانت هذه المظاهر التي ألح اليها الدكتور ناصر حقيقة واقعة لا يمكن لمن ينقب عن ملامح التطور في الشعر الجزائري الحديث أن يجحدها أو يتنكر للجهود التي بذلها في هذه السبيل عمر بن قدور وطائفة من الشعراء المعاصرين له ، فان ما ينبغي أن نذكّر به في هذا المقام هو أن هذه الجهود كانت في حقيقة الأمر جهوداً فردية لا تندرج ضمن نظرة شاملة أو تصور عام لتجديد الواقع الجزائري بناء على أسس واضحة وانطلاقاً من فلسفة للتغيير محددة المنهج ،لذلك فان أثرها في بعث الشعر الجزائري ليتجاوب مع الحياة المعاصرة كان محدوداً ،اذ لم تتسع لتصبح حركة واسعة الرقعة تتبناها جماعة من المبدعين لها أهداف مرسومة تسعى الى تحقيقها وفق منهج معين تسنده فلسفة واضحة في رؤيتها ومبادئها ٠

ان هذا هو الذي افتقرت اليه المحاولات الفردية الأولى لتخليص الشعر الجزائري من جموده وهمومه ومن تحجره ومما ران عليه من فساد أفقده قيمته ، فاستحال الى قوالب خاوية من دفء الروح والدفق العاطفي الصادق ومن المعاني الحية القمينة بتثوير وعي جمهوره ليتجاوب مع الحياة ويقوم على أمشاط أرجله ليأخذ بزمامها ويغيِّر ما لحقه الضعف والوهن فيها ، قلت ان هذا الذي عزّ توفره في بدايات نمو الشعور بضرورة التجديد والخروج من رتابة الجمود العام الذي خيَّم على المجتمع الجزائري هو ما سيحقق في الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى التي أيقظت أحداثها الجزائريين من سباتهم الطويل ليفتحوا أعينهم على عالم جديد غير العالم المتخلف العتيق الذي حواهم في جوفه وغيبهم في مغاراته المظلمة ، فكان لزاماً عليهم أن ينسجوا لأنفسهم ثوباً غير ثوبهم الرث الذي أناخ عليه البلى وأن يصكوا لأنفسهم عملة غير عملة الانحطاط التي لم تعد متداولة في محيط قد خطا أهله في المدنية خطوات عملاقة وخلفوهم وراءهم بمراحل ليست قصيرة ، يقول عمر بن قدور يتحدث عما كان للحرب الأولى من أثر على الجزائريين : « قد قضت على الدور القديم وأنشأت دوراً جديداً أناسه غير الناس وأخلاقه غير الأخلاق »(٥) ٠

فقد نبهت هذه الأحداث الجزائريين الى حتمية اللحاق بركب المدنية بتجديد المجتمع الذي يتطلب من جهته تجديد وعي الجماهير بتخليصه من معوقات التحضر التي تراكمت في

النفوس وغاصت جذورها الى العمق فكرست بين الناس حياة قوامها الخرافة والشعوذة ، من ثم كانت الخطوة المنهجية الأولى لتحقيق هذه الثورة في الوعي الاجتماعي هي نشر التعليم الحقيقي على نطاق واسع في المجتمع الجزائري الذي كان محروماً منه حرماناً كبيراً، لأن الدوائر التي كانت تنهض به كانت قليلة من جهة ثم انها كانت تقدم تعليماً كان في أغلبه دون أن يُمكّن المجتمع من النهوض من كبوته والخروج من غيبوبته ، فقد قال الشاعر الجنيد أحمد المكي (ولد سنة ١٨٩٣م) أحد شهود هذا المهد يصور أساليب التعليم ومواده في هذه الفترة : « فالولد يقضي جل حياته ان لم أقل العمر كله في الدروس القرآنية منكباً على لوحة مملوءة حروفاً سوداء يكرر صباح مساء كالفنوغراف دون فهم يغذي العقل ، ولا نبرح الدروس الا وقداعوج مستقيم عودنا »(٦) ٠ ويزيد الدكتور محمد ناصر هذه المسألة وضوحاً فيقول :« وكانت مراكز التعليم مرتبطة بالوسط الديني ارتباطاً قوياً ، فهي الزوايا والمساجد والكتاتيب القرآنية ، وحتى المدارس القليلة فقد كان الذين يدرسون بها في الأغلب الاعم من رجال أئمة وفقهاء ووعاظ ومرشدين ٠

أما المواد التي تدرس بهذه المراكز التعليمية فقد كانت تعتمد أساساً على حفظ القرآن الكريم ، وان هي تدرجت قليلاً في نهجها وأسلوبها لم تتجاوز هذه المواد التي تساعد على فهم القرآن الكريم والشريعة الاسلامية ، وكانت الطريقة التي تلقن بها هذه العلوم تعتمد غالباً على الحفظ والاستيعاب الكمي لا الكيفي »(٧) ٠

ازاء هذا الوضع التعليمي المتردي الذي أعاق حركة التطور جملة في جميع ميادين الحياة في المجتمع الجزائري الذي كان التخلف يومئذ يطوقه تطويقاً شديداً بسبب السياسة التي انتهجتها فرنسا لاحكام قبضتها على البلاد وضمان استمرار هيمنتها عليه ، ازاء ذلك أحست فئة من الشباب الجزائري بواجبها تجاه وطنها الذي أورده الاستعمار مهلكه ، فكان ذلك الشعور حافزاً للتفكير في الأداة الكفيلة بانقاذ المجتمع من الوضع الذي آل اليه ، فاتجهت الأنظار الى العلم وسيلة لتحقيق الغاية العظيمة التي سيكون معها ميلاد الجزائر الحديثة ، فوردت هذه الفئة منابع الثقافة العربية الاسلامية خاصة في تونس والقاهرة والمغرب التي تخرج في معاهدها العالية عدد جمّ من الجزائريين سيشرفون فيما بعد على المشروع النهضوي في البلاد ؛ لما حصّلوه من ثقافة أهّلتهم لتلك المهمة ، ولما خبروه من أساليب وتجارب الحركات الوطنية والاصلاحية في البلاد التي تخرجوا فيها ، من ثمّ فان منشأ الحركة الاصلاحية في الجزائر سيكون على أيدي هؤلاء المثقفين الذين كانوا يمثلون الغد المشرق للجزائر كما عبر عن ذلك الزاهري في أبياته التالية التي حيًّا فيها دفعة من خريجي الزيتونة عام ١٩٢٥(٨) :

شباب لِعَمْرُ الحقِّ لم يك فيهم — سوى حازم عف الطوية طاهر
تجلوا على هذي الجزائر بعدما — سجا الجهل أشباه البدور الزواهر
فَقَرّت بهم شعب الجزائر مثلما — تقر لدى الاياب عين المسافر

هـم النشء لا نشءٌ أضـاع شبابـه وأمـوالـه بـين الخنـا والمغـامـر
ليهنـا بهـم شعب الجـزائـر انهـم هـداة ذوو خبـر بوعـر المعـابـر
فـلا زال أبنـاء الجـزائـر طالعـاً عليهـا فـتى منهـم جميـل المظـاهر
ولا زال هذا الشعب في الناس دائماً على الدهـر والأيام أظهـر ظـاهـر

ولما كان من بين أهداف الاصلاحيين الأولى مقاومة الثقافة الاستعمارية الرامية الى مسخ الشخصيـة الوطنيـة وطمس مقوماتهـا الرئيسية فانه كان مـن الطبيعي أن يؤسسوا مشروعهـم الاصلاحي على تعزيز الثقـافـة العربية الاسلامية بالعودة الى منابعها الصحيحة اسوة بأساتذتهم من رجال الاصلاح ، لا سيما أولئك الذين كان تأثيرهم فيهم عميقاً كالشيخ محمـد عبـده ، قال السعيد الزاهري بهـذا الشأن : « ... وما من شيء له أثر في حياة المغرب العقلية والاجتماعية الا وهو مصـري غالباً ، وكل حركة دينية أو أدبية في مصر لها صداها القـوي في المغرب العربي ، فللأستاذ المرحوم محمد عبده المصري أنصار ومريدون، وفكرة الاصلاح الاسـلامي التي يدعو اليهـا أصبحت اليوم مذهبـاً اجتماعياً في الجزائر ، تعتنقه الكثرة الكثيفة من الناس »(٩) .

فالاصلاحيون الجزائريون سـاروا على خطا أساتذتهم في مشروعهم النهضوي فارتبطوا ارتباطـاً شديـداً بالماضي الاسلامي في عهود ازدهاره وفي المضمار الأدبي ـ وهو ما يعنينا هنـا ـ فسح المجال واسعاً للتراث العربي والاسلامي شعره ونثره بالاضافة الى القرآن الكريم وما اتصل به من علوم ، فكان الحاح رجـال الاصلاح كبيراً على ضرورة الاهتمام بكتاب الله عزّ وجلّ حفظاً وتذوقاً ودراسة وتفسيراً في برامجهم التربوية والتعليمية التي كانت تهدف الى اعداد رجال الغد ومقاومة تيـار الثقافات الأجنبية الدخيلة كما يقـول الدكتور محمد ناصر ، وايثاراً للايجاز نقتصر في هـذا المقام على نص لابن باديس يكشف فيـه عـن العناية الكبيرة التي كان يوليهـا الاصلاحيـون للقرآن الكريم بحسبه رافـداً أساسياً لا يمكن أن يستغنى عنـه في تحقيق النهضة الأدبيـة التي كانت مـن بين مقاصد حركتهم ، قال ابن باديس « اننـا والحمد لله نربي تلامذتنـا على القـرآن مـن أول يوم ونوجـه نفوسهم الى القـرآن في كـل يوم ، وغايتنا التي ستتحقق أن يُكَـوّنَ القرآن منهـم رجـالاً كرجـال سلفهم ، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هـذه الأمـة آمالها ، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها »(١٠) .

واذا كان كلام زعيم الحركة الاصلاحية يوحي بان الغاية من تربية النشء على القرآن هي تقـوية الجانب العقيدي في نفوسهم حتى يشبوا على الايمان الصحيح الذي لا تشوبه البـدع والضـلالات التي شوهت الاسـلام في الجزائر تشويهاً شنيعاً ، فان ما لكتاب الله من أثر في تقـويم ألسنة هـذه الناشئة لم يكـن ليخفى عليه وهو الذي كان للبيان القرآني أثره البالـغ في أسلوبـه الذي أثار اعجـاب المشارقة أنفسهم فقال جورج حداد يعلق على احدى خطبه : « ان كتّاب المسلمين لا يجيدون مثل هذه التحارير الراقية الا لأنهم يدرسون

القرآن الشريف • ان المسيحيين الذين لم يتأملوا القرآن ولم يدرسوا أسلوبه ، لا يستطيعون مهما حاولوا أن يبلغوا في العربية شأو الكتاب المسلمين »(١١) •

فالشعراء أنفسهم أحسوا بما لهذه التنشئة على القرآن من أثر طيب على ابداعاتهم تعبيراً وتصويراً ، اذ أسهم اسهاماً كبيراً في الارتقاء بأساليبهم عما كانت عليه أساليب الشعراء في الفترات السابقة ، كما اتسمت لغتهم بقوة وجزالة كانت تفتقر اليها أشعار أواخر القرن الماضي وبداية القرن العشرين التي كانت لغتها « في أجود حالاتها الى الفقه والعلوم الشرعية أقرب منها الى لغة الأدب والشعر »(١٢) •

ومن جهة أخرى عملت الحركة الاصلاحية على تحقيق النهضة الأدبية بالعودة الى التراث الأدبي العربي القديم الذي كانت ترى فيه هو الآخر عاملاً رئيساً من عوامل الارتقاء باللغة العربية التي كانت يومئذ في وضع لا تحسد عليه بسبب السياسة الاستعمارية الهادفة الى القضاء على الحرف العربي في الجزائر تمهيداً لمسخ الشخصية الوطنية بتعطيل مقوم رئيس من مقوماتها ، لذلك كان حرص الاصلاحيين شديداً ـ كما قلنا ـ على وصل الناشئة بالتراث العربي القديم ، لأنه لا يمكن في عرفهم « للغة العربية أن ترقى في ألسنة أبنائها ما لم تستمد رقيها من روائع فحول الأدب العربي القديم ، ومن أمثال عبدالحميد الكاتب وابن العميد ، والجاحظ والحريري والبحتري وأبي تمام والمتنبي »(١٣) •

وقد كان البشير الابراهيمي كما لاحظ الدكتور ناصر ، أكثر الاصلاحيين الحاحاً على الطلاب المبتدئين والمتخرجين في المعاهد العالية ليهتموا بالتراث حفظاً واستيعاباً ، لأنه لا سلاح للأديب ـ كما يرى ـ الا كتاب الأغاني وأمثاله من أمهات الكتب التراثية ، لذلك كان ينتقد بشدة الأدباء الذين لا يطالعون أمثال هذه المصنفات التي يتوقف عليها صقل أذهانهم وتغذية ملكاتهم البيانية واثراء مادتهم اللغوية وتنمية ثرواتهم الفكرية •

وفي توجيه الشعراء المبتدئين كان الابراهيمي يحث دوماً على محاكاة شعر فحول العربية وتحديهم كما يتجلى ذلك من تعليقاته على أشعار الشعراء ، فقد قال ينتقد أحدهم: « ••• ولكنه كغالب قالة الشعر بهذه الديار ينقصه استعراض أساليب البلغاء وتحديها وتمرين القريحة على محاكاتها وتيقظ الذهني الى أسرار فقه اللغة ومواضيع فصحها ومجانبة الرخص النحوية وتحكيم استعمالات الفصحاء في القواعد النظرية ، وعسى أن تكون كلمتنا هذه حافزة لهم »(١٤) •

وتوكيداً على أهمية التراث في تحقيق النهضة الأدبية جعل الاصلاحيون من المدرسة الاحيائية بالمشرق مورداً لشعراء الجزائر الناشئين ، فكانوا يتخيرون لتلامذتهم نماذج من شعر شعراء هذه المدرسة ويطالبونهم بحفظها وتقليدها ومعارضتها ، قال محمد الهادي السنوسي الزاهري يتحدث عن صلة الحركة الأدبية في الجزائر بالاحيائيين المشارقة : « كان أساتذتنا لا يفتأون يتخيرون لنا من منظومهم ومنثورهم ما يؤثروننا به لتثقيف عقولنا واصلاح ألسنتنا وتبصيرنا بما تجود به المدرسة الحديثة في عالم العرب ،

وكان النتاج الفكري لهؤلاء يعمل في الطلبة هنا أكثر مما تعمل فيهم مدارسهم التي ينتمون اليها على اختلافها ، فكونت بينهم انسجاماونفخت فيهم روحاً »(١٥) .

ونظراً الى هذه الصلة التي وثقها رجال الاصلاح بين الحركة الأدبية الناهضة بالجزائر وبين المدرسة الاحيائية ، اضحت اشعار أمثالحافظ ابراهيم وشوقي ومعروف الرصافي وغيرهم من الشعراء القمم الاحيائيين النماذج الفذة التي يترسم شعراء الجزائر خطاها وينسجون على منوالها ، ولعل في الالام العميقة التي كانت تعتصر نفوس الاصلاحيين وتلامذتهم من الشعراء والأدباء خاصة حين يتوفى الموت شاعراً أو أديباً من هؤلاء النهضويين المشارقة ، ما يزيدنا يقيناً من الطريق الذي سارت عليه الحركة الاصلاحية في نهضتها الأدبية ، ويكشف لنا عن الطوابع التي ستغلب على الشعر الجزائري في هذه المرحلة من تاريخه ، فابن باديس الذي كان على وعي عميق بالخدمة العظيمة التي يمكن أن يقدمها الأدب الاحيائي للعربية المهيضة الجناح في الجزائر ، حين تناهى اليه خبر وفاة شوقي كتب يقول : « مات شاعر الاسلام الذي كان يعتز بمفاخره ويشدو بمآثره وينطق بلسانه ... مات شاعر العربية الذي تشرب روحها وتملكت هي روحه فحمى أسلوبها ونغمها وحمل لواءها خفاقاً في الآفاق »(١٦) .

وقد كان لقيام الاصلاح الأدبي على القرآن الكريم والتراث العربي القديم شعره ونثره ، بالاضافة الى ما كان ينتجه التيار المحافظ بالمشرق على النحو الذي حاولنا توضيحه في السطور السابقة آثاره الطيبة في الارتقاء بالشعر الجزائري الحديث عما كان قد آل اليه من ركاكة وضعف في شكله ومضمونه على سواء ، فظهر مع الحركة الاصلاحية شعراء غيَّروا تغييراً واضحاً وجه الشعر الجزائري الذي جفت فيه الحياة أو كادت في الفترة السابقة للحركة الاصلاحية .

فبفضل جهود الاصلاحيين الذين رعوا المواهب الأدبية الناشئة رعاية حانية بما كانوا يتخيرونه لأصحابها من نماذج شعرية راقية يصقلون بها ملكاتهم وبما هيأوه لشباب الشعراء والأدباء من فرص لنشر أعمالهم ومتابعتها بالنقد والتوجيه التسديد خطاهم ، بفضل هذه الجهود التي لا يحق لنا أن نجحدها ، عرف الأدب الجزائري شعراء لهم وزنهم من أمثال السعيد الزاهري وجلول البدوي وأحمد سحنون ومحمد الهادي السنوسي الزاهري ومحمد العيد آل خليفة ومفدي زكريا وحمزة بكوشة وغيرهم كثير ، ومن يوازن بين أشعار هؤلاء والأشعار التي كانت تنظم في أواخر القرن الماضي وبدايات القرن الحالي ، فانه سيلحظ بينها فروقاً جوهرية واضحة ، سواء في معانيها أم في أسلوبها ولغتها وصورها وأخيلتها ، والنماذج التي تؤكد هذا التحول العميق الذي بدأ يعرفه الشعر الجزائري منذ نشأة الحركة الاصلاحية أكثر من أن تحصى في هذا المجال الضيق ، فيمكن الوقوف عليها في أشعار الذين ذكرناهم وفي أشعار غيرهم من الشعراء الذين استفادوا بنحو من الأنحاء من جهود الاصلاحيين ، وشهادة باحث متخصص في الأدب الجزائري الحديث تغنينا عن سرد الأمثلة لهذا التطور الذي لا نرى أية مبالغة في اسناد فضله الأول الى الحركة الاصلاحية . قال الدكتور محمد ناصر بعد تتبع واستقصاء دقيقين للشعر الجزائري الحديث : « فقد أصاب الشعر على يد الحركة الاصلاحية

تطـور ملموس تجلى في ظهور شعر جديـديختلف كثيراً عـن شعرها قبل الحرب العالمية الأولى ، متعدد الأغراض يتماشى مع الواقع الاجتماعي ويستلهم وجدانه الجماعي ، فكان أن ظهر الشعر الوطني والاصلاحي والاجتماعي والسياسي كما تطور من ناحيته الفنيـة بعض التطور فابتعدت القصيدة عن المقدمات التقليدية المتكلفة وتخلصت اللغـة الشعرية نسبياً من لغة المنظومات العلمية والفقهية ، واكتسب التعبير نوعاً من الانطلاق والحيوية وتخلص كثيراً مما كان يثقله من آثار الصناعة اللفظية والبديع المتكلف ، كمـا استطاعت بعض القصائد أن تعرف نوعاً من الوحدة في الموضوع وان ظلت السمة الغالبـة عليها هي تعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة »(١٧)٠

اذا كانت أشعار شعراء الحركة الاصلاحيـة قـد عرفت التطور الذي رسم ملامحه الدكتور ناصر في كلامه المتقدم ، فان أشعار الجيل الذي شبّ واستقام عوده في أحضان هذه الحركة ستعرف تطوراً اوسع في الثلاثينات وما بعدها ، فتبتعد ابتعاداً شديـداً عما كان عليه الشعر الجزائري قبل بداية الاصلاح ، ونظرة في ديوان شاعر كمفـدي زكريا مثلاً تكفي لتوكيد هذه الحقيقة التي لا أظن ان دارسا نزيهـاً سيماري فيها ، نقول هـذا الكـلام على الرغـم مما سيطبع شعر هـذه الفترات ــ الثلاثينيات والأربعينيات ــ مـن مباشرة وخطابية ومن موضوعات ذات طابع اجتماعي تربوي توجيهي الى غير ذلك مـن المظاهر التي أملاها على شعراء الاصلاح ومن تقيلهم كون أشعارهم موجهة بالدرجة الأولى الى عامـة الناس في مجتمع كان واقعـا تحت هيمنة استعمار شرس جعل من أهدافه الأولى القضاء على الحرف العربي وطمس معـالم الثقافة العربية الاسلامية في الجزائر دون أن نبعد بطبيعة الحال أثر المشارب التي نهل منها الاصلاحيون في وسم شعرهم بتلك المياسم: لكـن مهما كانت سعة الرقعـة التي انبسطت عليها تلك المظاهر التي كان حضورها وظيفياً غير منفصل عن الرسالة التي انتـدب شعراء هذه الحقبة أنفسهم لأدائها فان ذلك لا يسوغ انكار الأثر الايجابي للحركة الاصلاحيـة في النهوض بالشعر الجزائري الحديث ، لذلك حق لابن باديس أن يؤرخ للتحول الحقيقي في الأدب الحـديث بالجزائر بظهور جريـدة المنتقد سنة ١٩٢٥، فقد قال: « ٠٠٠ الحقيقة التي يعلمها كل واحد أن هذه الحركة الأدبية ظهرت واضحة من يوم برزت جريدة (المنتقد)، فمن يوم ذاك عرفت الجزائر من أبنائها كتـاباً وشعراء ما كانت تعرفهم مـن قبـل »(١٨) ٠

واذا كانت الحركة الاصلاحية قد استطاعت أن تخطـو بالشعر الجزائري الخطوات التي ألمحنا اليها ، فانه لا بـد من الاعتراف بأنها قد رفضت رفضاً يكاد يكون تاماً الانفتاح على التيـارات الأدبيـة التجديدية وأصمت أذنيها للأصوات التي كانت تحاول أن تتقدم بالأدب الجزائري خطوة أخرى ليتجاوب مـع ما كان يجد حوله في هذا الميدان ، سواء عند العرب أم عند الغربيين ، وفي هذا المجال يمكن أن نسجل انتصار الشعراء والأدباء الجزائريين لمدرسة الاحياء على التيارات الجديـدة التي كانت تبحث لهـا عـن موطـىء قدم ثابت في الشرق ، ففي الجدل الساخن الذي جرى بين الرافعي ممثلاً للاصلاحيين وبين طـه حسين ومريديه الداعين الى التجديد فان الاصلاحيين في الجزائر ظاهروا الرافعي على خصومـه ،

مثلما عارضوا الديوانيين في موقفهم من شعراء مدرسة الاحياء الذين كانوا معجبين بهم اشد الاعجاب .

وبسبب من هذا الموقف الذي اتخذته الحركة الاصلاحية من التيارات الأدبية الجديدة الوافدة على العالم العربي والاسلامي من الغرب الاستعماري ، فان الجهود التي بذلها رمضان حمود في العشرينيات لتطعيم الشعر الجزائري بالتفتح على الآداب الأجنبية عن طريق الترجمة ، لم تجد صداها في الساحة الأدبية بالجزائر الا في أواخر الأربعينيات مع ظهور جيل جديد من الشعراء(١٩) .

من هنا جاءت الانتقادات الكثيرة الموجهة الى الحركة الاصلاحية ، لكن اذا كان الموقف الصارم الذي اتخذه الاصلاحيون مما كان يعج به العالم حولهم من اتجاهات ومدارس أدبية جديدة لا يخلو من أثر في تأخير تفاعل الحركة الأدبية بالجزائر مع المحيط الأدبي الخارجي الى فترة لاحقة ، فانه من الظلم الشديد للحركة الاصلاحية أن ننطلق في تقويم دورها في النهضة الأدبية بالجزائر من واقعنا الراهن ونتجاهل الظروف التي كانت تنجز في ظلها مشروعها النهضوي ، فلا أحد له أدنى علقة بالتاريخ الجزائري الحديث يمكن أن يجهل ما بذله المستعمر الفرنسي في تلك الاثناء من جهود مركزة في اطار مشروع مدروس للقضاء على الشخصية الوطنية بالاجهاز على عنصريها الرئيسين وهما اللغة العربية والدين الاسلامي ، ليتهيأ له قطع صلة الجزائر بالحضارة العربية الاسلامية التي اليها انتماؤها ، من ثم فان التشبث بالتراث في مثل هذه الظروف ورفض التفاعل مع كل ما هو وافد من الغرب كان في منهج الحركة الاصلاحية ضرباً من الدفاع عن الذات والمنافحة من أجل اثبات الوجود في وقت لمّا تصل فيه الحركة بمشروعها الى غايته المرسومة ، بل كانت في بدايته ، معنى ذلك أنه لم يكن من المعقول منهجياً أن ترخص في تلك الأجواء بالتفاعل والتلاقح مع ثقافة كان من غايات منتجيها تهميش الثقافة العربية الاسلامية وتغييبها ، لتشكيك الشعب الجزائري في إنيته وأصالته ، من ثم فانه يحق لنا أن ننفي عن الاصلاحيين صفة التزمت التي تلصق بهم ، ما دام الظرف هو الذي أملى عليهم السير على ذلك المسلك الذي اختاروه نهجاً عن وعي وادراك لغاياته ونتائجه .

ومما يؤكد أن هذا الموقف كان ظرفياً أن زعيم الحركة الاصلاحية الشيخ عبدالحميد ابن باديس لم يحرم إثراء الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية بل كان يرى أن الانفتاح على تلك الثقافات أمر ضروري ، ففي مقال كتبه سنة ١٩٢٦ تحت عنوان : « تعليم اللغتين ضروري لنا » يقول : « ان الذي يحمل علم المدنية العصرية اليوم هو أوروبا. فضروري لكل أمة تريد أن تستثمر ثمار تلك العقول الناضجة وتكتنه دخائل الأحوال الجارية أن تكون عالمة حية من لغات أوربا ، وكل أمة جهلت جميع اللغات الغربية فانها تبقى في عزلة عن هذا العالم مطروحة في صحراء الجهل والنسيان من الأمم المتمدنة التي تتقدم في هذه الحياة بسرعة لم يسبق لها مثيل ، ومما لا يرتاب فيه ــ والواقع شاهد ــ أن مقدار كل أمة في اللحوق والتخلف بركب المدنية بنسبة كثرة وقلة انتشار لغة فيها من لغات الغرب »(٢٠) .

لكن هذا الانفتاح لا يمكن أن تكون له الثمار التي يرجوها ابن باديس ومعه الاصلاحيون قبل التشبع بالتراث والتمكن منه ٠ بعبارة أخرى أن الانفتاح على الغير يجب أن يكون تالياً لاستكمال بناء الشخصية ،ومن هنا نفهم لماذا كان رجال الاصلاح يعنون عناية بالغة بتنشئة تلاميذهم على القرآن الكريم وعلى الأدب العربي القديم ، فهدفهم كان مقاومة الغزو الثقافي الأجنبي ، يقول ابن باديس في سياق رده على الشابي في كتابه الخيال الشعري عند العرب « الشعر العربي هو اصل ثروتنا الأدبية وأصل بلاغتنا ومرجع شعرائنا في اللغة والبلاغة والأساليب العربية فدرسه والاستفادة منه أمر ضروري لحفظ هذا اللسان المبين ، فكيف نبني دعوتنا الى توسيع الشعر العربي بالتزهيد فيه »(٢١) ٠

فابن باديس وصحبه كانوا على بيّنة من أن الاقبال على الثقافات الأجنبية دون سلاح قوي من الايمان ومن الثقافة العربية الاصيلة لا يؤدي الا الى الذوبان في الفكر الوافد والى ضياع هدف رئيس من الاهداف التي توخى الاصلاحيون تحقيقها من خلال برامجهم التعليمية والتربوية ، وهو تعميق اسس الشخصية العربية الاسلامية في النشء الذي سيكون منقذ الأمة وقائد ثوراتها ضد الاستعمار ، وباني مجدها وحضارتها ، معنى هذا ان عودة الاصلاحيين الى التراث والحرص على بعث أمجاد الأمة كانت تهدف الى بناء الجزائر الحديثة باخراجها من الوضع الذي كانت فيه وحمايتها من الضياع والذوبان في الاخر ، فليس من الحق اذن ان نصف تعلقهم بالماضي الأدبي بالرجعية بمفهومها السلبي٠ وقد لا نكون مغالين ان قلنا ان احياء ذلك الماضي والاقتداء به كان في ذلك الوقت تجديداً جريئاً ، لأنه كان يعد خروجاً صارخاً عن واقع الحركة الأدبية بالجزائر قبل الحرب العالمية الأولى خاصة ، وهذا الاجراء يمثل في تقديرنا تحولاً حاسماً في تاريخ الشعر الجزائري الحديث ، نقول هذا على الرغم مما نلحظه في الشعر الاصلاحي من مبالغة في اهمال الموضوعات الذاتية وقصر جلّ الاهتمام على الموضوعات ذات الطابع الاجتماعي والديني والأخلاقي ، لأن ذلك كان أثراً من آثار تسخير الشعراء الاصلاحيين أشعارهم للنهوض بالمجتمع من كبوته بمعالجة أدوائه ومحاربة ما كان يفتك به من آفات وما ران عليه من ضلالات ٠

وتجدر الاشارة هنا الى أن الشعراء منذ العشرينيات كانوا على وعي كبير بوجوب تقديم مصلحة البلاد على المصلحة الفردية الضيقة ، وبضرورة توجيه الشعر لاصلاح المجتمع بدلاً من الانشغال بالنوازع الذاتية وقد عبّر عن هذه الفكرة أكثر من شاعر ، نسمع ذلك من محمد بن الحاج الطرابلسي ومن الطيب العقبي ومن السعيد الزاهري وأبي اليقظان واللقاني بن السايح ومن غيرهم ، ولا يتسع المقام لاثبات كلام هؤلاء جميعاً في هذا المجال الضيق لذلك سأجتزىء بكلام شاعرين منهم هما محمد الهادي السنوسي الزاهري ومحمد العيد آل خليفة ، فقد قال الأول يتحدث عن الشاعر ورسالته « ٠٠٠ انه ذلك الفذ القادر الذي أوقف نفسه على بني جلدته أو بني الانسان جميعاً ، يجاهد بفكره في سبيلهم ، ليهدي الضّال ويعلّم الجاهل ويضرب لأبناء البشرية المُثُل العالية في السعادة وكمال الانسان »(٢٧) ٠

أما محمد العيد فقال في مقابلة أجراها معه أستاذنا الدكتور محمد ناصر : « ان المجتمع في تلك الفترة فرض علينا أن نطرق مواضيع معينة، ولذا جاءت أشعارنا توجيهية تربوية اجتماعية على أن الواجب يقتضي من صاحب الموهبة أن يسخرها لفائدة شعبه لا لفائدته الخاصة ، فالغزل لا يخلو من روح أنانية(٢٣) .

وخلاصة ما تقدم أن دور الحركة الاصلاحية في نهضة الشعر الجزائري الحديث والارتقاء به عما كان قد تردى اليه كان رائداً ، وليس من الموضوعية في شيء أن نقوّم جهودنا في هذا المضمار بمنأى عن الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي الذي كانت تعيشه الجزائر تحت هيمنة الاستعمار الفرنسي .

☐ الهوامش :

١ ـ الشعر الجزائري الحديث د. محمد ناصر ص : ٢١ .
٢ ـ جريدة الشهاب ، ج و م ١٠ ا و ت ١٩٣٤ ص : ٣٩٠ .
٣ ـ المناظرة بين العلم والجهل . محمد بن عبد الرحمن الديسي ص : ١٠ .
٤ ـ الشعر الجزائري الحديث د. محمد ناصر ص : ٢٦ .
٥ ـ جريدة وادي ميزاب ع : ٣٣ ، ١٩٢٠/١٢/١٥ ، راجع الشعر الجزائري الحديث د. محمد ناصر ، ص : ٢٧ .
٦ ـ شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، محمد الهادي السنوسي الزاهري ج : ٦٩ .
٧ ـ الشعر الجزائري الحديث د. محمد ناصر ص : ٤٠ .
٨ ـ شعراء الجزائر في العصر الحاضر ج : ١ ص : ٧٥ .
٩ ـ الرسالة القاهرية ع : ١٣٥ ، ١٩٣٦/٢/٣ ص : ١٧٨ عن الشعر الجزائري الحديث د. محمد ناصر ص : ٢٨ .
١٠ ـ الشهاب العدد الخاص بالتفسير ص : ١٦٧ .
١١ ـ الشهاب ج : ٣ ، م ٦ ، مارس ١٩٣٠ . ص : ٦ .
١٢ ـ الشعر الجزائري الحديث د. محمد ناصر ص : ٢١ .
١٣ ـ شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، محمد الهادي السنوسي الزاهري ج : ١ ص : ١٢٨ .
١٤ ـ الشهاب ج : ٤ م : ١٤ / ١٩٣٨ ص : ١٠١ ، راجع النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي د. محمد مصايف ص : ٥٨ ، ٥٩ .
١٥ ـ هنا الجزائر ع : ٥ ، ١٩٥٤/٧/٢٧ ص : ٤ وراجع الشعر الجزائري الحديث د. محمد ناصر ص : ٥٢ ، ٥٣ .
١٦ ـ الشهاب ع : ١١ ، م : ٨ / ١٩٣٢ ص : ٦٠٥ .
١٧ ـ الشعر الجزائري الحديث د. محمد ناصر ص : ٣٠ ـ ٣١ .
١٨ ـ الشهاب ج : ١ م : ٥ ، ١٩٣٠ عن الشعر الجزائري الحديث د. محمد ناصر ص : ٢٩ .
١٩ ـ رمضان حمود الشاعر الثائر د. محمد ناصر ص : ١١٥ .
٢٠ ـ آثار عبد الحميد بن باديس ج : ٤ ص : ٤٠ .
٢١ ـ الشهاب ج : ٢ م : ٦ / ١٩٣٠ ص : ١٢٦ .
٢٢ ـ شعراء الجزائر في العصر الحاضر محمد الهادي السنوسي الزاهري ج : ٢ ص : ١٠ .
٢٣ ـ الشعب الاسبوعي ع : ١٩٧٦/١٠/٢٨ ص : ٦ .

الاستشهاد بالحوادث السابقة في شعر أبي تمام

منذر شعار*

أبو تمام الطائي ، حبيب بن أوس ، من شعراء العرب الكبار، طائر الشهرة في القرون والأجيال ، وله مذهب في الشعر اختص به وعرف قدره فيه ، وليس هذا المقام مقام شرح ذلك ، ولكن ابن شرف القيرواني ، له كتاب صغير جليل ، ظريف حسن الوقوع على الحقائق الادبية ؛ اسمه : « أعلام الكلام » يسوق ما عنده عن الشاعر ، أي شاعر ، مساق السجع والتوازن الكلامي ، وكأنه اختصار شبه منظوم لصفات كل شاعر من شعراء العرب الكبار • وفي الكلام عن أبي تمام قال ابن شرف :

« وأما الطائي حبيب ، فمخطىء الا أنه يصيب ، ومتعب لكن له من الراحة نصيب ، جزل المعاني مرصوص المباني ، مدحه ورثاؤه ، لا غزله وهجاؤه ،... الى أن يقول:

وفي شعره علم جم من النسب ، وخصلة وافرة من أيام العرب » •

فقد وقع ابن شرف القيرواني اذاً على صفة جد دقيقة من صفات أبي تمام الشعرية وهي أنه يستشهد كثيراً ، في شعره ، بحوادث التاريخ السابقة ، ويسوق أنساباً ، فيطري شعره ، ويجعل له جذباً خاصاً ، بنقله القارىء أو السامع من جو الى جو ، وباطلاعه على أشياء عفواً وصفحاً ، وبحسن استشهاده واصابته الهدف فنياً •

فمن ذلك ما فعله في بائيته الكبرى المشهورة ، في مدح المعتصم بالله العباسي ، وذكر فتحه لعمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

لبيت صوتاً زبطرياً هرقت له ... كأس الكرى ورضاب الخرد العرب

(*) كاتب وباحث من القطر العربي السوري •

وكان فتح المعتصم بالله لعمورية ، واحراقها ، وازالتها من الوجود ، حدثاً ضخماً في وقته وفي جريان مدة التاريخ ، وكان الخليفة ثار هذا الثأر لانتهاك الروم لمدينة زِبَطرة الاسلامية ، وهي الثغر الذي كان مسقط رأس المعتصم ، ودخل الروم يومئذ ذلك الثغر الاسلامي مفسدين مروّعين ،وأهان قائدهم امرأة هاشمية فصاحت يومئذ وامعتصماه ... فأزمع المعتصم على أن يُخرّب أعظم مدنهم وكانت عمورية يومئذ أعظم مدنهم بعد القسطنطينية، وكانت مدينة ـ عندهم ـ دينية ، مكرّمة ، ولها ذكر في السيرة النبوية عندنا ، وفي الحديث الشريف،ولا سيما عند البخاري في باب اسلام سَلْمان الفارسي (رضي الله عنه) فقال أبوتمام في بائيته ، معظّماً أمر عمورية ، وأنها استعصت قبل المعتصم على جبابرة الفاتحين ،وارتد عنها عظام القائدين :

وبَرْزَةِ الوجه قد أعيَت رياضتُها كسرى وصدّت صدوداً عن أبي كَرِبِ(١)

فذكر الفرس وذكر أبا كرب ، أن عمورية استعصت عليهما ، وأبو كرب هو قَيْلٌ من أقيال اليمن القدامى ، وهو تُبَّعٌ الثاني ،واسمه أسعد تُبَّان ، أو تُبَّانُ أسعد ، حفيد تبَّع الأول وهو زيد بن عمرو ، وكان قد اتسع ملكه وقويت شوكته واستولى على الأرض كلها ، وغزا الصين من صنعاء ، ومرّ جيشه يومئذ بعمورية فلم يستطع فتحها ، فتركها ، وأبو كرب هو الذي قالت فيه عجوز من أبناء الأنصار لمّا غزا أبو كرب يثرب :

ليت حظي من أبي كَرِبِ أن يَسُدَّ خَيْرُه خَبَلَه(٢)

فهذه المدينة التي استعصت على كسرى بن هرمز حين بعث لها الأصْبَهْبُذ(٣) ، وامتنعت أيضاً عن جيوش أبي كرب .. قدفتحها المعتصم وحرّقها ، فهذه لفتة تاريخية بليغة استخدمت في غرض فني وهو تعظيم ما فعله خليفة المسلمين ، وعلم القارىء والسامع خبر أبي كرب ، والتذّ فنياً من موافقة اسمه للقافية والروي .

وفي القصيدة نفسها قال أبو تمام ، في وصف الخراب الذي حلّ بعمورية :

ما ربعُ ميّةَ معموراً يُطيف به غَيْلان أبهى ربىً من ربعها الخَرِبِ
ولا الخدود وقد أدمين من خجل أشهى الى ناظري من خدها التَرِبِ(٤)

فغَيْلان هو الشاعر ذو الرُمّة ، ومعروف أنه كان من الشعراء أهل الحب العذري، وكان ينسب ، عُمرَه ، بميَّة ، وكان يأتي ديارها ، آهلة بها وبقومها فيرى رباها بهية، اذ كانت مصائب الشعراء المحبين أنهم يأتون ديار حبائبهم فيرونها أطلالاً ، فيقول أبو تمام: ان ربع ميّة معموراً بها ليس أبهى منظراً في عينيْ غيلان ذي الرمّة من ربع عمورية الخراب في نظري ، وزاد الصورة توضيحاً في البيت التالي ، وهذا يدل على خصلة نفسية عند البشر أنهم يلتذون جداً وتعظم سعادتهم برؤية عدوهم في النكال والدمار ، وقد منّ الله تعالى على بني اسرائيل أنه أهلك عدوهم ،فرعون وقومه ، أمامهم ، فقال عزّ من قائل :

« وإذْ فرَقْنا بكم البحر فانجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون »(٥) .

ففي قوله تعالى : « وأنتم تنظرون » تبيان لما قال أبو تمام من اظهاره السعادة والفرح بخراب مدينة عدو المسلمين ، وجيوشه . ومتّع أبو تمام هنا ، كما يلاحظ ، سامعه وقارئه بسَوْقه ـ خَطفاً ـ خبر ذي الرمّة ، وميّة ، وبعقده هذه المقارنة ، وبمداعبته، بمهارة ولطافة، معلومات السامع الأدبية ، وبايقاظه أشياء كانت نائمة ، في يقظة موضوعه الكبرى ، ان ما يفعله هو فعل شاعر ماهر أريب ، وهو ما لفت انتباه ابن شرف العميق حين قال ما قال مما بيناه آنفاً.

ولقد ختم أبو تمام قصيدته في عمورية بقوله :

ان كان بين صروف الدهر من رَحِمٍ ... موصولة ونمام غير منقضب

فبين أيامك اللاتي نُصرت بها ... وبين أيام بدر أقرب النسب

أبقت بني الأصفر المِمْراض كاسمهم ... صفر الوجوه وجلت أوجه العرب(٦)

فاستحضر في ختام القصيدة مسك وقعة بدر الكبرى ، في هذا السياق البديع والربط الجميل ، بين فعل رسول الله (ﷺ) وبين أحد خلفائه في الأعصر ، وهو ابن عمه، (المعتصم)، فكان المعارك لها قرابات وبينها ذمامات ،وصِلات رحم ، وكان الختام بذكرى بدر وتمجيد العرب أحسن ما يُختم به ، وصف غزوة ما صُنعت الا لله ، يقودها خليفة المسلمين ، يدحض بها الكفر ويدوس الكفار، ويرد على عدوانهم بأعظم رد .

ولأبي تمام بائية أخرى بليغة ، في مدح أبي دلف العجلي ، أمير الجزيرة للمعتصم العباسي ، والجزيرة هي في شمالي شرق سورية وشمالي غرب العراق ، ومطلع القصيدة :

على مثلها من أربع وملاعب ... أذيلت مصونات الدموع السواكب(٧)

يقول فيها لأبي دلف ، وكان من الأمراء العرب الكبار في دولة المعتصم :

اذا افتخرت يوماً تميم بقوسها ... وزادت على ما وطدت من مناقب

فانتم بذي قار أمالت سيوفكم ... عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

فاشار أبو تمام هنا الى حادثتين قبل الاسلام بقليل ، وهما رهن حاجب بن زرارة قوسه عند كسرى ، ووفاؤه بها ، ثم كسر بني شيبان وبني عجل للفرس في موقعة ذي قار ، وخبر الأولى مستفيضة به كتب التاريخ والأدب ، وملخصها أن سيد تميم حاجب بن زرارة ، ذهب الى كسرى فطلب منه ميرة ، أو أن ينزل قومه في ريفه ، أو يجير لطائم كسرى الى عكاظ .. روايات ..(٨) فطلب كسرى رهائن ، فلما ترجم ذلك لحاجب خلَع قوسه فأعطاها للملك ، فضحك من في المجلس ، وقال كسرى : أأعطيك كذا وكذا ، ألوفا ، وتعطيني قوساً لا تساوي درهماً ؟ ، فقال حاجب ، اعلم أيها الملك أن العربي اذا أعطى قوسه فقد أعطى كلمته ، فلما ترجم كلامه لكسرى أعجبه ، وقال : اقبلوها منه فلم يكن

ليسلمها أبـداً • وذهب حاجب ببغيته ، ثم هلك ، فجاء ابنه عطارد ، بعد الاسلام بقليل، فرد المال على كسرى واسترجع قوس أبيه ،واهتز كسرى عجباً ، وضجت البلاد والقبائل بقصة القوس •

وأما الحادثة الثانية ، وخبرها ، فهي أشهر ، وهي حادثة ذي قـار ، وحرب بني شيبان وبني عمهم بني عجل كتائب الفرس في ذي قار ، وكسرهم لهم، وكان أحد قواد العرب في ذلك اليوم سيّار بن حنظلة العجلي ، وأبودلف عجلي •• فيقول أبو تمام اذا ازداد فخر تميم بقوسها •• فأنتم يا بني بكر بن وائـل قد قوضتم عروش مسترهني قوس حاجب فأنتم أعظم فخـراً(٩) •

وهذان بيتان رائعان •• في وسط مدح بارع لأمير عربي في دولة عظمى ، حتى قيل ان أبا دلف لمّا سمعهما نهض واقفاً يصيح :

والله ؛ لا سمعت بقية الشعر الا قائماً ، فوقف أبو تمام لوقوفه ، ووقف المجلس كله • حتى اذا فرغ أبو تمام مـن القصيدة قال أبوأبو دلف ؛ يا أهـل الامارة ، ويا بني عجل ، أجيزوا شاعركم ، فترامت الحُلَل الفاخرة والثياب النفيسة في وسط القاعـة حتى بلغت السقف • وكـان ذلك اليوم مـن أيام الشعر العربي الرائعة في التاريخ ، وتبجيله • وفيـه أن أبا تمام كان ينشد العليّة قاعـداً ، وهو شيء شاذ يومئذ ، لم يكن يفعله الا المتنبي بعد •• فهذا دليل على رفعة أبي تمام عند القوم، لرفعة شعره • وانظر ما أحسن استشهاد أبي تمام بالتاريخ ، وتذكير السامعين بحوادث سابقة ، وايقاظ أجواء عابرة ، وربط حديث بقـديم ، بأسلوب فـذ وطريقة مثيرة للعجب والاعجاب ، مما يـدل على اتساع اطـلاع الشاعر ، وبراعته وتفنن شعره •

ولقد أصبح قوله هنا (استرهنوا قوس حاجب) كالمثل عند أجيال الأدباء بعده ، حتى ان العلامـة الصّفدي ، ضمّن شعراً له في الغزل هـذا القول التمّامي • فقـال يصف وينسب بمليح قلندري ، والقلندرية طائفـة من الناس يحلق صغارهم حواجبهم ، تظرّفاً :

بـدا لي في حلـق الحواجب فتنـة • فقلت بعقـل ذاهـل فيـه ذاهب
حبيبي بحـق الله قـل لـيَ ما الذي • دعـاك الى هـذا فقال مجاوبي :
وعـدت بوصـل العاشقـين تعطفـا • فلم يثقوا واسترهنوا قوس (حاجبي)

فـذكر الجملة وأضاف ياء المتكلم فقط(١٠) •

ومع أن هذا القول في هزل ومتدنٍ مـن الأمر ، ولا يوافـق جـو أبي تمام الجليل ولا سموه الفكري والتعبيري ، فان قول الصفدي صلاح الدين يـدل على امتـلاء أجواء الأدب بعده بقوله حتى ان الصفدي لمـا رأى حاجبـاً محلوقاً لقلندريّ وثب الى ذهنه بيت أبي تمام على الفرق بينهما كما بينّـا •

ونذكر أن هـذه القصيدة الفائقة لأبي تمـام هي التي فيها قوله المشهور ، في فضل الشعر واستمراره أبـداً :

فلو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت — حياضـك منـه في العصور الذواهب
ولكنـه صـوب العقـول اذا انجلت — سـحائب منـه اعقبت بسـحائب

وقال أبو تمام يمـدح مالك بن طوق :

لـو أنَّ دهـراً ردَّ رجـع جـوابِ — أو كفَّ مـن شاويه طولُ عتابي(١١)
لعـذلتـه في دمنتـين بأمْـرةٍ — ممحـوتـين لزينـب وربـاب

يقول فيها فـوراً ، متغزلاً :

مـن كـل ريـمٍ لم تـرم سوءاً ولم — تَخلِط صِبى أيامهـا بتصابي
اذكت عليـه شـهاب نـارٍ في الحشا — بالعـذل وهنـا اخت' آلِ شـهـاب

فذكر آل شهاب ، مستفيداً بها لصنعته المعروفة عنه ، جناساً وطباقاً ، وهم مـن بني يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مَنَاة بن تميم ، وهم قـوم مشهورون في العرب ، منهم عتيبة بن الحارث بن شهاب أحد فرسان العرب الثلاثة في الجاهلية وهم : عتيبة هذا وبسطام ابن قيس البكري ثم الشيباني ، وعامر بن الطفيل الكلابي ثم الجعفري ، وبنـو شهـاب هؤلاء هم الذين عناهم لبيد بن ربيعة ، رضي الله عنه ، في قـوله :

يرعَـون منخرق اللـّديـد كأنهم — في العز أسـرة حاجب وشهاب(١٢)

يمدح قوماً حماة لجانبي الوادي فيشبههم بأسره حاجب وهو سيّد دارمي ، وبشهاب ؛ وهو ما ذكر أبو تمـام وما نحـن بصدده .وهذه القصيدة أنشأها أبو تمام يمدح بهـا السيد مالك بن طوق التغلبي ، ويشفع بهـا الرهط من قومه يُسمَّون بني أسامـة ، كانوا أذنبوا ذنباً في عمله فطردهم فاعتذروا وتابوا وشفع لهم أبو تمام فصفح عنهـم ، فقال في شفاعتـه :

فاقِل اسامـة جرمها واصفـح لهـا — عنـه وهب مـا كـان للوهـّـاب
رفـدوك في يوم الكُـلاب وشقـّقوا — فيــه المـزاد بجحفـل غـلاّب

فذكر أبو تمام هنا يوم الكُلاب ، وهو يوم كان بـين الملكين شُرحبيل بن الحارث ، عم امرىء القيس ، وأخيه سلمة بن الحارث ، وقُتل شرحبيل يومئذ ، قتله أبو حنش عُصم ابن النعمان التغلبي ، وكانت بنو تغلب معسلمة ، وكانت تميم مـع شرحبيلٌ ، وهـذا هو الكُلاب الأول ، وأما الكُلاب الثاني فكان بـين بني تميم والرباب وبـين بني الحارث ابن كعب .

وتابع أبو تمام :

وهُمُ بعين أُباغ راشوا للوغى سهميك عند الحارث الحرَّاب
وليالي الحشّاك والثرثار قد جلبوا الجياد لواحق الأقراب

فذكر أبو تمام أيضاً يوماً كان بعين أباغ وهو موضع معروف عند العرب كانت فيه وقائع في الدهر الأول، والحارث الحراب، من ملوك العرب ، وكذا الحشّاك والثرثار موضعان كانت فيهما وقعتان لبني تغلب مع قيس عيلان ، وقيل بل هما موضع ونهر ، فيذكر أبو تمام أياماً للعرب في جاهليتهم وأنساباً ، ليؤيد شفاعته لبني أسامة عند السيد، ويذكّره بأن آباء أولئك الذين يشفع لهم اليوم قد أعانوا آباء السيد مالك في أيام لهم مجيدة ، قديماً • ومعنى لواحق الأقراب: فالأقراب هي خواصر الخيل ، فهي قد ضمرت خواصرها من شدة الجري والمقاتلة ، ثم يتابع أبو تمام :

أسبل عليهم ستر عفوك مفضلاً وانفح لهم من نائلٍ بذِنابِ
لك في رسول الله أعظم أسوةٍ وأجلّها في سنة وكتابِ
أعطى المؤلّفة القلوب رضاهم كملاً وردّ أخايذ الأحزاب(١٣)

فذكر ما فعله رسول الله (ﷺ) يوم حنين، في اعطائه الأموال للمسلمين الجدد تألفاً لقلوبهم ، كما ذكر الله تعالى في آية الصدقة من سورة التوبة (الآية ٦٠) : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم »، وكأن الشاعر يقول لممدوحه : أعفُ عن المذنبين اليك ثم التائبين الراجعين ، وأعطهم وتأسَّ برسول الله (ﷺ) الذي أعطى يوم حنين من أسلم راجعاً من الكفر والتحزب عليه• أما الأخايذ فقد ردَّ التبريزي في شرح الديوان أن تكون يوم الخندق ، ولكن : هي أخايذ يوم أوطاس وغيرها ، وأوطاس وادٍ بديار هوازن وقعت فيه وقعة بين المسلمين والمشركين بين حنين والطائف •

ويتابع أبو تمام :

والجعفريون استقلت ظُعْنُهُم عن قومهم وهم نجوم كِلاب
حتى اذا أخذ الفراق بقسطه منهم وشط بهم عن الأحباب
ورأوا بلاد الله قد لفظتهم أكنافُها رجعوا الى جوّاب
فاتوا كريم الخيم مثلكَ صافحاً عن ذكر أحقاد مَضَت وضباب(١٤)

فذكر أيضاً حادثة كانت في بني جعفر بن كلاب اضطرتهم الى الخروج عن سيدهم الجوّاب ونابذوه ، فلما لم يقدروا عليه وعلموا خطاهم رجعوا ، فوجدوا عنده ما يحبون •

فيقول الشاعر هنا لممدوحه : افعل في قومك الراجعين مثلما فعله الجواب الكلابي ، صفح عن قومه المنابذين ثم الراجعين •

وكل هذا يدل على صدق قولة ابن شرف القيرواني ، واتساع معرفة أبي تمام بأيام العرب وأنسابهم وحوادثهم ، مما طرز بها أشعاره ، وقوّى بها مختاره .

وفي قصيدة أبي تمام الفاخرة في مدح المعتصم بالله وذكر فتحه للخُرميَّة ، والتي مطلعها :

آلت أمور الشّرك شر مآل … وأقرّ بعد تَخَمُّط وصيال(١٠)

يقول في بابَكَ الخرمي الذي ثار ثم قتله المعتصم :

لما رآهم بابَكٌ دون المنى … هجر الغواية بعد طول وصال

اتخذ الفرار أخاً وأيقن أنه … صِرِّيُّ عزم من أبي سَمَّال

قال التبريزي في شرح الديوان هنا : هذا البيت مبني على حكاية حكيت عن أبي سمَّال الآمدي أنه ضلَّت ناقته فقال :أيْمُنُكَ ان لم تردَّها عليَّ لا عَبَدْتُكَ ، فوجدها وقد نشب حبلها في شجرة ، فقال :علم ربي أنها مني إصري »(١٦) ، أو قال أصرّي ، أو صرّى ، أو صرّي . أي لقد علم ربي أني كنت جاداً في قولي ، في عدم عبادته ان لم يعدَ لي الناقة ، فأعادها . وهذا كان في الجاهلية ، وذهبت حكايته هذه مثلاً في الأخبار .. وهي ان كانت حقاً تدل على لطف الله تعالى بعباده ، وان كانت جرت بعد الاسلام ، في بادرة جافية ، فالحاصل هو هو ،والمهم أن أبا تمام ذكرها ، فدل ذلك منه على معرفته بالأخبار كلها وما كان يروى ويؤثر ،والضمير في قوله في البيت « وأيقن أنه » عائد على الفرار ، أي أن بابك لما عاين جيوش الخليفة المرعبة فرَّ وجعل الفرار صِرّيَّ عزم كما كان فعل أبو سمَّال . و (صِرّيّ)التمامية هنا لم ترد في حكاية أبي سمَّال ، ولكن أبا تمام ساقها هنا على النَّسب ؛ قال التبريزي: « فكأنه فِعليٌّ من [أصَرَّ] على الشيء اذا عزم عليه ولزمه » .

وفي القصيدة نفسها يقول أبو تمام في ذكر مخادعات بابك الخرمي وفساد أمره :

لو عاين الدجال بعض صفاته … لانهلّ دمع الأعور الدجَّال

فذكر المسيح الدجال ، وفي الحديث الشريف في الدجَّال قضيتان :

١ ــ أنه سيخرج في آخر الزمان .

٢ ــ أنه الآن حي مقيَّد ينتظر الاذن من الله في الخروج ، فيخرج . وعلى أيّ القضيتين أوردت بيت أبي تمام يصدق ، فان كانت اولى فقد جعل الشاعر الدجَّال ــ لتيقُّن خروجه ــ كأنه خرج ، ورأى ما عليه بابَكُ من الافساد والفتنة ، فحزن جداً أن ما عنده من هذه البضاعة دون ما عند بابك ،وان كانت الثانية ، فالسياق اللغوي والنحوي على بابه ، ولو عاين الدجَّال (الآن) ــ أي في زمن الشاعر ــ ما عليه بابك لحزن وانهلَّ دمعه .

وقال أبو تمام يخاطب (عبدالله الكاتب)؛ وهو كبير موظفي (الحسن بن وهب) وزير الدولة المشهور :

يا سَمِيَّ النبيِّ في سورة الجـنِّ ويا ثانـي العزيز بمصر
تركت ليلةُ الصَّرَاة بقلبي جمر شوقٍ أحرَّ من كل جمر(١٧)

عنى بقوله « يا سمي النبي في سورة الجن » قوله تعالى في سورة الجن(١٨) : « وأنه لما قام عبدالله يدعوه » وعبدالله هنا هو النبي (ﷺ) ، وقوله (ويا ثاني العزيز بمصر) يعني أن مصر وليها بعد عمرو بن العاص (رضي الله عنه) عبدالله بن سعد بن أبي سرح .

وفي مدحية أبي تمام لأحمد بن أبي داود :

أرأيت أي سوالف وخدود عنَّت لنا بين اللوى فزرود(١٩)

يقول :

ان كان مسعود سقى أطلالهم سَبَل الشئون فلستُ من مسعود
ظعنوا فكان بكاي حولاً بعدهم ثم ارعوَيْتُ وذاك حُكمُ لبيد

فذكر هنا مسعوداً ولبيداً .

أما مسعود فهو أخو ذي الرمّة الشاعر، الذي ذكره ذو الرمّة نفسه في قوله :

عشيَّة مسعودٌ يقول وقد جرى على لحيتي من واكف الدمع قاطرُ
أفي الدار تبكي ـ اذ بكيتُ صبابة وأنت امرؤ قد حلمتك العشائر(٢٠)

فمسعود اذن كان نهى أخاه ذا الرمَّة عن البكاء ، وعابه ، ثم بكى هو وسال دمعه ، ويقول أبو تمام : حتى مسعود الناهي عن البكاء بكى وناح ، فلست أنا باكياً ، الا قليلاً . وأما لبيد ، فهو الشاعر لبيد بن ربيعة (رضي الله عنه) ، أحد أصحاب المعلقات، وكان في الكوفة لمّا أسن وكبر وأحس النهاية وقال :

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا الا من ربيعة أو مُضَرْ
اذا حان يوماً أن يموت أبوكما فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شَعَرْ
وقولا هو المَرءُ الذي لا خليلَه أضاع ولا خان الصديق ولا غدرْ
الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذر(٢١)

فيقول أبو تمام: لم أبك الا حولاً فقط، وذاك ما حكم به لبيد على ابنته ، فذكر أبو تمام حادثة في شعر ذي الرمة وشيئاً يتعلق بلبيد بن ربيعة ، ولقد كان قول لبيد منتشراً في أجيال الشعر بعده ، عند أبي تمام وغيره ، كما قال ابن الشجرة :

وحتى متى تفني شئونك بالبكا وقد حدَّ حداً للبكاء لبيد(٢٢)

وفي رائية أبي تمام في مدح المعتصم وذكر هلاك الأفشين :

الحـق أبلـج والسيوف عـوار فحذار مـن أسد العرين حذار(٢٣)

قـال :

ما كـان لولا فحش غـدرة خَيْذَر ليكـون في الاسلام عـام فجـار

« خَيْذَر » هو الأفشين ، فذكر الشاعر الفجار الجاهلي وهو يوم كان بين كنانة وبني عامر ، وكان لقريش فجاران أحدهما أدركه النبي (ﷺ) صغيراً ، وكان الفجار نقضاً للعهود وفجوراً في المعاملة ، تبعته وقائـع .

وقال في هـذه القصيدة ، يصف ثقـة الخليفـة المعتصم بقائـده الأفشين وغـدر الأفشين بـه :

قـد كـان بوأه الخليفـة جانبـا من قلبـه حرَماً على الأقـدار
فسقاه ماء الخفض غـير مصرّدٍ وأنـامـه في الأمـن غـير غـرار
ورأى بـه ما لم يكـن يوماً رأى عمرو بن شـأسٍ قبلـه بعـرار
فاذا ابن كافـرة يُسِرُّ بكفره وَجْـداً كوجـد فرزدقٍ بنـوار

فذكر هنا عمرو بن شأس وابنه عراراً ، وذكر الفرزدق وزوجـه النـوار ، أما عمرو بن شأس شاعر من العرب كان له ابن أسود من زوجته ، ثم تزوج غيرها وسافر فرجع ورأى عراراً قـد أساءت امرأة أبيـه معاملته في غيابه ، فعاتبها فيه فعيرته سواده وقالت ما عسى أن ترى مـن هذا الأسود ، فطلقها وقال :

وان عـراراً ان يكن غـير واضـح فاني أحب الجَوْن ذا المنكب العمَمْ
أرادت عراراً بالهـوان ومـن يـرد عراراً ــ لعمري ــ بالهوان فقد ظلم

وذهبت أبياته مثلاً ، وقد كبر عرار فكان كما رأى أبوه فيه حتى انه بُعث رسولاً ، يوماً ، الى عبدالملك بن مروان فاعجبـه ، في خبر مشـير(٢٤) .

وأما الفرزدق والنوار فقصتهما شائعة في أدب العرب ، طلّـق الفرزدق النوار ثـم ندم جداً ، وحزن ، وشاع له فيها وَجْد(٢٥)، فذكر أبو تمـام كل ذلك في معرض تنديده ببابك، على عادته، في سَوْق الأخبار وربط حاضـر بمـاض وانعـاش لمعلـومات الأدب والتاريـخ .

وقـد مدح أبو تمام بأبيات قليلة مالك بن طوق التغلبي فقال له :

قـل لابن طوق رحى سعد اذا خبطت نوائب الدهـر أعـلاهـا وأسفلهـا
أصبحـت حاتمهـا جـوداً وأحنفهـا حِلماً وكيِّسها عِلماً ودَغْفَلَها(٢٦)

فذكر هؤلاء الأعلام المشهورين من العرب قبله ، وهم حاتم الطائي ، وهو أشهر من أن يعرف ، وكذا الأحنف بن قيس ، سيّدتميم في الاسلام ، أما الكيِّس ودغفل فهما نسَّابتا العرب الكبيران ، أما الكيِّس فهوزيد بن الكيِّس (فاستغنى الشاعر هنا بذكر الآب عن الابن كما يقال في « ابن خلدون »خلدون ·· في الشعر خاصة) ، وأما دغفل فهو دغفل بن حنظلة ، وكان هذان من أعلم الناس بالأنساب ولا سيما دغفل ، وكذلك فعل أبو تمام في سينيته المشهورة في مدح أحمد بن المعتصم :

ما في وقوفك ساعة من باس نقضي ذمام الأربع الأدراس(٢٧)

قال :

اقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء اياس

فذكر عمرو بن مَعدي كَرِب ، فارس العرب في الجاهلية والاسلام ، وحاتماً ، والأحنف بن قيس ، واياس بن معاوية ، أذكى قضاة الاسلام ، وكان في زمن بني أمية ، في البصرة ، وهذا البيت هو الذي لما أنشده أبو تمام بَدَرَ يعقوب الكندي ، الفيلسوف ، وكان في المجلس ، فقال : الأمير أكبر من هذا ، فسرعان ما قال أبو تمام ، مرتجلاً :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

يريد قوله تعالى في سورة النور الآية /٣٥/ : « الله نور السموات والأرض، مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباح ··· الآية » ،فكان عجب الحاضرين عظيماً ، والغريب أن الكندي الفيلسوف ، وهو عربي محض ، يستاء من ذكر أعلام العرب ، في حضرة الأمير ، ولكنه — فيما يبدو — كان يحب أن يتملق الأمير ، وعبارة التبريزي في شرح الديوان تقول عنه: « وكان يخدم أحمد »(٢٨) على أن الكندي أكسبنا برهاناً على سرعة بديهة أبي تمام ، وحسن رده ، وانتصاره دون ايذاء أحد ، وقوة وقوعه على المَفْصِل في الأمر ، والشاهد من القرآن ، وأحمد بن المعتصم هو الذي تولى الخلافة العباسية عام ٢٤٩ هـ باسم المستعين بالله ، وكان بديع الحسن ، وهو الذي قيل فيه :

خليفة في قفص بين وصيف وبُغا

يقول ما قالا له كما تقول الببغا(٢٩)

وفي الذي ذكرنا كفاية من شعر أبي تمام على أنه محب — كما قال ابن شرف — لذكر ما سبق من أخبار تاريخية وأدبية ، وذكر أعلام ، ووضعها أحسن موضع في شعره ، منعشاً بها الذاكرة ، مُطرفاً بها سامعيه وقارئيه ، بالغاً بها ما يريد ، بليغاً في قافية ونشيد ، وان الذي يشبهه في هذه الناحية من شعراء هذا العصر الشاعر عمر أبو ريشة، رحمه الله ، فانه كان — مثل أبي تمام — مولعاً بالتاريخ واستشهاداته وادخاله في موضوعه ، كقوله البارع المثير في ميميته المشهورة التي أنشدها في حلب إثر نكبة فلسطين عام ١٩٤٨م:

رُبَّ « وا معتصماه » انطلقت ... مـلء أفـواه الصبـايـا اليُتَّـم
لامست أسماعكم لكنها ... لم تلامس نخوة « المعتصم »(٣٠)

فذكّر بحادثة المعتصم العباسي ، وسوقه الجيوش الى الروم من أجل امرأة استنجدت ؛ وكانت هذه لفتة بارعة ، وتذكيراً مثيراً ، وصورة شعرية بديعة وأليمة معاً .

وكقوله أيضاً في قصيدة رائعة له أولها :

مرابعَ الخُلْد أضنى جفني السهر ... وملّني صاحباي الكأس والوتر

يقول مذكراً بحادثة كبرى في تاريخ الاسلام ومنتشياً مفتخراً معتبراً :

يا مَنْ رأى قائد اليرموك يعقبه ... أبو عبيدة والهيجاء تستعر
فما أحسَّ بجرح في كرامته ... ولا ثنى عزمه حقد ولا كدر
وصاح في صحبه الأبرار مندفعاً ... والمجد في نشوة الاصغاء منغمر
إنّا نقاتل كي يرضى الجهاد بنا ... ولا نقاتل كي يرضى بنا « عمر »

فذكّر بحادثة عزل عُمَر بن الخطاب خالد بن الوليد بأبي عبيدة بن الجراح (رضي الله عنهم أجمعين) عن إمرة الجيش في اليرموك ، واستسلام الصاحبيين كليهما للأمر من أمير المؤمنين ، فضجّت قاعة سينما دمشق يومئذ ، وهي حاشدة ، بالتصفيق ، حين ألقى الشاعر هذا ، في وسط قصيدته المتغنية بمآثر العرب والمسلمين ، وكانت لفتة أيضاً نهاية في البراعة والحسن ، وربط حاضر بماض ، وهذه القصيدة غير منشورة في دواوين الشاعر التي صدرت ، مع أنها من مختارات شعره ، ومن عيون الأدب الحديث ، وفيها مما يمس مصر الشقيقة :

ومصر في زحمة الأهوال صامدة ... والبغي يأخذ منها فوق ما يذر
فلم تمنن بما أعطته من فلذٍ ... ان الكريم ليعطي وهو يعتذر

وفي قصيدة له اسمها : هذه أمتي ، وأولها :

ما صحا ، بعد ، من خُمار زمانه ... فليرفه بالشدو عن أشجانه(٣١)

يقول :

وأبو الطيب التفاتة إدلا ... ل الى الصيد من بني حمدانه
وعلى السرج سيف دولته النَّد ... بُ يموج الجهاد في طيلسانه

وواضح هنا ما فعل ، ثم قال :

يا لذكرى تلفّتَ المجد ما بين يديها الى ربيع زمانه
يوم هزَّ البدوي معوله الصَّلْد وأهوى ؛ على أوثانه
فتهاوت على عباءته الدنيا ورفّت على صهيل حصانه
ما انتهى إرثُنا الرفيع ولا سُلّت طيوفُ النبي من قرآنه

هذا ، وان هذه الخصلة التي أشار اليها ابن شرف في كتابه (أعلام الكلام) تراها عند كثير من الشعراء ، ولكننا اقتصرنا على من اطرد ذلك في شعره حتى كان علامة عليه ، وقد اختار ابن شرف أبا تمام فاخترناه ، وأضفنا له مشابهه في الخصيصة وهو عمر أبو ريشة ، وهي على كل حال خصيصة خصيبة ، ونازعة بارعة قلّما أجادها الا أهل البيان الموفقون ٠

☐ الحواشي :

١ ـ ديوانه ، تحقيق محمد عبده عزام ج ١ ص ٤٧ ٠
٢ ـ اخبار أبي كرب ونسبه في سيرة ابن هشام ط ٠ طه عبد الرؤوف ج ١ ص ١٦ ٠
٣ ـ يفهم هذا من عبارة ابن الجوزي في كتابه (الأذكياء) ص ١٦٩ ط محمد مرسي الغولي ٠
٤ ـ ديوان أبي تمام ص ٥٦ ٠
٥ ـ سورة البقرة الآية ٥٠ ٠
٦ ـ الديوان ج ١ ص ٧٣ ٠
٧ ـ الديوان ج ١ ص ١٩٨ ٠
٨ ـ اللطائم : القوافل التي تحمل البَزّ ونفائس التجارة ٠
٩ ـ القصتان في شرح الديوان بتحقيق عزام ج ١ ص ٢٠٨ ـ ٢٠٨ ، وثمة نقل عن التبريزي والمرزوقي والصولي ، واستعراض لروايات كثيرة في كتب الأدب والمام أيضاً بما جاء في الحديث الشريف في خبر ذي قار خاصة ٠
١٠ ـ بلوغ الأرب للآلوسي ج ١ ص ١٢٤ ، الطبعة ٣ ـ دار الكتاب العربي بمصر ٠
١١ ـ الديوان ج ١ ص ٧٥ وما بعدها ٠
١٢ ـ شرح التبريزي على شعر أبي تمام ج ١ ص ٧٧ ٠
١٣ ـ الذناب جمع ذَنوب وهو الدلو ، والأخايذ ما اخذ من الانسان ٠
١٤ ـ الخيم : النفس ، والضِّباب جمع ضب وهو الحقد ٠
١٥ ـ ديوانه الجزء ٣ ص ١٣٢ ٠ والتغطمط الهياج ، للفحل ٠
١٦ ـ الديوان ص ١٣٦ ٠
١٧ ـ ديوانه ج ٤ ص ٢٠٠ ٠
١٨ ـ الآية ١٩ ٠
١٩ ـ ديوانه ج ١ ص ٣٨٦ ٠
٢٠ ـ « أبو تمام » تاليف خضر الطائي ص ٢٩ ط بغداد ١٩٦٦ ٠
٢١ ـ ديوان لبيد تحقيق د٠ احسان عباس ط الكويت ص ٢١٣ ـ ٢١٤ اختصاراً وخلافاً في بعض الأبيات حسب اشارات ثمة ٠
٢٢ ـ عن وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٤٣ ٠
٢٣ ـ الديوان ج ٢ ص ١٩٨ ٠
٢٤ ـ الأغاني ط بيروت ـ ثقافة ج ٢ ص ٣٤٢ ٠
٢٥ ـ الأغاني ط بيروت ـ ثقافة ج ٢١ ص ٣١٦ ٠
٢٦ ـ ديوانه ج ٣ ص ٤٧ ٠
٢٧ ـ ديوانه ج ٢ ص ٢٤٢ ٠
٢٨ ـ شرح الديوان ج ٢ ص ٢٥٠ ٠
٢٩ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٥٨ ٠
٣٠ ـ ديوانه ـ مختارات ـ وهي منشور معظمها في الشوقيات المجهولة ج ١ ص ٥١ ٠
٣١ ـ ديوانه ، من عمر أبي ريشة ص ١٥٤ ٠

علم اللغة الحديث والجملة الفعلية والإسمية

صلاح الدين الزعبلاوي

بحث الدكتور جعفر دك الباب في كتابه (الموجز في شرح دلائل الاعجاز في علم المعاني) قسمة الجملة العربية الى فعلية واسمية فصوّب نهج النحاة في هذه القسمة، ودفع ما ذهب اليه العلامة الحصري في نقده لمذهبهم، واستظهر في ذلك بما ذكره المستشرقون في هذا الباب، ومن هؤلاء الأستاذ ب. غرانده في كتابه (القواعد العربية في عرض تاريخي مقارن)، والأستاذ م. برافمان في كتابه (دراسات في النحو العربي والعام).

يقول الأستاذ دك الباب: « ويشير الأستاذ ب. غرانده الى أن علماء العرب يعرّفون الفرق الأساسي في الجملة الفعلية والجملة الاسمية على الشكل التالي: الجملة الاسمية هي الجملة التي تبدأ باسم، والجملة الفعلية هي التي تبدأ بفعل، ثم يعقّب الأستاذ ب. غرانده على ذلك قائلاً: ان هذا التعريف، وان كان شكلياً يقوم على ترتيب تسلسل أجزاء الجملة، فانه يتطابق تماماً مع المميزات الداخلية لكل نموذج من نموذجي الجملة العربية/٢٠ ».

ويردف الأستاذ دك الباب فيقول: « أما الأستاذ م. برافمان فانه حين يتطرق الى طبيعة الجملة الفعلية بالمفهوم العربي، أي الجملة التي تبتدىء بفعل كضرب زيد يؤكد أن المسند اليه والمسند، والمفعول به في حال كون الفعل متعدّياً، يؤلفان وحدة متحدة، بعكس الحال في الجملة الاسمية حيث يتميز المسند اليه والمسند كوحدتين مستقلتين بعضهما عن بعض. ويضيف برافمان أنه بهذا المعنى فقط يمكن فهم النظرية العربية التي ترى أن الفعل في الجملة الفعلية يعمل في المسند اليه، أي الفاعل والمفعول به. فالفعل يعتبر عاملاً، أما المسند اليه، أي الفاعل والمفعول به فيعتبران تكملة للأساس الضروري للجملة الفعلية، أي للفعل الذي يعبّر عن الحدث/٢١ ».

أقول أكد الأستاذ برافمان هنا أن المسند والمسند اليه في الجملة الفعلية يؤلفان وحدة متحدة ، خلافاً للمسند والمسند اليه في الجملة الاسمية ، وهو ما عرض له النحاة في كلامهم على قسمة الكلمة الى اسم وفعل وحرف ، وتمييزهم الفعل من الاسم • فقد اوضحوا أن الفعل انما يخبر به عن الاسم المتحدث عنه ، وهو مفتقر الى هذا الاسم ، أي الفاعل ، فلا يفيد حتى يسند اليه فيقترن به اقتراناً لا انفكاك عنه • وقد كشفوا عن أن علاقة الفعل بفاعله ليست كعلاقة المبتدأ بخبره ، بل هي أشد وثاقة ، لأن الفاعل انما ينزل منزلة الجزء من الفعل ، وليس كذلك الخبر من المبتدأ •

قال الزمخشري في تعريف الفاعل (المفصل/١٨) : « ما كان المسند اليه من فعل أو شبهه مقدماً عليه •• وحقه الرفع ، ورافعه ما أسند اليه ، والأصل فيه أن يلي الفعل لأنه كالجزء منه » • وقال ابن يعيش في شرح المفصل (٥٧/١) : « تعلق الفعل بفاعله أشد من تعلق المبتدأ بخبره ، لأن الفاعل ينزل منزلة الجزء من الفعل ، ولا كذلك الخبر من المبتدأ » •

ويمكن أن يقال في ايضاح ذلك أنك اذا ابتدأت بالفعل فقلت (قام الرجل) تطلب الفعل مسنداً اليه بالضرورة ، في صورة واحدة هي الفاعل ، فغدا كأنه الجزء منه لا انفكاك له عنه • وهكذا قولك (قام الرجال) • فاذا ابتدأت بالاسم ورفعته على الابتداء مسنداً اليه ، فثمة صور مختلفة للمسند أي الخبر ، ولا بد أن يتطلب المبتدأ احداها لأنه محكوم عليه بالخبر • فاذا اخترت أن يكون الخبر فعلاً وفاعلاً ، في مثل قولك (الرجل قام) فلا بد أن يحمل الفعل ضميراً عائداً الى المبتدأ لرفع الأجنبية بينهما ، ولا أجنبية بين الفعل وفاعله • ولابد للخبر في المثال المتقدم أن يطابق المبتدأ في جميع أحواله • تقول : (الرجل قام والرجلان قاما والرجال قاموا) و (هند قامت) • وكذا الحال اذا كان الخبر صفة مشتقة كقولك : (الرجل قائم وهما قائمان وهم قائمون) و (هي قائمة) •

ولو قدمت الفعل فقلت (قام الرجل) لم تلزم المطابقة ، فانت تقول : (قام الرجل وقام الرجلان وقام الرجال) كما تقول (قامت النساء وقامت المرأة) ، بافراد الفعل فيها •

واذا اخترت أن يكون الخبر جملة اسمية نحو قولك : (اللؤلؤ المثقال بدينار) ، احتمل الخبر ضميراً عائداً تقديراً ، أي المثقال منه بدينار •

والدليل على أنهم أوجبوا العائد هنا لرفع الأجنبية بين المبتدأ والخبر أنك اذا آتيت بالخبر متحداً بالمبتدأ فأسقطت الأجنبية بينهما ، استغنيت عن العائد ، كأن يأتي الخبر جملة هي عين المبتدأ في المعنى لأنها مفسرة له، كقوله تعالى: « قل هو الله أحد » ، أو كان بعضها عين المبتدأ لفظاً، كقوله تعالى:« وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين » ، أو كان بعضها عين المبتدأ معنىً ، كقوله تعالى:« الذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنّا لا نضيع أجر المصلحين » ، فان المصلحين هم الذين يمسكون بالكتاب في المعنى ،

وهكذا .. فثبت بما قدمنا أن الفاعل كالجزء من الفعل، وليس كذلك الخبر من المبتدأ.

□ قسمة الكلمة الى اسم وفعل وحرف :

ونشير هنا الى أن العلامة ساطع الحصري قد تطرق الى الكلام على قسمة الكلمة الى اسم وفعل وحرف فأنكر ذلك، خلافاً لما رآه المستشرقون في هذه القسمة، فما الذي استند اليه الحصري في انكاره هذا؟

قال الحصري في كتابه (آراء وأحاديث في اللغة والأدب): «من المعلوم أن الكلمات تقسّم في قواعد اللغة العربية الى ثلاثة انواع: اسم وفعل وحرف، في حين أنها تقسّم في سائر لغات العالم الى أنواع كثيرة يبلغ عددها ثلاثة أمثال ذلك، فيجدر بنا أن نتساءل، تجاه هذا الفرق العظيم، فيما اذا كانت هناك مبررات فعلية وأسباب حقيقية تستوجب التباعد الى هذا الحد، بين العربية وبين سائر اللغات من وجهة تصنيف الكلمات ... / ١٠١».

أقول قد عرض الدكتور دك الباب في كتابه المشار اليه لكلام الحصري هذا في انكاره قسمة الكلم الى اسم وفعل وحرف فردّه عليه واظهر مباينته للصواب وأكد صحة ما ذهب اليه النحاة في هذه القسمة، مستظهراً بآراء بعض المستشرقين ومنهم الأستاذ غ. ميلينكوف، فقد رأى هذا حقاً أن مفردات الكلم في اللغات السامية، أو ما أسموه بهذا الاسم من اللغات، ثلاثة أقسام هي: الأفعال وقد وصفها بأنها الكلمات التي لم تفقد علاقتها بما أسماه (ديناميكية الحدث) وهي تتصرف لتطابق الفاعل. والاسماء وقد وصفها بأنها التي فقدت علاقتها بـ (ديناميكية الحدث) وباتت تنفهم عن طريق الحدث، والحروف وقد وصفها بأنها الكلمات المساعدة التي لا ترجع الى جذر الفعل، وقد جعل من هذه القسمة أساساً لوصف قواعد هذه اللغات.

وعقب الأستاذ دك الباب فقال: «وهكذا نجد أن الدراسات الاستشراقية الحديثة قد أكدت أن اللغات السامية، والعربية واحدة منها، تُقسّم الكلمات فيها الى فعل واسم وحرف، لأن طبيعتها تستوجب مثل هذا التقسيم، كما أكدت أن الفعل في العربية يتمتع بخاصة مميزة تجعل الذات، المتمثلة بالفاعل، متصلة بتركيبه الأصلي،

وأردف: «وهذا يعني أن الأستاذ ساطع الحصري غير محق حين قال: ليس من المعقول أن نبقى متمسكين بهذا التقسيم القديم، بل من الأوفق أن نعيد النظر فيه على أساس تكثير أنواع الكلمات أسوة بما يفعله لغويو العالم ..». ومضى الأستاذ دك الباب يقول: «ونكتفي هنا بالاشارة الى أن الدراسات اللغوية المقارنة الحديثة تثبت صحة تقسيم الكلمات الى اسم وفعل وحرف، وتوصي باتباع ذلك التقسيم بالنسبة للغات التي لا تتبعه قواعدها، فقد توصل مثلاً الدكتور س. غالسان نتيجة دراسة مقارنة قام بها للغتين المنغولية والروسية الى ضرورة تمييز ثلاثة أقسام للكلمات في اللغتين المنغولية والروسية هي الاسم والفعل والحرف، علماً بأن مثل هذا التقسيم غير متبع في دراسة قواعد اللغتين المنغولية والروسية - ص/٢٥».

☐ صحة قسمة الكلمة في العربية الى اسم وفعل وحرف :

تقسم الكلمة في العربية الى عناصر ثلاثة هي : الاسم والفعل والحرف • فالاسم ما دلّ بذاته على معنى يلازمه ، مفرداً كان قبل دخوله في تأليف الجملة ، أم مركباً وهو جزء منها ، والاسم ما نمّ كذلك على دلالة لا تكون له الا في تأليف الجملة فيكشف عنها موقعه في هذا التأليف ، فاعلاً أو مفعولاً أو حالاً ، فضلاً عما ينطوي عليه من دلالات أخرى تكشف عنها صيغته اسم فاعل أو مفعول أو صفة مشبهة، فيشبه الفعل أو يحل محله ، وعلى دلالة تبرزها لاحقة له فتكشف عن تعريفه أو تنكيره أو تذكيره أو تأنيثه••

ولا يخلو كلام مفيد من الاسم ، فلا بدّ له منه في كل تركيب ، ذلك أنه يدل على المسمى من جهة ، كما ينوب مناب الفعل فيشبهه في الدلالة على الحدث وزمانه من جهة اخرى ، فهو أكثر تصرفاً من العنصرين الآخرين • قال الشلوبين : « والكلام المفيد لا يخلو من الاسم أصلاً ، ويوجد كلام مفيد كثير لا يكون فيه فعل ولا حرف » ، كما حكاه السيوطي في الأشباه والنظائر (١/١١٩)•

والفعل ما دلّ بذاته أيضاً على حركة أو حدث يقوم به مسمى ، مقترن بزمان • فالفعل حركة الفاعل • قال الزجاجي في كتابه (الايضاح في علل النحو) : « الأسماء قبل الافعال •• وذلك أن الأفعال أحداث الأسماء ، يعنون بالأسماء أصحاب الأسماء /٨٣ » • فلفظ الفعل يدل على حدثه ، وصيغته تدل على زمانه ، ولواحقه تدل دلالات متعددة من تأنيث وتذكير ونفي وتوكيد ••

أما الحرف فلا يدل على معنى بذاته ، وهو يدل دلالات مختلفة تظهر في سياق التركيب ، وانما يكشف عن دلالات الحروف متعلقها اسماً أو فعلاً ، فهي قد تختص بالاسم أو بالفعل أو تكون مشتركة بينهما • فالحروف روابط في التركيب ، ويتوقف معناها على ذكر متعلقاتها • قال ابن يعيش في شرح المفصل : « وقولنا دلت على معنى في غيرها فصل ميّزة من الاسم والفعل، اذ معنى الاسم والفعل في أنفسهما ، ومعنى الحرف في غيره ، ألا تراك اذا قلت الغلام فُهم منه المعرفة ، ولو قلت : أل ، مفردة ، لم يفهم منه معنى • فاذا قرن بما بعده من الاسم أفاد التعريف في الاسم ، فهذا معنى دلالته في غيره ـ ٨/٢ » •

وتختلف الصورة التي يؤديها التركيب كلاً متكامل الأجزاء ، باختلاف موضع كل جزء من الآخر • وتتكامل العناصر الثلاثة تكامل الأجزاء في وحدة عضوية • فالاسم يخبر عنه ويكون الاخبار عنه بالاسم تارة والفعل أخرى • ولا يُغني الاخبار بأحدهما مُغنَى الاخبار بالآخر • والفعل يخبر به عن الاسم ويقترن به فلا ينفك عنه •

أما الحرف فقد اتخذ لربط بين معاني العنصرين الآخرين • قال الشلوبين أبو علي عمر بن محمد الأندلسي (٦٤٥ هـ) ، على ما جاء في الأشباه والنظائر للسيوطي (ص ـ ١/١١٩) : « فان الاسم يخبر به ويخبر عنه ، والفعل لا يكون الا مخبراً به ، والحرف لا يخبر به ولا يخبر عنه » • وينسب القول بتقسيم الكلمة الى ثلاثة عناصر ، في

الأصل ، الى رقعة كتبها الامام علي (كرّم الله وجهه) ، ودفعها الى أبي الأسود الدؤلي ، وقد جاء فيها: « الكلام كله اسم وفعل وحرف. فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبىء به ، والحرف ما جاء لمعنى » كما جاء في نزهة الألباء لابن الأنباري أبي البركات .

ولا يقدح في هذا التقسيم ما ذهب اليه الفرّاء من القول بمفارقة (أسماء الأفعال) في ذاتها للأسماء ، بل الأفعال في وجوه شتى ، وما ذهب اليه أبو جعفر بن صابر من جعل (اسم الفعل) قسما برأسه وتسميته : بخالفة الفعل لأنه ينوب عن الفعل في الدلالة على معناه ، ماضياً أو مضارعاً أو أمراً . قال السيوطي في الهمع : « وزعمها ، أي أسماء الأفعال ، ابن صابر قسماً رابعاً ، على أقسام الكلمة الثلاثة سماه ــ الخالفة ــ ٢/١٠٥ » . ومعنى خالفة الفعل خليفته ونائبه في الدلالة على معناه .

☐ مذهب الأستاذ ابراهيم مصطفى في الجملة الفعلية والاسمية :

عمد الأستاذ ابراهيم مصطفى ، رحمه الله ، في كتابه (إحياء النحو) الى الخوض في مباحث طريفة تتناول حد النحو ، كما رسمه النحاة ، وأصل الاعراب ومعانيه ، فتبسط وتعمق وأوغل ، ثم نادى بالتجديد في علم النحو واختطاط نهج حديث في فهمه واساغته، وفي معالجته وتعليمه ، فدل في ما انتحى على فقهه لدقائق النحو ودخائله ، واحصائه لحقائقه ومسائله ، وقد خلص من ذلك الى القول: « ولقد آن لمذهب عبدالقاهر الجرجاني أن يحيا وأن يكون هو سبيل البحث النحوي . فان من المقول ما أفاق لحظه من التفكير والتحرز ، وأن الحس اللغوي أخذ ينتعش ويتذوق الأساليب ، ويزنها بقدرتها على رسم المعاني ، والتأثير بها ، من بعد ما عاف الصناعات اللفظية وسئم زخارفها ــ ص/٢٠ » .

على أن الأستاذ ابراهيم مصطفى لم يشايع الجرجاني في كل ما رآه، وينزع منزعه في كل حكم . ذلك أنه قد انتهى في بحثه لمعاني الاعراب والموازنة بين (الفاعل والمبتدأ) الى خطة نقد بها على جمهور النحاة ما انتهجوه في تمييز أحدهما من الآخر ، وما رسموه من تحريم تقديم الفاعل ، اذ قال : « ان الاسم المتحدث عنه أو المسند اليه يتقدم على المسند ويتأخر عنه ، سواء كان المسند اسماً أو فعلاً ، وهذا أصل من أصول العربية في حرية الجملة والسعة في تأليفها/٥٥ » . ويبدو أنه قد سبق الى هذا الرأي من تقدم ذكرهم من الباحثين، وفيهم العلامة ساطع الحصري.

قال الأستاذ ابراهيم مصطفى في التوطئة لرأيه : « وأما الفاعل والمبتدأ فان النحاة يجعلون بينهما فوارق ماثلة ظاهرة ، ويجعلون لكل باب أحكاماً خاصة ، ولكن شيئاً من الامعان في درسها ينتهي الى توحيد البابين واتفاقهما في الأحكام ، والى أن هذا التفريق قد يكون منسجماً مع صناعة النحاة في الاعراب ، ولكنه مبعد عن فهم الأساليب العربية ــ ٥٤ و ٥٥ » .

وقد مضى الأستاذ في الكشف عن رأيه فقال : « فأول ذلك أنهم يقولون ان الفاعل يجب أن يتأخر عن الفعل ، لا يتقدمه بحال . أما المبتدأ فان أصله التقديم ، وربما جاء

متأخراً، فللمبتدأ من الحرية في الجملة ما ليس للفاعل » . وأردف : « هـذا حكم النحاة أو جمهورهم ، أما الأسلوب العربي فانك تقول: ظهر الحق ، والحق ظهر ، تقدم المسند اليه أو تؤخره ، وكلا الكلامين عربي سائغ مقبول عند النحاة جميعاً . ولكن النحاة ، والبصريين خاصة يحرمون أن يتقدم لفظ الحق في : ظهر الحق ، وهو فاعل كما يحرمون أن يتاخر المبتدأ من: الحق ظهر، وهو مبتدأ . فالحكم اذاً نحوي صناعي لا أثر له في الكلام، وليس مما يصحح به أسلوب أو يزيف ، وانما هو وجه من أوجه الصناعات النحوية المتكلفة لا يعنينا ان نلتزمه ، بل نحب أن نتحرر منه/ ٥٥ » .

الرأي في ما ذهب اليه الأستاذ ابراهيم مصطفى :

وهكذا يرى الأستاذ ابراهيم مصطفى أن للاسم المتحدث عنه أن يتقدم أو يتأخر من المسند اسماً كان هذا المسند أو فعلاً ، وأن هذا أصل من أصول العربية في حرية الجملة والسعة في تأليفها (ص/٥٦) .

ونحن لا نرى غير هذا الذي جاء به الأستاذ ها هنا ، لكن جواز تقديم المسند على المسند اليه وتاخيره أمر ، والتسوية بينهما في الأداء والتركيب أمر آخر . ذلك أن جواز تقديم الفاعل على الفعل ليكون مبتدأ ، لا يعني البتة احتفاظه بموقعه وأثره في الجملة الجديدة . فانت تقول في الاستفهام مثلاً (أفعلت) فتبدأ بالفعل ، وتقول (أأنت فعلت) فتؤخر الفعل وتبدأ بالاسم، ولكل منهما وجه متقبل سائغ مأنوس . ولكن هل يعني هذا أنهما يستويان في الأداء ، وأن كلاً منهما يُغني غناء الآخر ، ساد مسدّه ، في إحكام البيان من كل وجه ؟.

وقد آثرنا في ما أقمنا من شاهد ، على تباين الجملتين في الأداء والتركيب ، ما أقامه الامام عبدالقاهر الجرجاني نفسه في هذا الصدد . ونحن نستحب أن نستمع الى ما قاله في الشاهد المذكور ونروىء فيه .

قال الجرجاني في (دلائل الاعجاز) : « وهذه مسائل لا يستطيع أحد أن يمتنع من التفرقة بين تقديم ما قدم فيها وترك تقديمه . وان أبين شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة ، فان موضع الكلام على أنك اذا قلت : أفعلت ؟ فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده . واذا قلت : أأنت فعلت ؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو وكان التردد فيه/٨٧ » !

والأمر في هذا واضح ، فانت اذا قدمت الفعل فقلت (أفعلت؟) كان غرضك الاستفهام عما تشك فيه من وقوعه ، وانتظرت الاجابة لتتحقق ذلك . واذا قدمت الاسم فقلت (أأنت فعلت ؟) كان غرضك الاستفهام عمن قام بالفعل ، وأنت ترتاب في من قام به بعد أن تحقق لديك وقوع الفعل فانتظرت أن تعلم الفاعل من هو ؟ وقد ثبت بذلك أن الجملتين لم تستويا في ما استؤديتا من دلالة .

وهكذا قولك ، على النفي : (ما فعلت هذا) بتقديم الفعل ، فليس هو في الأداء كقولك : (ما أنا فعلت هذا) بتقديم الاسم . قال الجرجاني : « اذا قلت ما فعلت ، كنت نفيت عنك فعلاً لم يثبت أنه مفعول ، واذا قلت : ما أنا فعلت ، كنت نفيت عنك فعلاً ثبت أنه مفعول .. ومما هو مثال بيّن في أن تقديم الاسم يقتضي وجود الفعل قوله :

ومـا أنـا أسقمت جسمي بـه ولا أنـا أضرمت في القلب نارا

فالمعنى ، كما لا يخفى ، على أن السقم ثابت موجود ، وليس القصد بالنفي اليه ، ولكن الى أن يكون الجالب له ، ويكون قد جرّه الى نفسه .. ٩٦/٩٧ » ، وأضاف الجرجاني : « وها هنا أمران .. أحدهما أنه يصح لك أن تقول : ما قلت هذا ولا قاله أحد من الناس .. فلو قلت ما أنا قلت هذا ولا قاله أحد من الناس .. كان خلفاً من القول .. وكان في التناقض بمنزلة أن تقول: ولست القائل ذلك فتثبت أنه قيل ثم تجيء فتقول : وما قاله أحد من الناس .

والثاني من الأمرين : أنك تقول ما ضربت الا زيداً ، فيكون كلاماً مستقيماً ، ولو قلت : ما أنا ضربت الا زيداً كان لغواً من القول ، وذلك لأن نقض النفي بإلاّ يقتضي أن تكون ضربت زيداً ، وتقديمك ضميرك وإيلاؤه حرف النفي يقتضي أن تكون ضربته فهما يتدافعان ـ ٩٧/٩٨ » .

فقد رأيت بما لا مجال فيه للشك أن الامام الجرجاني قد دأب على أن يثبت أن نظم الكلام ، أي صوغه على شكل من الأشكال ، انما هو تابع لمعناه يقتاس به ويقص أثره ، وأن اختلاف صوغ العبارة عامة يدل على اختلاف الأداء ، فليس يمكن أن تؤدي عبارتان معنىً واحداً ، حتى تتفقا من كل وجه .

ولنذكر هنا ما أشار اليه الجرجاني ، وقد عرضنا له في فصل سابق ، من أنك اذا حدّثت عن محدّث عنه بفعل فقدمت ذكر الفعل ، كان الفعل مما لا يشك في وقوعه ولا ينكر ، كقولك قد خرج . فاذا قدمت ذكر المحدث عنه وأخّرت الفعل فقلت : هو قد خرج ، فقد أكدت الخبر وحققته ، في ما سبق فيه انكار منكر أو اعتراض شاكّ .. خلافاً لما ذهب اليه الأستاذ ابراهيم مصطفى في كتابه (إحياء النحو) .

ويروي الجرجاني ، في هذا الصدد ، حديثاً جرى بين الفيلسوف يعقوب بن اسحاق الكندي وبين امام النحو البصري المبرّد أبي العباس بن محمد بن يزيد ، وكلاهما يماني . فقد ركب الفيلسوف الكندي الى أبي العباس المبرد ليحدثه عما بدا له من أمر العربية فقال له : « اني لأجد في كلام العرب حشواً ، فقال له أبو العباس : في أي موضع وجدت ذلك . فقال : أجد العرب يقولون : عبدالله قائم ، ثم يقولون : ان عبدالله قائم ، ثم يقولون: ان عبدالله لقائم ، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد . قال أبو العباس : بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ . فقولهم : عبدالله قائم ، اخبار عن قيامه ، وقولهم : ان عبدالله قائم ، جواب عن سؤال سائل ، وقولهم : ان عبدالله لقائم ، جواب منكر قيامه ، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني/٢٤٢ » . قال الجرجاني : « وانما دخلت ـ ان ـ في

الجملة يجاب بها السائل لكي يثبت الجواب في نفس السامـع ، فاذا كـان الكلام لمنكر احتاج القائل الى أكثر من توكيد يقتلع به هذا الانكار » ۰

أقول انما أثبت هذا الحديث الذي رواه الجرجاني حكاية عـن ابن الأنباري ، اشارة الى اهتمام الامام بالفروق الدقيقة التي تشي بها مواضع الألفاظ، واختلاف المعاني باختلاف التراكيب عامـة ۰ ولا ننس أن ما أجاب بـه الامام المبرّد قد غدا الأصل الذي عقد عليـه علماء البلاغة ما أسموه (أضرب الخبر) ۰ وقدمضى الجرجاني يبسط رأيـه وينقّب عـن مواضـع استعمال (ان) ومختلف مواقعهـا في الكلام فعـلَ متدبّر مدقـق مبالغ في الفحص مغرق في البحث (٢٤٤ـ٢٥٢) ۰ على أن من الثابت أن الفيلسوف الكندي لم يكن بعيداً عن مجال الأدب ، وقـد روي له شعر ولو لم يكن الأدب الميدان الذي ظهرت فيـه مواهبه وآثار عبقريتـه ، كما قال الأستاذ مصطفى عبدالرزاق في كتابه (الكندي فيلسوف العرب والمعلم الثاني) ۰ وعندي أن الذي نُسب من الجهل الى الكندي، في الحديث المذكور آنفاً، لا يخفى على الناشىء ۰ وأوقع ما في ظني أن تكون رواية الحديث موضوعة ، وهـذا هو المتبادر من أمرها ۰

□ مذهب الأستاذ يـوسف السـودا في قسمة الجملة :

وقد لحق بركب هؤلاء في تخطئة جمهور النحاة ، في قسمة الجملة الى فعلية واسمية ، الأستاذ يوسف السودا في كتابه (الأحرفية/ ١٩٥٩ م) اذ قال: « فبدلاً من اعتمادهم أن الجملة الخالية مـن فعل هي جملة اسمية ،والجملة التي تشتمل على فعـل هـي جملة فعلية ، على ما هي الحال في سائر اللغات ،فضّلوا أن يطلقوا على التركيب الأول الخالي مـن فعـل : مبتدأ وخبر ، وهو أساس تلك التسمية ، فوقعوا في مشاكل لا تحلّ ــ ١٤ و ١٥ » ۰ أقـول ان النحاة أطلقوا (المبتـدأ والخبر) على الجملة الاسميـة ، أي الجملة التي يتقدم فيها المسند اليـه ، وقـد يكون المسند فيها اسماً أو يكون فعـلاً ، أي جملة فعلية۰ ومضى الأستاذ السودا يقول: « تقول في اعراب جرى الماء في السواقي ، الماء فاعل ، لكن عندما نقول : الماء جرى في السواقي ،لا يبقى الماء فاعلاً ، بل يصبح الماء مبتدأ ۰ وعندما أصبح الماء مبتدأ صار في حاجة الى خبر ، فقالوا: ان الجملة: جرى في السواقي، هي خبر ۰ ولكن عندما نزعوا من الماء صفة الفاعل ، صار فعـل ــ جرى ــ في حاجة الى فاعـل ، فقالوا ان الفاعـل مستتر تقـديره ــ هو ــ أي الماء ، في حين أن كلمة ــ الماء ــ ظـاهرة في التركيب الأول : جـرى المـاء في السواقي، لكن مركز الماء تغير، ففي التركيب الأول تقدم الفعل، وفي التركيب الثاني تأخر الفعـل/ ٤٩ ــ ٥٠ » ۰

فالأستاذ السودا لم يزد شيئاً على ما قاله الآخرون ممن انتقدوا على جمهور النحاة مذهبهم في قسمة الجملة ، والجواب عما جاءبه هو ما تقدم بيـانه في الجواب عن مذهب هؤلاء ، في فصلنا هذا وما قبله ۰

والمتأمل لما اختطه الأستاذ يوسف السودا في هـذا الباب ، يلمـح ثورة على النحو والنحاة ، فلا يعقـل لنحو أنشىء وأسس في القرن الثـاني للهجرة ، على ما يـرى ، أن تبقى أسسه قائمة وأعلامه مرفوعة وأصوله سائدة، وقد انتهى القرن الرابع عشر أو كاد !

يقول الأستاذ السودا : « لو قام اليوم الأئمة الأقدمون، ورأوا أن المتأخرين لايزالون عند القواعد التي وضعها القرن الثامن ، لعتب سيبويه والزمخشري وابن مالك على نحاة اليوم واستفزوهم الى اعادة النظر في الأسس القديمة ، حرصاً على اللغة ، وسعياً لتذييعها بين أبنائها ، ونشرها بين الامم ، كما تنشر الأمم لغاتها بين أبناء العروبة » .

أقول في الجواب عن هذا : اننا لا نقف من قواعد النحو موقف من يرى أنها مقدسة مسلَّمة مُلزمة ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، لكننا مع ذلك لا نتعجل تعرف أسرارها لمبادرة النظر في تغيير ما أُرسي من قواعدها والعدول بهذه القواعد الى نحو جديد طريف يحلّ محل الموروث منه ويُغني مُغناها . فاذا كان النحاة ، حين عمدوا الى اتخاذ هذه القواعد والأصول ، قد عرضوا لما انتهى اليهم من كلام العرب فتأمّلوه وتدبَّروه وتتبعوه واستقروه ، فاستشفّوا نظام صوغه وكشفوا عن طرائق تأليفه واستنبطوا أحكامه وضوابطه ، أقول اذا كان النحاة قد انتهجوا هذا النهج فيما خلصوا اليه من الآراء ، فان علينا أن نسلك نحو مسلكهم ونقصد مثل قصدهم ونستن بسنة كسنتهم ، في تدبّر كلام العرب وتأمله واستشفافه واعمال النظر فيه ، كلما تراءى لنا تخطئتهم وتوهين آرائهم فيما انتهوا اليه من ضوابط وصدروا عنه من أحكام . واذا كان من حق العالم أن يكشف عما وقع من أوهام القدماء واتفق من زلاتهم في ما قننوه وقعّدوه ، فان عليه أن يكون حسن التحقيق والتثبت في ما يعيب، بل طويل التنفّس في ما يتخذ من البحث والتنقير .

□ مذهب الأستاذ عدنان بن ذريل في قسمة الجملة :

بسط الأستاذ عدنان بن ذريل رأيه في قسمة الجملة ، في موضوع ما أسماه (الصور النحوية أو صور البناء) في كتابه (اللغة والبلاغة/١٩٨٣ م) ، فقال : « ليس للاسم ميزة على الفعل في اللغة العربية ، اللهم الامزية الذاتية انه اسم ، ولذلك يمكن في اللغة العربية الابتداء بالاسم ، والتأثير بواسطته على المتلقي ، كما يمكن الابتداء بالفعل ، والتأثير بواسطته على المتلقي أيضاً/١٠٣ » . ومضى يقول : « لقد سهلت الحياة العربية ، ذرائعية اللغة ، فسهلت الاستعمال اللغوي لكل من الاسم والفعل ، كما سهلت الابلاغية بكلتا الجملتين ، الاسمية والفعلية ، ومن هنا تمتع كل من الاسم والفعل عندنا بقيمته اللغوية والبلاغية .. في حين أن الفعل عند الغربيين مجرد عنصر محمولي ، لا يصح الابتداء به قط ، الا مصدرياً » .

ثم عمد الى التفريق بين نوعي الجملة، فقال : « واللغة العربية لا تلتزم جملة واحدة ، أو لنقل لا تلتزم بنية واحدة لتركيب الجمل ، هي مثلاً، بنية: فاعل وفعل ومفعول به ، التي يلتزمها الغربيون ، فهذه البنية عندنا تشكل ما يسمى جملة اسمية خبرها فعل ، أي : اسم وفعل وفاعل ومتعلقات ،والتي هي شكل من أشكال الجملة الاسمية المؤلفة من المبتدأ والخبر وأشكال تركيبها » .

وقد أكد اتصاف الجملتين الاسمية والفعلية ، في الأداء العربي ، بأوصافهما عند النحاة ، فقال : « الجملة الاسمية تبدأ بالاسم فتسند اليه اسماً آخر أو فعلاً ، أو صفة ،

وتفيد ثبوت شيء لشيء ، فهي اذن عمادالتقرير في الاثبات والنفي ٠٠ والجملة الفعلية تبدأ بالفعل فتسنده الى الفاعل الذي قام بالفعل ، وتفيد بالتالي حدوث فعل في زمن معين ، أي حصوله في الماضي أوالحاضر أو المستقبل ــ ١٠٣/١٠٤ » ٠

فالأستاذ لم يخرج عما قرره النحاة في هذه القسمة ولا خالفهم في رأي أو نازعهم في حكم ، خلافاً لكثيرين ممن ذكرنا من الباحثين المعاصرين ٠

وقد طاف الأستاذ عدنان بن ذريل بمذهب الأستاذ زكي الأرسوزي ، رحمه الله ، في الجملة الفعلية ، وقد أشرنا الى ذلك في مقالسابق، فقال: « وكان المرحوم زكي الأرسوزي يقول : ان الجملة الفعلية هي الأصل ، فتركيب الكلام العربي في نظره يبدأ بالفعل ، ثم يأتي الفاعل ، والملحقات المتممة للمعنى ، فيحين أن اللغات الأجنبية ، كالفرنسية مثلاً ، فان التركيب فيها يبدأ بالفاعل ثم يلحقه الفعل/١٠٤ » ، وأردف : « ويقدم زكي الأرسوزي تعليلاً لذلك ، هو أن اللسان العربي لسان بدئي نشأ مع يقظة الحياة على المعنى ، فسجل حركات الفعل ، في حين أناللغات الأخرى حديثة تحمل طابع المنطق فتهتم بالموضوع ، أي الفاعل الذي يبدأالجملة عندهم » ٠

وعلق الأستاذ على مذهب الأرسوزي هذا فقال : « الا أننا نعتقد أن القطع بأن اللغة العربية تبدأ أو أيضاً كانت بدأت منذنشأتها بالفعل هو أمر لا دليل عليه ، وغير عملي ٠٠ والأصح في نظرنا اعتبار الجملتين الاسمية والفعلية مظاهر بلاغية مرنة تستند الى أسلوبية ذرائعية واحدة تتفاعل مع الحياة ، تتأثر بها وتؤثر فيها » ٠

أقول قد بحثنا في مقال سابق وأتينا بما يوطئّن للأخذ بمذهب الأرسوزي والشيخ علي الجارم في هذا الصدد ويدعو اليه ويعرف به ، وهو ما يقود اليه ويوصي به مذهب الجرجاني أيضاً. ذلك أن الشيخ علي الجارمقد ذهب في مقال له (في الجزء السابع من مجلة مجمع اللغة العربية القاهرية عام١٩٥٣للميلاد ، الى أن العرب قد جعلوا من الجملة الفعلية الأصل الغالب الكثير في التعبير ، لأنالعربي جرت سليقته ودرجت فطرته على الاهتمام بالحدث في الأحوال العادية الكثيرة ،وهي التي لا يريد فيها أن ينبه السامع الى الاهتمام بما وقع منه الحدث، أو التي لا يهتمهو فيها بمن وقع منه الحدث ، فالأصل عنده في الاخبار أن يبدأ بالفعل ، يبدأ بذكره أولاً قبل أن يذكر الفاعل،فاذا بدأ بالفاعل فاختار الجملة الاسمية فلكي يخصصه به أو لكييبعد الشبهة عن السامع ، ويمنعه من أن يظن به الغلط أو التزيّد ٠٠

وقد رأيت أن الأستاذ زكي الأرسوزيقد نزع هذا المنزع بما نبّه عليه من شأنالفعل في العربية في كتابه (العبقرية العربية في لسانها/٢٢٧) ، كما فصلناه في مقال سابق ، فجاء الأستاذ عدنان ها هنا يذكّر بهذا ويشكك فيما ذهب اليه الجارم والأرسوزي ، قائلاً : ان هذا الأمر لا دليل عليه وغير عملي ٠

أقول ان مذهب الأرسوزي في شأن الفعلفي العربية ، وذهاب الجارم الى أن الجملة الفعلية هي الغالب الكثير في التعبير وأنالأصل عند العربي في الاخبار أن يبدأ بالفعل، أقول ان هذه الدعوى التي غدت مسلّمة انمايصح فيها الاستقراء اذا طال الاستقراء الكثير

من كلام الفصحاء • وهذا ما عمد اليه الامام عبدالقاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الاعجاز) حين أخذ باستقراء آي التنزيل والجم من شعر الأوائل فتبين له أن العربي انما يقدم الفاعل في المعنى اذا كان ثمة داع الى تقديمه كتبديد الشك أو دفع الانكار في ذهن السامع، فيبدأ بذكره ويوقعه أولا ، فاذا لم يكن في الحديث ما يتطلب ذلك ، وهو الأكثر والأغلب فيها ، يبدأ بالفعل ليخبر السامع بحدث ابتدائي ، أي بخبر خلا ذهن المخاطب عنه وعن التردد فيه (كما جاء في دلائل الاعجاز/٨٩) ، أقول وهذا ما أفاد منه الشيخ الجارم فيما ذهب اليه •

ولعل من المفيد أن نضيف أن هذه الدعوى قد غدت مسلّمة ، لا بما أسفر عنه الاستقراء لكلام العرب من الأوائل وحسب ، بل بما قرره المتخصصون من الباحثين في ما أسموه باللغات السامية ، وهي لهجات موغلة في القدم للعربية ، ومنها الأكادية والآشورية والبابلية والكنعانية والآرامية ، بل منها الأوغاريتية أو الكنعانية الشمالية وقد اعتدها عضو المجمع الفرنسي كلود شيفر أقدم مصدر للغة العربية ، وهي حقا أقدم لغة ذات أبجدية ترجع الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وقد بسطنا القول في ذلك في فصل سابق (مجلة التراث العربي ، في العددين ٣٩ و ٤٠) • قال الدكتور اسرائيل ولفنسون في كتابه (تاريخ اللغات السامية) : « أما في اللغات السامية فالفعل هو كل شيء ، فمنه تتكون الجملة ، ولم يخضع للاسم والضمير بل نجد الضمير مسندا الى الفعل ومرتبطا به ارتباطا وثيقا/١٥ » • ومتى ارتبط الاسم الظاهر أو الضمير بالفعل ارتباطا وثيقا كان فاعلا للفعل وكانت الجملة فعلية ، ولعل صحة التعبير فيما قاله ولفنسون : أسند الفعل الى الضمير أو الظاهر ، لا العكس •

☐ الكوفيون وتقديم الفاعل :

ان مما أورده القائلون بالتسوية بين تقديم الفعل وتأخيره ، في الاسناد والأداء ، أن الكوفيين قد أخذوا بجواز تقديم الفاعل ، خلافا لجمهور النحاة البصريين ، فما الذي اعتمده الكوفيون في مذهبهم هذا ؟

قال الجواري في كتابه (نحو الفعل) : « وحقيقة الأمر أنه لا فرق بين قام زيد ، وزيد قام ، من حيث طبيعة التركيب ، فالمسند فعل في الجملتين والفرق بينهما ينحصر في تقديم المسند اليه في الجملة الثانية : زيد قام ، للاهتمام به وتأكيد الحكم عليه • أما الجملة الأولى فهي الجملة الفعلية على رسلها ، وعلى المألوف فيها/١٢ » •

وقال في موضع آخر : « وليس تقديم الفاعل بالأمر الغريب ، فقد أجازه نحاة الكوفة ، وهو في اللغات الحديثة وما تحدرت عنه من اللغات القديمة ، وهو المألوف/٨٥ » •

وقال المخزومي في كتابه (في النحو العربي) : « ومعنى هذا أن كلا من قولنا : طلع البدر ، والبدر طلع ، جملة فعلية • أما الجملة الأولى فالأمر فيها واضح ، وليس لنا فيه خلاف مع القدماء ، وأما الجملة الثانية فاسمية في نظر القدماء وفعلية في نظرنا ، لأنه

لم يطرأ عليها جديد الا تقديم المسند اليه ،وتقديم المسند اليه لا يغير من طبيعة الجملة، لأنه أنما قدم للاهتمام به/٤٢ » ٠

وقال في موضع آخر : « وليس يمتنع أن يتقدم الفاعل ، كما تصور النحاة المناطقة ، وخاصة اذا عرفنا ان الكوفيين كانوا يذهبون الى جواز تقدم الفاعل ، وأنهم انما ذهبوا الى هذا لأنهم عثروا من الشواهد على ما يؤيد مذهبهم ٠٠ وحين واجهوا به البصريين لم يستطيعوا رده ، ولكنهم تحيلوا على تأويله تأويلاً لا حاجة بنا الى ذكره/٤٤ » ٠

وقال الدكتور ابراهيم السامرائي ، في كتابه (الفعل زمانه وأبنيته) : « فقد أصاب الأستاذ المخزومي الحقيقة في الحد الذي رسمه للجملة ، فان سافر محمد جملة فعلية ، هي نفسها محمد سافر/٢٠٤ » ٠

وقال في موضع آخر : « ورأي الكوفيين في هذه المسألة مقبول ، وذلك لقربه من المنهج الوصفي الواقعي ٠ وقد كان المخزومي مصيباً باتباعه رأي الكوفيين في هذا الموضوع/ ٢٠٩ »

ونحا هذا النحو الأستاذ فيليب السودا، كما سبق اليه الأستاذ مصطفى ابراهيم في كتابه (احياء النحو) فجعل قولك (ظهر الحق) كقولك (الحق ظهر) ، أما الحكم الذي ذكره النحاة فاقتضى تمييز أحدهما من الآخر ،فقد اعتده حكماً صناعياً لا أثر له في الكلام ٠ وهكذا نقد على البصريين مقالتهم في التمييز، وأيّد الكوفيين في جواز تقديم الفاعل ، فما الرأي في هذا كله ؟

□ دليل الكوفيين على جواز تقديم الفاعل :

أقول اعتمد الكوفيون في اقرار مذهبهم قول مرار الفقعسي :

صددت فاطولت الصدود وقلما … وصال على طول الصدود يدوم

فذهبوا الى رفع (وصال) بالفاعلية والى تقدمه على فعله ٠ وأنكر البصريون ما ذهب اليه الكوفيون وانتهوا من تقليب النظر فيه الى تأويله على وجوه كثيرة ، كما جاء تفصيله في كتاب (الضرائر لمحمود شكري الآلوسي ـ ص/٢٤٨) : وعندي أن بيت القصيد في الشاهد هو (قلما) فما الذي ينبغي أن يلي هذا التركيب اذا استقرينا كلام العرب ؟ الفعل أم الاسم ؟ فاذا كان (قلما) مما يقع معناه على الحدث تبعه الفعل المتحدث به ، أو على الاسم تلاه المتحدث عنه ٠ والذي اجتمعت عليه كلمة جمهور النحاة ، وعليه كلام العرب عامة ، أن (قلما) يتطلب الفعل لا الاسم ، فاذا لم يذكر فلا بد من تقديره ٠ وقد أشار الى ذلك سيبويه في الكتاب فقال : « هذا باب الحروف التي لا يليها بعدها الا الفعل ٠٠ » فذكر مما يليه الفعل من المركبات (ربما وقلما) ، قال سيبويه : « وجعلوا ربّ مع ما بمنزلة كلمة واحدة وهيؤوها ليذكر بعدها الفعل لأنه لم يكن لهم سبيل الى رب يقول ، ولا الى قل يقول ، فالحقوهما وأخلصوهما للفعل » ، لكنه استدرك فقال : « وقد يجوز في الشعر تقديم الاسم ، قال :صددت فاطولت الصدود وقلما وصال ٠٠ ـ الكتاب : ٤٥٨/١ » فقصر تقديم الاسم على الشعر ، ولم يجزه في الاختيار ٠

وذهب جماعة الى أن الفعل لم يذكر في هذا الشاهد ، اذ ولي (قلما) اسم هو (وصال) فكان لا بد من تقدير الفعل على ما يوجبه سياق الكلام ٠ ومن ثم ارتفع (وصال) بفعل مضمر دل عليه الظاهر ، والتقدير (وقلما يدوم وصال على طول الصدود يدوم ، أو قلما يبقى أو يثبت ٠٠) ، وفي هذا من التكلف ما هو بيِّن ظاهر ٠

ويبدو مثل هذ التكلف في ما ذُهب اليه من أن (ما) مصدرية ، والتقدير (قلَّ أن يدوم وصال على طول الصدود يدوم) فهل يتأتى أن يقال نحو من ذلك في الاختيار ؟ وقد جرى النحاة على نحو من هذه التقديرات في أبواب كثيرة ، كقولهم في تأويل (زيداً رأيته) انه في تقدير (رأيت زيداً رأيته) ، وفي تأويل (ان أحدٌ من المشركين استجارك) انه في تقدير (ان استجارك أحد من المشركين استجارك)، وفي تأويل (وأما ثمودَ فهديناهم) ، انه في تقدير (وأما ثمود فهدينا هديناهم) ٠وهكذا ٠٠ والأصل في التقدير أن يكون مما يقال في الاختيار ، والا فهو تقدير متكلف دعت اليه صناعة الاعراب ٠

ولنعد الى ما كنا بسبيله من تأويل النحاة للشاهد ، فقد قيل في ما قيل ان (ما) زائدة ، وارتفاع (وصال) فاعلاً ، انما كان بفعل (قل) والتقدير (وقلَّ وصال يدوم) ، وهو وجه لا بأس به ، لولا ما ثبت من أن (قلما) مركبة ، انما تتطلب الفعل ، والمعنى يقتضيه ٠

وعندي أن وجه الرأي قائم في ما قيل من أن الفعل قد ذكر في الشاهد ، لكنه تاخر، وهو يدوم ، وأن الضرورة قد حملت الشاعر على أن يؤخره ويقدم الفاعل، وهو (وصال)٠ فالفاعل قدّم لكنه على نية التاخير ، والفعل قد أخر وهو على نية التقديم ٠ وعلى ذلك ما ذهب اليه سيبويه ، كما ذكرنا ، اذ قال :« وانما الكلام: قلما يدوم وصال ـ ١/١٢»، أي أن الأصل في الكلام أن يتقدم الفعل فيلي (قلما) ويتأخر الفاعل ، ذلك أن تقدم الفاعل من وضع الشيء في غير موضعه ، فلا يصح الا في الشعر ، وهو غير جائز في الاختيار ، وذلك ما ذهب اليه ابن عصفور الاندلسي أيضاً في كتابه (الضرائر) ٠ أما ذهاب الكوفيين الى رفع (وصال) على الفاعلية ، لجواز تقديم الفاعل ، فيمنع منه أن (قلما) مهياة لأن يليها الفعل دون الاسم ، ولم يرد في سعة الكلام ما تقدم فيه الفاعل وتأخر الفعل فيتخذ حجة في جوازه ٠

□ شاهد الكوفيين الآخر في جواز تقديم الفاعل :

وثمة شاهد آخر يستند اليه الكوفيون في الانتصار لمذهبهم ، وهو قول الزباء :

ما للجمال مشيها وئيدا ... أجندلاً يحملن أم حديدا

فاصل الكلام أن يقال (ما للجمال وئيداً مشيها) فينصب (وئيداً) على الحال ، وهو صفة مشبهة ، ويرفع (مشيها) على الفاعل ، والفاعل فيه الصفة نفسها ٠ وانما تعمل الصفة أصلاً في ما تلاها ، لا في ما تقدمها قال الشاعر :

رأيت الوليد بن اليزيد مباركا ... شديداً باعباء الخلافة كاهله

فقوله (شديداً كاهله) كقول الشاعرة لو جاء على الأصل (وئيداً مشيها) فكاهل فاعل (شديداً) ، كما كان (مشيها) فاعل (وئيداً) ..

لكن الزبّاء قدمت ما حقه التأخير ، وهو فاعل الصفة ، وأخرت ما حقه التقديم وهو الصفة العاملة ، على غير الأصل . ولو صح ذلك في الاختيار لصح الاستشهاد بالبيت لجواز تقديم الفاعل ، لكن الشاعرة قد فعلت ما فعلت من تقديم الفاعل وتأخير الصفة لأمرين :

أولهما : وزن الشعر وقد كان لا يستقيم لو جاء الكلام على الأصل ، فقيل (ما للجمال وئيداً مشيهاً) .

ثانيهما: السجع المرصّع ، في قوله (وئيداً) في صدر البيت ، و (حديداً) في عجزه . والتصريع جعل العروض مقفاةتقفية الضرب . ومنه قول أبي نواس :

بأطراف المثقفة العوالي تفرّدنا بأوساط المعالي

وقد فعلت الزبّاء هذا في البيت الذي تلا الشاهد فقالت :

أم صرفانا بارداً شديداً أم الرجال جثّما قعودا

وقد كان يمكن أن يؤتى بالحال (جملة)فتقول : (ما للجمال مشيهاً وئيد) بدلاً من أن يؤتى بها في قوله (وئيداً) فتكون الجملة الاسمية في موضع النصب، على الحالية . لكن حرص الشاعرة على المشاكلة بين حركتي(وئيداً) و (حديداً) بالنصب فيهما . دفعها الى اختيار الحال المفردة ، وقولها (ما للجمال مشيها وئيداً) أوقع في تصوير الحركة من قولها (ما للجمال مشيها وئيد) . ومجيء الحال بعد قولك (ما لَكَ) شائع ، في كلام العرب، كما جاء في التنزيل : « ما لَكَ لا تأمنّا على يوسف ــ يوسف/١١ » ، فجملة (لا تأمنّا) في موضع الحال . ومثل (ما لَكَ) في مجيء الحال بعدها (ما بالك) . فأنت تقول : « ما لك حزيناً » اذا أردت الحال مفردة .كما تقول في نحو قول الشاعر : « ما بال قلبك يا مجنون قد هلعا » أو نحو قول الشاعر: « ما بال دينك ترضى أن تدنسه »، اذا كانت الحال جملة فعلية ، أو نحو قول الشاعر: « ما بال عينيك منها الماء ينسكب » اذا كانت الحال جملة اسمية .

* * *

وبعد فقد تبين بما فصّلنا من القول أن النحاة قد أصابوا في ميز الجملة التي تبدأ بالاسم ، من الجملة التي تبدأ بالفعل ، وأنه لا مجال للتسوية بينهما في الأداء بحال من الاحوال، فلكل منهما شأن في التركيب لا يغني فيه أن يقال ان الداعي الى تقديم ما قدّم ، اسماً أو فعلاً ، انما هو الاهتمام بـه ، فلايمكن أن تتفق جملتان في الأداء ما اختلفت مواقع الأجزاء بعضها من بعض .

كما اتضح أن النحاة قد أنضجوا الرأي في قسمة الكلمة الى اسم وفعل وحرف ، فلكل عنصر منها شان يميزه في التركيب ، فاذا اجتمعت تكاملت وظائفها فكان منها كلّ

مترابط الأجزاء . واذا كنا قد مضينا في الأخذ بما قاله الأئمة في كثير مما انتحوه في هذا الباب ، فقد صدرنا في ذلك عن تأمل وتروئة ، بل تطلبناه من مأتاه فأوردنا عليه الأدلة والشواهد ، واستظهرنا بنصوص الاثبات .

ولسنا ، على كل حال ، مع القائلين : من العلوم علوم نضجت واحترقت ، وهي علم النحو ، فلا يزال في كل علم من علوم العربية مجال للبحث والنظر ، وموضع للتعمق والتبسط ، قال الجاحظ : « وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس وله مضرة شديدة ، فمن أضر ذلك قولهم : لم يدع الأول للآخر شيئا . قال فلو أن علماء كل عصر ، منذ جرت هذه الكلمة في أسماعهم ، تركوا الاستنباط لما لم ينته اليهم من قبلهم لرأيت العلم مختلا » ، فان علينا أن نتفهم ما نبحث ونتدبره وأن نجتهد لنعمل لكل ما نقول ونلتمس الأسباب والنتائج ، على أن نقف قبل كل شيء على ما انتهى اليه أسلافنا ، في ما ألفوه وحققوه ، فلا يغيب عنا شيء مما أحاطوا به من أصول هذه العلوم وفروعها ووقفوا عليه من دقائقها وغوامضها . ومن ذلك علم البلاغة، وقد اعترف الاوائل بحاجته الى مزيد من البحث والتقصي حين قالوا : وثمة علوم لم تنضج ولم تحترق ، وهي علم البلاغة ، اذ لا يعقل أن نقف ازاء ما جاء به أبو يعقوب يوسف السكاكي ، في مفتاح العلوم ، وجلال الدين القزويني في تلخيص المفتاح والايضاح فنلبث عنده ، على ما انطوى عليه كل منهما من نهج علمي بارع ضم شتات ما جادت به قرائح الأولين في هذا المضمار منذ القرن الثاني للهجرة ، سعياً وراء تقويم اللسان العربي لفظاً وأداءً ، فصاغه وجعل له ، على الجملة ، أصولاً بينة وحدوداً مرسومة ومعالم واضحة ، ولعل كتاب (مجاز القرآن) الذي ألفه أبو عبيدة معمر بن المثنى اللغوي البصري المتوفى (٢٠٦ هـ) هو أول كتاب ألف في البلاغة العربية ، وأعقب ذلك ما ألفه الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) : كتاب البيان والتبيين ، وتلاه ابن قتيبة أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) في كتابيه الشعر والشعراء وأدب الكاتب ، فالمبرد أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ) في كتابه الكامل ، فابن المعتز عبدالله (ت ٢٩٦ هـ) في كتابيه البديع وطبقات الشعراء المحدثين .. وهكذا الى عهد الامام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) وأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) فأبي يعقوب بن يوسف السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) فجلال الدين القزويني (ت ٧٣٩ هـ) .

وكان الامام الجرجاني من أعلام المؤلفين في البلاغة العربية ، في كتابيه (دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة) كما فصلنا القول فيه ، وقد أخذ بمنهاجه ممارسة وتطبيقاً الزمخشري في تفسيره (الكشاف) ، وخلفهما السكاكي في كتابه (مفتاح العلوم) ، وقد نهج فيه النهج العلمي في دراسة اللسان العربي في كثير من التدقيق والتحليل والاستقصاء ، لكنه غلا في اتخاذ صيغ بلاغية أقرب ما تكون الى المنطق والفلسفة منها الى تعرف صور البيان . وقد جعل كتابه مقدمة وأقساماً ثلاثة ، فذكر في مقدمته علاقة ما بين علوم العربية من صرف واشتقاق ونحو وعلم معان وبيان . أما أقسامه الثلاثة فقد خص أولها بالصرف والاشتقاق في تحليل بنية الكلمة ، وخص ثانيها بالنحو في تعرف نظام تأليف الكلام ، وثالثها بالبيان والمعاني في عرض صور الأداء والتعبير ، وهو أبرزها وأشهرها،

والحق بهذا القسم فصولاً في البلاغة والفصاحة وعلم البديع . وظل كتابه هذا مرجعاً للبلاغة العربية قروناً عديدة .

وخلفه القزويني ، وهو لم يخرج عما جاء به السكاكي لكنه عرّف علم المعاني في كتابه (الايضاح) وقد جاء هذا شرحاً لكتابه الأول (تلخيص المفتاح) فقال : انه العلم الذي يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال، فأغفل علاقة ما بين النحو وعلم المعاني ، على حين عرّفه السكاكي بأنه تتبع لخواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحال ذكره . فكان السكاكي أوعى لما بين علم النحو وعلم المعاني من تكامل واتصال . وقد قال في مقدمته: « وأوردت علم النحو بتمامه وتمامه بعلمي المعاني والبيان » ، فدلّ بذلك على تعلق النحو بالبلاغة ، ومهمة اللغة في الابلاغ . وقد برع الجرجاني في بسط القول في ذلك بسطاً .

ولا نود أن نغادر هذا الموضع حتى نضم الى أعلام البلاغة علمين قد تقدّما الامام الجرجاني واولهما ابو الحسن علي بن عيسى الرماني المعتزلي (ت ٣٨٤ هـ) وقد ألّف كتاب (النكت في اعجاز القرآن) فدلّ على براعته في الغوص على دقائق بلاغة القرآن والكشف عن اسرار اعجازه وسلطانه على النفوس، واستبطان صور الجمال في نصوصه . واوعى في الكتاب عشرة ابواب في البلاغة وقدرأى انها تقوم على ايصال المعنى الى القلب في احسن صورة من اللفظ . وقصر شواهده أو كاد على نصوص من آي الذكر الحكيم ، وبدا نهجه في الاعتزال واضحاً فيما أوّله من النصوص القرآنية .

وثانيهما : ابو سليمان أحمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي (ت ٣٨٨ هـ) ، وقد ألّف رسالة (بيان اعجاز القرآن) فضمّنها فصلاً في البلاغة وأقسامها ، وآخر في اعجاز القرآن فكشف عن بصره بمواطن الجمال في نظم القرآن واستشفاف باديها وخافيها .

* * *

أقول اذا كنا نحاول الاحاطة بهذا كله فنحن لا نعمد اليه لنجمد فيه ، اذ لا بد من تجديد البحث في هذا العلم والغوص على حقائقه ، كما حاول بعض المعاصرين حين تجاوزوا تقسيم السكاكي للبلاغة الى علم للبيان وآخر للمعاني وثالث للبديع ليسموا هذا العلم فن القول أو صناعة الكتابة ، وحين غادروا البحث في المفردات والجمل الى تحليل النص كلاً متكاملاً والى نقد الكلام مجتمع الشمل وتناوله من حيث استواء الصورة واتصال المعاني واتساق الأفكار وتلاحم الأجزاء ، كما أشار اليه الأستاذ عبدالعزيز البشري ، ولم يكن للتراث البلاغي من ذلك حظ جليل .

قال الدكتور جمال الدين الرمادي في كتابه (عبدالعزيز البشري) : « ويرى البشري أن أظهر ما نُحسّه من ضعف النقد الأدبي ، أو بعبارة أبيّن ، من تصور علوم البلاغة العربية في هذا العصر ، أن سلفنا وجهوا كل عنايتهم الى النقد الجزئي ، أعني نقد الكلمة في الجملة ، أو نقد الجملة في العبارة . فاذا كان الكلام نظماً جرى النقد للبيت مستقلاً ، وأحياناً للبيت من حيث اتصاله بما بعده » .

وما أحرانا أن نيمّم هذا السمت في دراسة هذا العلم ، وأن نؤسس على ذلك فنكمل البناء من حيث انتهى أسلافنا بعد أن بذلوا الوسع في ارساء قواعده • ولا علينا اذا قبسنا من نتاجهم وتنسمنا منه ما نستعين به على استتمام ما بدؤوه وما سبقوا اليه وروّضوا الصعاب له ، ولا سيما ما أتحف العربية به الامام عبدالقاهر الجرجاني في أثريه النفيسين: دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة •

واذا أقبلنا على التراث البلاغي ، كما أقبلنا على التراث النحوي ، لم نقبل عليه اقبال محاكاة واحتذاء ، بل نبتغيه ابتغاء معالجة واصطفاء ، فنقتدح له زناد الرأي، ونصرف فيه أعنة الفكر ، فندع ما تعلق بمادة البحث من فلسفة ومنطق فحبس عنها دفقة الحياة وأحال نسغها الى يبس ، ونعيد النظر فيما اتصل بها من تعريفات وتقسيمات ، كقول السكاكي : « المجاز عند السلف قسمان : لغوي وعقلي ، واللغوي قسمان : راجع الى معنى الكلمة وراجع الى حكم الكلمة، والراجع الى معنى الكلمة قسمان : خال من الفائدة ومتضمن لها، والمتضمن لها قسمان: استعارة وغير استعارة ••• » •

وشبيه بذلك ما جاء به القزويني في كتابه الايضاح من أنواع البديع ، فكانت سبعة وأربعين نوعاً ، وتوالت الزيادة في هذه الأنواع حتى بلغت عند الصفيّ الحلّي (٧٥٠ هـ) ، في قصيدته البديعية الميمية مائة وأربعين نوعاً ، بل تعدّت هذا الحد عند الشيخ عبدالغني النابلسي صوفي دمشق (١١٤٣ هـ) ، في بديعيته الميمية فكانت مائة وستين نوعاً ، وقد أشار الى نحو من هذا ، الأستاذ عزالدين التنوخي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، في مقدمة كتابه (تهذيب الايضاح) الذي جاء شرحاً لكتاب (الايضاح) لجلال الدين القزويني •

وعلينا بعد أن نحرر ما علق بهذا العلم من لبس وابهام ، ومن فضول في القول لا يحلى بطائل أو يحظى بمحصول ، أن نعوّل على الحاسة الفنية ونلتمس ما يشف عنه النص من صور جمالية تنبثق من كلّ متكامل الأجزاء •

وهكذا كان الأدب أولاً ، فتبعه النقد الأدبي تقويماً له وتثقيفاً ، وأعقب هذا علم البلاغة لتتخذ مقاييسه مناراً يهدي الى تقويم النص وتثقيفه ، التماساً للتذوق الفني وابتغاء للجمال •

قال الامام عبدالقاهر الجرجاني في كتابه (أسرار البلاغة): « وهذا موضع لا يُبنى الا اذا كان المتصفح للكلام حسّاساً يعرف وحي طبع الشعر وخفيّ حركته التي هي كالهمس وكمسرى النَفَس في النفس/٢٩٦ » •

ولا يعني هذا بالطبع تعذر الوصول الى معرفة العلّة في الجمال ، فالايمان بأن ثمة سبباً للجمال يحمل الناقد على التماس هذا السبب والتنقيب عنه وتتبع ظواهر الجمال ، ليهتدي اليه ويبحث عن مقاييسه •

★ ★ ★

هذا ما رأينا أن نعرض له من البحث في صدد الكلام على مذهب النحاة في قسمة الكلمة الى اسم وفعل وحرف ، وقسمة الجملة الى اسمية وفعلية ، ومذاهب بعض المعاصرين في مخالفتهم ، وحكم علم اللغة الحديث في هذا كله • ولم نقتسْ فيما انتهينا اليه من الرأي بمذهب النحاة لما رسخ في الأذهان من أصالته وبعد غوره ، أو نولع به ونملْ اليه لما تقرر بأنهم القدوة وفيهم الركن والامام والعمدة ، بل لم نعمل الرأي في مذاهب المعاصرين لنجد فيه محلاً للنقد وموضعاً للقول لقرب العهد بهم وحداثته ، وانما حاولنا أن نثبت ذلك بالدليل والشاهد والبرهان ، ونحتكم بعد الى علم اللغة الحديث لنزيد البحث جلاءً ووضوحاً فيبرح عنه كل خفاء ويندفع كل اشكال ، والله الموفق للصواب •

☐ مسرد بمصادر البحث :

١ ـ الموجز في شرح دلائل الاعجاز في علم المعاني للدكتور جعفر دك الباب •

٢ ـ المفصل في النحو لابي القاسم محمود بن عمر الزمخشري •

٣ ـ شرح المفصل في النحو لموفق الدين بن علي بن يعيش الحلبي •

٤ ـ آراء واحاديث في اللغة والأدب لساطع الحصري •

٥ ـ الايضاح في علل النحو للزجاجي ابي القاسم عبد الرحمن بن اسحاق •

٦ ـ الاشباه والنظائر لجلال الدين السيوطي •

٧ ـ نزهة الالباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري ابي البركات •

٨ ـ همع الهوامع لجلال الدين السيوطي •

٩ ـ احياء النحو لابراهيم مصطفى •

١٠ ـ دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني •

١١ ـ الكندي فيلسوف العرب والمعلم الثاني لمصطفى عبد الرزاق (أعلام العرب) •

١٢ ـ الأحرفية ليوسف السودا •

١٣ ـ اللغة والبلاغة لعدنان بن ذريل •

١٤ ـ الجملة الفعلية للشيخ علي الجارم (مقال في الجزء السابع من مجلة اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٥٣) •

١٥ ـ العبقرية العربية في لسانها لزكي الارسوزي •

١٦ ـ نحو الفعل للدكتور احمد عبد الستار الجواري •

١٧ ـ الفعل تعريفه واقسامه وابوابه وشانه في التعبير لصلاح الدين الزعبلاوي (مقال في مجلة التراث العربي ـ نيسان ١٩٩٠) •

١٨ ـ في النحو العربي للدكتور مهدي المخزومي •

١٩ ـ الفعل زمانه وابنيته للدكتور ابراهيم السامرائي .

٢٠ ـ الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر لمحمود شكري الآلوسي .

٢١ ـ الضرائر لابن عصفور الاشبيلي .

٢٢ ـ الكتاب لسيبويه ابي بشر عمرو بن عثمان .

٢٣ ـ مفتاح العلوم لابي يعقوب يوسف السكاكي .

٢٤ ـ الايضاح لجلال الدين القزويني .

٢٥ ـ مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى .

٢٦ ـ البيان والتبين للجاحظ ابي عثمان عمرو بن بحر .

٢٧ ـ ادب الكاتب لابن قتيبة ابي محمد عبد الله بن مسلم .

٢٨ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ابي محمد عبد الله بن مسلم .

٢٩ ـ الكامل للمبرد أبي العباس محمد بن يزيد .

٣٠ ـ البديع لعبد الله بن المعتز .

٣١ ـ الكشاف لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري .

٣٢ ـ أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني .

٣٣ ـ النكت في اعجاز القرآن لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني .

٣٤ ـ بيان اعجاز القرآن لأبي سليمان الخطابي .

٣٥ ـ عبد العزيز البشري للدكتور جمال الدين الرمادي .

٣٦ ـ تهذيب (الايضاح للقزويني) لعز الدين التنوخي .

٣٧ ـ القطوف الدانية في العلوم الثمانية لمحمد امين السفرجلاني .

* * *

المقامات العِلميّة

من مؤلفات السّيوطي

د. محمد زهير البابا

ولـد العالم أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطـي الشافعي ، عام ٨٤٩ هـ/١٤٤٥ م ، في مدينة القاهرة · وتوفي والده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر · فاسندت وصايته الى جماعـة مـن مشايخ الصوفية ، كانوا من أصدقاء والده ·

حفظ السيوطي القرآن وله من العمر ثماني سنوات، ثم شرع في الاشتغال بالعلم عام ٨٦٤ هـ ، فدرس علوم الحديث والتفسير واللغة ، والنحو والفرائض والحساب ، والميقات والطب · ويقال ان عدد الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم في مصر ، وفي بعض الأقطار العربية ، قد بلغ حوالي الستمائة ··

نشأ السيوطي منذ حداثته بين الكتب ، فقد ترك له والده مكتبة زاخرة بالمصنفات · كما كان منـذ شبابه حتى كهولته كثير التردد على المدرسة المحمودية ، وفيها مكتبـة تضم نحو أربعة آلاف مجلد في مختلف علوم عصره ·

ظـل السيوطي يواصل التحصيل حتى تفقّه في علوم اللغة والدين · فأجيز بتدريس اللغة العربية وله من العمر سبعة عشر عاماً · وأجيز بالتصدي لتدريس الفقه والافتاء وهو في نحو السابعة والعشرين ·

يمتـاز نشاط السيوطي بغزارة التأليف وتنوعه · اذ تنـاول مختلف جوانب المعرفـة السائدة في عصره ، فدرسها بتعمق وامعان ثم انصرف الى شـرح ما غمض منهـا ، وانتقد وعلّق على ما رأى من أخطاء وآراء شائعة · وقال عن نفسه « رزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير والحديث ، والفقه والنحو واللغة ، والمعاني والبديع » وقال أيضـاً « ان العلوم التي اطلعت عليهـا لم يقف عليها أحـد من مشايخي ، فضلاً عمن دونهم » ·

قام السيوطي باختصار أو شرح مؤلفات كثيرة لمجموعة من علماء اللغة والحديث والفقه، وقد عوضت مؤلفاته الكثيرة عن الكتب التي فقدت خلال الأحداث المؤلمة ، والتي شملت البلاد العربية والاسلامية خلال الفترة الممتدة بين القرنين السادس والتاسع للهجرة .

كان السيوطي سريع الردّ والتهكم على كل من أغضبه أو عارضه في الرأي ، وفي ذلك يقول: « خالفني أهل عصري في خمسين مسألة، فالفت في كل مسألة مؤلفاً ، بيّنت فيه وجه الحق »

وبما أن النقد والتهكم يزيد من عدد الأعداء ، وينفّر أقرب الأصدقاء ، لذلك ازداد خصوم السيوطي ، لا سيما ممن خلفوه في الاجتهاد واتهموه بالالحاد ، فترك التدريس وقصد الحج الى مكة المكرمة . ولما عاد انزوى في احدى خانقاهات القاهرة ، حيث أتم تأليف كثير من مصنفاته ، وأخيراً توفي عام (٩١١ هـ/١٥٢٧ م) وله من العمر اثنتان وستون عاماً هجرياً .

كان السيوطي ، بالاضافة الى اتقانه العلوم الشرعية ، أديباً عالماً بالنثر والشعر وبقية العلوم العربية . وكان أكثر شعره نظماً متوسط الجودة ، وأغلبه على شكل فوائد، تتألف من بضعة أبيات ، نظمها لغايات أخلاقية أو فقهية أو علمية أو فكاهية . كما كان له بعض القصائد الأدبية الجيدة .

وحينما عزمت على المشاركة بواجب تكريم السيوطي ، باحياء ذكرى مرور خمسمائة عام على وفاته ، لجأت الى كتاب هدية العارفين للبغدادي ، باحثاً عن أسماء المؤلفات التي قام بتصنيفها السيوطي . وقمت باحصاء تلك المؤلفات فبلغ عددها حوالي (٣٨٠) بين كتاب ورسالة . وورد بين تلك المؤلفات ذكر لـ (٢٩) مقامة ، لم تُذكر عناوينها ، ولم يبين فيما اذا كانت مجموعة في كتاب واحد أو كتبت متفرقة وفي مناسبات مختلفة .

لقد وجدت في المكتبات عدداً كبيراً من مؤلفات السيوطي المطبوعة ، ولكنني لم أجد من بينها مقاماته ، لذلك رجعت الى مكتبة الأسد بدمشق، مفتشاً عن مخطوطات السيوطي . ولحسن الحظ وجدت عدداً كبيراً منها ، ومن بينها ما يحوي بعض تلك المقامات أو اكثرها . كما وجدت أيضاً فهرساً لمؤلفات السيوطي المطبوعة والمخطوطة مع أماكن وجودها . وهو دليل شامل قام بتنسيقه وترتيبه الباحثان السيد جميل الخازندار ، مسؤول مكتبة المخطوطات العربية بجامعة الكويت ، والسيد محمد الشيباني ، مسؤول لجنة المخطوطات في جمعية احياء التراث العربي . وقد قامت مكتبة ابن تيمية بطبع هذا الدليل ونشره عام ١٩٨٣ م . وتأكدت ، بعد الرجوع اليه ،أن مقامات السيوطي لم تحقق أو تنشر حتى الآن .

لذلك قمت بتصفح جميع المخطوطات الحاوية على مقامات السيوطي وانتخبت منها ستة مخطوطات ، وهي من محفوظات المكتبتين الظاهرية بدمشق والأحمدية بحلب ، وقد نُقلت جميعها الى مكتبة الأسد الوطنية بدمشق .

لقد أراد السيوطي ، على الأرجح ، أن يقلد أبا بكر الخوارزمي (ت ـ ٣٨٣ هـ)، والصاحب بن عبّـاد (ت ـ ٣٨٥ هـ) حينماعزم على كتابة مقامات تجمع بين النثر الفني والشعر ، ويتعلـق موضوعهـا ببعض الأمور الطبية التي تستند على فائدة الفاكهة والخضر في المعالجات الدوائية وحفظ الصحة ٠

ويقول الدكتور زكي مبارك أن الخوارزمي وابن عبّاد استطاعا أن يقيما البرهان على أن الكاتب القدير يمكنه أن يضع المسائل والأبحاث العلمية الجافة في لغة جميلة، تفيض بالعذوبـة واللين ، مع ما في تلك الموضوعات من خشونة طبيعية لا تأتلف مع لغة السجـع والتورية والجناس ٠ ويرجح الدكتور مبارك أن تكون رسالة الصاحب في التطبيب لم تكـن الا معارضة لرسالة الخوارزمي ، وقد كتبهـا الى أحد تلامذته الذي أصيب بالجدري ٠ كما أن له رسالة أخرى كتبهـا الى بعض الأمراءوفـد ورد عليه كتاب منه يشكو فيه اصابته بالجرب٠ ولو أن رسائل الخوارزمي والصاحب بن عبّـاد قد أرّخت ، لاستطعنا معرفـة أي الكاتبـين كان أسبق الى الكتابة في المعـاني الطبية ، علماً بأن تاريخ وفاة هذين الكاتبين كانت متقـاربة ٠

تمتاز مقامات السيوطي الطبية بأنهـا ذات طابع خاص ، فهي بصورة عامـة موجزة ومفيدة ٠ وقد جمع فيها بـين الأدب والدين والطب ٠ وله مقامات اخرى وصف فيها بعض الأمكنة والمدن التي قطنها أو زارها ٠ كمـاسجل بعض الأحداث الهامـة التي حصلت في زمانـه بمصـر ، لذلـك رأيت أن مقـامات السيوطي صالحة للعرض على صفحات مجلة التراث العربي، بمناسبة مرور خمسمائة عام على وفاته ٠ وهذه المقامات تمثل جانباً مـن اهتمام العلماء خلال القرن العاشر للهجرة ، كما تمثل الأسلوب الأدبي واللغوي الذي كان دارجاً على ألسنة الطبقة المثقفة في ذلك العصر، والمستوى العلمي الطبي الذي كان يتمتع به الفقهاء مـن رجال الدين ٠ علمـاً بأن هؤلاء كانوا يدرسون المؤلفات الطبية حباً بالاطلاع والعلم فقط ، أو بغيـة تلبيـة استشـارات المرضى من أفراد الشعب ، في زمن انحط فيه علم الطب التقليدي وراجت فيه سوق الطب الشعبي ٠ أما كتب الطب التي استعان بهـا السيوطي ، عند تأليفه لمقاماته ، فكانت قليلة العدد وأهمها القانون لابن سينا ، والموجـز لابن النفيس ، والجامع لمفردات الأغذية والأدوية لابن البيطار ٠

لقد لجأ السيوطي الى السجع على نطاق واسع في تدبيج مقاماته ، لكن سجعه كان في بعض الأحيان متكلفاً ومتباعداً ، لطول الجمل وعمق الأفكار ، لهذا لا تطرب الأذن لسماعها غالباً ، كما هو المفروض في نثر المقامات ٠

ولكي يعطي السيوطي لمقاماته رونقاً أدبياً محبباً فقد أكثر من ذكر أبيات الشعر، التي وصف فيها مختلف أنواع الفاكهـة والخضـر والنُـقل ، وجعلها تتحاور وتتفاخر بحسنها وفضلهـا ٠ لكنـه لم ينسب هـذه الأشعـار لأصحابها ، فيزيد من أهمية عمله ، ويوفر على القارىء جهـد البحث عـن مصادرها ٠وخاصة اذا كانت أبيـاتاً قليلة العـدد ، أي ليست على شكل قصائـد ، وكثيراً ما تحـوي تلك الأشعار كلمات غامضة المعنى أو أوزان

غـير متسقـة ، ناتجـة عن تصحيف النسّاخ وأخطائهـم ، وهـذا ما يزيـد في صعوبـة التحقيـق ٠

يبلغ عدد المقامات الموجودة في المخطوطات التي انتخبتها للدراسة اثنتا عشرة مقامة ، ست منها تكلم فيها السيوطي عن بعض أنواع الفاكهة والنُقل والخُضر والورود والرياحين والطيب والأحجار الكريمة ، فوصف محاسنها وتأثيراتها الدوائية ٠ أما المقامات الست الأخرى فتضم مواضيع مختلفة تتعلق بنهر النيل وبعض المدن المصرية وأحوال سكانها ، بالاضافة الى رسائل عديدة خصصها للكلام عن زيارته للديار المقدسة وما شاهده فيها ، وأخرى جمع فيها حكماً وأشعاراً وأبحاثاً مختلفة ٠

وسأذكر فيما يلي وصفاً موجزاً للمخطوطات الست المنتخبة ، مع ما حوته من مقامات ومواضيع ٠ وقد أعطيت لكل مخطوطة حرفاً يرمز اليها عند التحقيق ، كما أثبت الى جانب كل مخطوطة رقم الورقة أو الأوراق التي تحويها :

١ ــ المخطوطة (٧٤٤٩) ، رمزها (آ) :

عدد أوراقها (٣٧) ــ عدد السطور (٢٣) ــ القياس (١٥ × ٢٠) سم ٠

الخط نسخي حديث ــ الكتابة بالحبر الأسود ، والعناوين ومطالع العبارات بالحبر الأحمر ــ وحالة المخطوطة جيدة ٠

تحوي الورقة الاولى من هذا المخطوط جدولاً بأسماء المقامات الموجودة فيه ، وعددها ثمان وهي :

١ ــ المقامة التفاحية أو الرمانية (١ــ٧) ق ٠
٢ ــ المقامة الجيزية (٨) ق ٠
٣ ــ المقامة البحرية (٩) ق ٠
٤ ــ المقامة الفستقية (١٠ــ١٣) ق ٠
٥ ــ المقامة الياقوتية (١٤ــ١٥) ق ٠
٦ ــ المقامة المكية (١٦ــ٢٠) ق ٠
٧ ــ درر الكلم وغرر الحكم (٢١ــ٢٣) ق ٠
٨ ــ المقامة الزمردية (٢٤ــ٢٥) ق ٠

وفي خاتمة المخطوطة جاء ما يلي : « وضع هذا التأليف يوم الأحد سادس ذي القعدة الحرام سنة ٨٦٩ بمكة المشرّفة » ٠

٢ ــ المخطوطة (٦٢٤٠) ، رمزها (ب) :

عـدد الأوراق (١٧) ــ عـدد السطور (٢٥) ــ القياس (١٤ × ٢٠) سم ٠

وتضم هذه المخطوطة ست مقامات :

١ ــ المقامة التفاحية (١ــ٥) ق ٠
٢ ــ المقامة الزمردية (٦ــ٨) ق ٠
٣ ــ المقامة الفستقية (٨ــ٩) ق ٠
٤ ــ المقامة الياقوتية (٩ــ١٢) ق ٠
٥ ــ المقامة المسكية (١٢ــ١٦) ق ٠
٦ ــ المقامةالوردية (١٦ــ١٧)مخرومة الآخر.

٣ ـ المخطوطة (١٣٥٣١) رمزها (ج) :

وهي على شكل مجموع يضم أكثر من(٣٥) موضوعاً منها أغلب المقامات المذكورة سابقاً . وهي من مخطوطات مدرسة الأحمدية بحلب . عدد أوراقها (٢٧٥) ورقة من القطع الصغير . على هامشها سجلت الحاشية الآتية:« انتهت كتابة هذه المخطوطة في يوم الأحد ثاني عشر جمادى الثانية سنة ٩١٩ هـ بمكة المشرفة ، على يد العبد محمد المدعو جادالله بن عبدالعزيز بن عمر بن محمد الهاشمي المكي .

٤ ـ المخطوطة (٤٦٥٤) رمزها (د) :

وهي على شكل مجموع عدد أوراقه (٨٦) ورقة ، المسطرة (٢٣) س ، القياس (١٣,٥ × ٢٠,٥) سم وهي تضم مقامتين :

١ ـ المقامة اللازوردية (٥٣ـ٥٨) ق . وفيها الحث على الصبر عند فقد الأولاد .

٢ ـ المقامة الأسيوطية (٦٧ـ٧٠) ق في الأحاجي النحوية .

٥ ـ المخطوطة (٦٦١٩) رمزها (هـ) :

وهي على شكل مجموع عدد أوراقه (١٠٩) ـ عدد السطور (٢٠) ـ القياس (١٣ × ١٧,٥) سم . تاريخ النسخ (٩٢٢هـ) . ويضم المقامات الآتية :

١ ـ المقامة المكية .

٢ ـ المقامة المصرية .

٣ ـ المقامة الأسيوطية .

٤ ـ المقامة الجيزية .

٦ ـ المخطوطة (٥٥٧٧) رمزها (و) :

وهي على شكل مجموع عدد أوراقه (٨٧) ـ عدد السطور (١٩) ـ القياس (١٤ × ٢٠,٥) سم ـ تاريخ النسخ ١٢٨٧ هـ . وهي تضم ثلاث مقامات :

١ ـ المقامة الوردية (١٨ـ٢٧) .

٢ ـ المقامة التفاحية (٢٨ـ٣٧) .

٣ ـ المقامة الياقوتية (٣٨ـ٤٢) .

طريقة التحقيق :

لقد قمت بتحقيق المقامات الاثنتا عشرة، وهي كما ذكرت تقسم الى زمرتين :

الزمرة الأولى : المقامات الطبية ، واعتمدت في تحقيقها على المخطوطات ذوات الأرقام : (٧٤٤٩ ـ ٦٢٤٠ ـ ٥٥٧٧ ـ ١٣٥٣١).

الزمرة الثانية : المقامات الأدبية ، واعتمدت في تحقيقها على المخطوطتين (٦٦١٩ـ ٤٦٥٤) .

واعتبرت المخطوطة ذات الرقم (٧٤٤٩) الأصل في تحقيق المقامات الطبية ، والمخطوطة ذات الرقم (٦٦١٩) الأصل في تحقيق المقامات الأدبية • أما الفروق الملحوظة بين المخطوطات ، وكذلك شرح بعض الألفاظ الغامضة ، فسأجعلها في الهامش حسب الأصول • واضعاً الألفاظ المضافة أحياناً بقصد التوضيح بين معترضتين • وأصلحت كتابة الهمزة حسب الطريقة الحديثة، دون الاشارة الى ذلك، كما أصلحت بعض أخطاء النسّاخ البسيطة •

« المقامة التفاحية »

تحدث فيها الامام السيوطي عن مناقب سبعة أجناس من الفاكهة ، وهي :

الرمان ــ الأترج ــ السفرجل ــ التفاح ــ الكمثرى ــ النبق ــ الخوخ ، ويقول في مطلعها :

بسم الله الرحمن الرحيم

سألت طائفة فاقهة(١) عن مناقب(٢) الفاكهة ، وصفاتها المشاكهة(٣) ، وما ضرب لها من الأمثال المشابهة ، وما قاله فيها كل طبيب أريب(٤) وشاعر أديب• واختارت منها سبعة زهرا ، وبضعة جهر(٥) الزمان بحسنها جهراً • فأجبناها لما طلبت ، وسألت قناة القلم بالبلاغة لما سُئلت ورغبت • وبدأنا بالألطف فالألطف في الذات ، والأشرف فالأشرف في الصفات :

الرمان: وما أدراك ما الرمان ، مصرح بذكره في القرآن ، في قوله تعالى في سورة الرحمن « فيها فاكهة ونخل ورمان » • وفي الحديث « ليس في الأرض رمانة تلقح الا بحبة من حب الجنان » • وقال علي بن أبي طالب(ر) فيما رواه البيهقي بسنده « كلوا الرمان بشحمه ، فانه دبّاغ(٦) للمعدة » •

وقال الأطباء : الحلو منه بارد في الأولى ، رطب بها • يدبغ المعدة من غير أن يضرّ بعصبها• ويحدّر(٧) منها الرطوبات المرية(٨) العفنة ، ويبرىء من وصبها(٩) • ويحط الطعام اذا مص بعده عن فمها (أي المعدة) •وينفع في حميات الغب(١٠) المتطاولة(١١) وآلمها • و (ينفع) من الجرب والحكة والخفقان• واذا أديم مصه مع الطعام أخصب الأبدان • ويقوي الصدر ويجلو الفؤاد •واذا أكل بالخبز منعه من الفساد • جيد الكيموس(١٢)، قليل الغذاء، صالح للمحرورين دافع للأذى • وينعظ(١٣) لما يحدثه من قليل الرياح ، ويكوّن نفخة سريع التفشي ،لايحتاج الى اصلاح • وفيه قبض(١٤) لطيف ، ويسير تجفيف •

وحبه أشد من ذلك ، ثم قشره ثم جسده، ثم جنبذه(١٥) الذي يسقط عن الشجر اذا عقد زهره •

واذا وضع في شمس حارة ماؤه المعتصر ،واكتحل به بعد غلظه ، أحدّ البصر • وكلما عتق كان أجود وأبرّ •

واذا طبخ ماؤه في اناء نحاس نفع مـن القروح والعفن ، والروائح المنتنة في الأنف والأذن ٠

وحامضه أنفع للمعدة الملتهبة ، وأكثـر للبول ادراراً ، وأقـوى في تسكين الأبخـرة الحارة مقداراً ٠ وأشد تبريداً للكبد ، ولا سيما أن أولي (١٦) ادماناً واكثاراً ٠ ويطفيء نارية الصفراء والدم، ويقطع القيء ، ويقطع من المعدة البلغم(١٧) ٠

واذا عصر النوعان (١٨) مـع شحميهما (١٩) ، وشرب منه نصف رطل مع سكر عشرين درهماً ، أسهل المرة الصفراء ، وقوّى المعـدة وأذهب عنا الضُر"ا ٠ وان شرب عشر أواقي مع عشرة دراهـم سكر ، فان هـذا يقـارب الاهليلج الأصفر ٠

وفي الشراب المتخذ منهما خاصية في منع أخـلاط البدن مـن التعفـين ٠ والرُبّ(٢٠) المتخذ من الرمانـين يقوي المعـدة الحـارة ،ويقطع العطش والقيء والغثيان ٠ واذا عصر الرمانان بشحمهما وتمضمض بمائهما نفـع القلاع(٢١) المتولد في أفواه الصبيان ٠

واذا طبخ في اناء نحاس ماؤهما المعتصر، واكتحـل بهما ، أذهبـا الحكـة والجـرب والسلاق(٢٢) وقوّى البصر ٠

والأولى أن يمتص المحموم من المز"(٢٣)منه بعـد غدائـه ، ليمنـع صعود البخـار ، ولا يقدمه فيصرف المواد عن الانحدار ٠

واذا شويت الرمانة الحلوة ، وضمـدت بها ، سكن وجع العين الرمدة ، وزهر الرمان يقطع القيء الذريع(٢٤) المفرط اذا ضمدت به المعـدة ٠ واذا فرغت رمانة من حبّهـا ، وملئت بدهن ورد عـن لبها ، وفُتّرت على نار هادئة تفتيراً ، سكن وجع الأذن تقطيراً ، ومع دهن بنفسج للسعال اليابس كثيراً ٠

وحب الرمـان الحـامض اذا جفف في الشمس ودق للانعام(٢٥) ، وذر" أو طبخ مع الطعام ، منع الفضول أن تسيل على المعـدة والأمعا ، واذا نقع في ماء المزن(٢٦) وشـرب نفع من نفث الدم نفعاً ٠

وقشر الرمان اذا سحق وسف" منه عشرة دراهم أخرج الدود ٠ واذا عجن بعسل وطلي به آثار الجدري وغيرها أياماً متوالية أذهبهـا وحصل المقصود ٠ واذا طبخ في ماء وتمضمض به قوّى لثة الفم ، وان شرب أمسك استرسال البول واسهال البطن وانضم ٠ وان استنجي به قوى المعدة وقطع ما انبعث من أفواه البواسير مـن الدم ٠ وان جلس فيـه النساء نفـع من النزف وسدده ، أو الأطفال نفعهم من خروج المقعدة(٢٧) ٠

وجلناره(٢٨) يشد اللثات ، ويلزق الجراحات ، ويتمضمض بطبيخه للثة التـي تدمى كثيراً والأسنان المتحركات ٠

وزعم قوم ، أولو(٢٩) عدد وعُدد ، أن من ابتلع ثلاث حبـات صغـار ، لم يعرض له تلك السنة رمَد ٠ وأصل(٣٠) شجر الرمان اذا شرب طبيخه بنار موهجة ، قتل حب القرع وأخرجـه ٠

فسبحان من أوجده من العدم ، وأودعه هذه المنافع والحكم ، وصوّره كرة للاعب أو نهداً لكاعب(٣١) . وملأه بحبات العقيق والياقوت ، وجعله لمن شاء من طعام وشراب ، ونقل(٣٢) ودواء وقوت . وذكّرنا به رمان الجنان ، الذي كل رمانة منه قدر القتب(٣٣) من البعران(٣٤) ، كما ورد عن سيد ولد عدنان .

قد أكثر الشعراء فيه من التشبيه ، وأجادوا في التطلية والتمويه ، فقال شاعرهم :

رمانة مثل نهد الكاعب الريم(٣٥) ... تزهى بشكل ولون غير مذموم
كأنها(٣٦) حقه من عسجد(٣٧) ملئت ... من اليواقيت نثراً غير منظوم

وقال آخر :

رمانة صبغ الزمان أديمها(٣٨) ... فتبسمت في ناضر الأغصان
فكأنما هي حقة من عسجد ... قد أودعت خرزاً من المرجان(**)

وقال آخر :

خذوا صفة الرمان عني فان لي ... لساناً عن الأوصاف غير قصير
حقاق كأمثال العقيق تضمنت ... فصوص بلخش(٣٩) في غشاء حرير(**)

وقال آخر :

طعم الوصال يصونه طعم النوى ... سبحان خالق ذا وذا من عود
فكأنها والخضر من أوراقها ... خضر الثياب على نهود الغيد(٤٠)

وقال آخر :

وأشجار رمان كأن ثمارها ... ثُديّ عذارى في ملابسها الخضر
اذا فض عنه قشره فكأنه ... فصوص عقيق في حقاق من الدر
قدر ولكن لم يدنسه عارض ... وماء ولكن في مخازن من خمر

وقال آخر :

ولاح رماننا فأبهجنا ... بين صحيح وبين مفتوت
من كل مصفرة مزعفرة(٤٢) ... تفوق في الحسن كل منعوت
كأنها حقة فان فتحت ... فصرة من فصوص ياقوت

وقال بعض البلغاء :

وجلنار مشرف على أعالي شجرة ... قراضة(٤٣) من ذهب في خرقة معصفرة

وقال بعض الشعراء :

وجلنـار بهـي ضـرامه(٤٤) يتـوقـد **بدا لنا في غصون خضر من الدرميّد(٤٥)**
يحكي فصوص عقيـق في قبـة مـن زبرجـد

الأترج(٤٤) ، وما أدراك ما الأترج ٠مذكور في التنزيل ، ممـدوح في الحـديث ، منوه له فيه بالتفضيل ٠

قال الله تعالى « وأعتدت لهن متكا » ،فُسّر بالأترج عمن روى ورأى ٠

وفي الحديث الصحيـح ، وهـو الوابـل الصيب(٤٥) « مَثَـل المؤمـن الذي يقـرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب » ٠ وفي حديث آخر استخرجه الحفـاظ من اللجج(٤٦) ، أنه كان ﷺ يعجبه النظر الى الأترج ٠

(مزاجه) بارد رطب في الأولى ، يصلح غذاء ودواء وشموماً ومأكولا ٠ يبرّد عـن الكبد حراً ، ويزيد في شهوة الطعام يسرا ،ويقمع حدة المـرّة الصفرا ، ويزيل الغـم العارض منها ويبدله بشرا ، ويسكن العطش وينفع اللقـوة(٤٧) جهـرا ، ويقطـع القيء والاسهال الزمنين(٤٧) دهرا ، وحماضه(٤٨) يقـوي القلب الشـديد حـرا ، وينفـع من الماليخوليـا(٤٩) المتولدة من احتراق الصفرا ،ويقمع(٥٠) البخار الحار والصفـرا والقيء والخفقان ، وينفـع شرباً وطـلاء من لسعة العقربان(٥١) ، واكتحالا من الرمد واليرقان ، وطلاء من القوبا(٥٢) والكلف ويجلو الألوان ٠ ويحبس ما يتحلب(٥٣) مـن الكبـد الى المعدة والأمعا ، وكم له في الاسهال العـارض(٥٤) من قبل الكبد نقعا ٠

واذا نقع في مـاء ورد وقطّر في العين ،نفع الرمد المزمـن ، وقطعـه وأبـراه مـن الشين(٥٥) ، ، والمربى جيـد للحلق والرئـة والعين ، (وربّه نافع للمعدة من الرين)(٥٦)* وطبيخه مسمن ونافع من الحمى يزيل وهجها ،واذا طبخ لبه بالخل وشرب قتل العلقة المبلوعة وأخرجها ٠ وعصارته تسكن غلمة(٥٧) النسا،وقشره في الثالثة حرارة ويُبسا ٠ يقوي المعدة منه اليسير ، وينفع أكله من البواسير(٥٨) ٠واسساكه في الفم يطيب النكهة المشمومة ، وفي الثوب يمنع السوس أن يحومه ٠ وعصارتـه اذا شربت تنفع من نهش الأفاعي والأدويـة المسمومة ، وحراقته طلاء جيد للبرص معلومـة ٠

ورائحة الأترج تصلح فساد الهوا والوبا(٥٦) ، وحبه ينفع من لدغ العقارب مدقوقـاً طلا(٦٠) ، ومقشـراً مشوياً ٠ وبزره يقـوي اللثة ويحلل الأورام ، وورقـه مقو للمعـدة والأحشا(ء) ، هاضم من الأكل ما يشا(ء) ٠للمعـدة مسخن ، وللنفـخ مسكن ، وللنفس موسع ، وللسدد البلغمية مفتح ٠

ودهنه نافع للمعالج من استرخاء العصب والفالج ٠ وشحمه فاكهـة ، وحماضه ادام ، وبزره دهان ٠ وقد أكثر فيه الشعراء ونظم فيه الأدباء ، حيث قالوا فيه :

أنظر في صنعة المليك(٦١) وما | أظهر في الأرض من أعاجيب
جسم لجين(٦٢) قميصه ذهب | ركّب في الحسن أي تركيب
فيه لمن شمه وأبصره | لون محب وريح محبوب

وقال آخر :

كأن أترجنا النضير(٦٣) وقد | زان لجينا تصنّعه
أيد من التبر(٦٤) أبصرت بدرا | من جوهر فانثنت تجمعه

وقال آخر :

حياك(٦٥) من تهوى بأترجة | ناعمة مقدودة(٦٦) غضة
فجلدها من ذهب سائل | وجسمها الناعم من فضة

وقال آخر :

يا حبذا أترجة | تحدث للنفس الطرب
كأنها كافورة | لها غشاء من ذهب

وقال آخر :

أنظر الى الاترج وهو مصيغ(٦٧) | ان كنت للتشبيه أي محقق
فكأنه كف يضم أناملاً | منها لتدخل في اناء ضيق

وقال آخر :

أيا حسن أترج يلوح لناظري | عليه من الأوراق خضر الغلائل(٦٨)
حكى مستهاماً(٦٩) غيرالبين(٧٠) حاله | وقد عد أيام النوى(٧١) بالأنامل

وقال آخر :

أمسيت أرحم أترجا وأحسبه | في صفرة اللون من بعض المساكين
عجبت منه فما أدري أصفرته | من فرقة الغصن أم خوف السكاكين

وقال آخر :

وصفر من الأترج في (وسط) مجلس | يحاكي وجوه العاشقين(٧٢) اصفرارها
تشير اذا لاحظتها بأصابع | كأيدي جواري الترك لولا احمرارها

وقال آخر :

لله بل للحسن أترجة | تذكر الناس بأمر النعيم
كأنها قد جمعت نفسها | من هيبة الفاضل عبدالرحيم

وقال آخر :

كأنما الاترج في أوراقه ... والليل مقبوض على رواقه
جماجم من ذهب منيرة ... كل شبيه الورد في انشقاقه
وهي كلون عاشق يحيا الغضا ... في جسمه ويذوب في أشواقه
وتشبه المحبوب في ثلاثة ... فطعمها يقوى الى أذواقه
وريحها كنَشْرِه وقلبها كهَجْرِه ... المحبوب في عشاقه(*)

وقال آخر :

أترجة مسكية ذهبية ... تهدي نسيم المسك للمستنشق
فكأنها كف يضم أناملا ... بسطت لتدخل في اناء ضيق

السفرجل وما أدراك ما السفرجل :

ورد في حديث عن طلحة ، صحيح الاسناد ، أن النبي ﷺ دفع اليه سفرجلة وقال « دونكها فانها تجُم الفؤاد » • وفي رواية أخرجها امام عالي القدر « فانها تشد القلب ، وتطيب النَفَس ، ، وتذهب بطخاوة الصدر • وفي حديث له رواه وبريق « كلوا السفرجل على الريق » • وفي حديث رواه من أسندواستند « كلوا السفرجل فانه يجم الفؤاد ويشجع القلب ويحسن الولد » •

– (مزاجه) بارد في آخر الأولى ، يابس في أول الثانية. فيه منافع وقبض وتقوية: يقوي المعدة القابلة للفضول ، والشهوة الساقطة جداً للمأكول • يسكن العطش والقيء ، ويدر وينفع من الدوسنطاريا(٧٤) ، ويُقِر(٧٥) ويحبس النزف من العرق • واذا دخل البطن على الطعام انطلق •

وعصارته نافعة من الربو وانتصاب(٧٦) النَفَس ، واذا قُطرت في الاحليل(٧٧) نفعت من حرقة البول الذي انحبس ، ولعابه يرطبما في قصبة الرئة من اليبس • وحبه ملين لا قبض فيه لمن شاء ، وهو يمنع سيلان الفضول الى الأحشاء ، وينفع الحلق من الخشونة ، ويحدث في قصبة الرئة ليونة • ودهنه نافع من النملة(٧٨) والشقاق(٧٩) ومن القروح الرطبة على الاطلاق ، ومن وجع الكلى والمثانة وما في البول من الاحراق •

ومشويه يوضع على العين للحار من الأورام ، ويحقن بطبيخه لنتوء المقعدة والأرحام • واذا أدمنت الحامل أكله كان ولدها حسن الصورة ، واذا وضع مطبوخه على الثدي الوارم من انعقاد اللبن أزال منه الصرورة (أي الانحباس) • وكم له من منافع وخواص مذكورة ، وقيل فيه أشعار كثيرة مشهورة ، فقال بعضهم :

سفرجلة جمعت أربعا ... فكان لها كل معنى عجيب
صفاء النضار(٨٠) وطعم العقار(٨١) ... ولون المحب وريح الحبيب

وقال آخر :

حاز السفرجل لذات الورى وغدا ... على الفواكه بالتفضيل مشهورا
كالراح(٨٢) طعماً ونشر المسك رائحة ... والتبر(٨٣) لوناً وشكل البدر تدويرا

وقال آخر :

سفرجلة صفراء تحكي بلونها ... محباً شجاه للحبيب فراق
اذا شمها المشتاق شبه ريحها ... بريح حبيب لذّ منه عناق

وقال آخر :

سفرجل كأنه ... مثل ثدايا النهّد
يحكي اصفرار لونه ... صبغة لون العسجد(٨٤)

وقال آخر :

ما مليحات من كرات التبر ... مقنعات برقاق خضر
بنكهة العطر وفوق العطر ... أطيب من نشق(٨٤) سلاف(٨٥) الخمر

التفاح ، وما أدراك ما التفاح :

(مزاجه) بارد رطب في الأولى ، مقبول لفم المعدة ، اذا صادف فيها خلطاً غليظاً أحدره فضولا • طيب في المذكورين ، موافق قل أن يضر المحرورين •

له خاصية عظيمة في تفريح القلب وتقويته، ذو عطرية يعد من أغذية الروح وأدويته. من أنفع الأشياء للموسوسين(٨٦) والمذبولين(٧٨) أكلا وشماً ، ويقوي الدماغ ، وينقع هو وعصارته وورقه سما، وتضمد به العين الورمة اذا شوي شياً ، والمشوي منه في العجين ، ينفع قلة الشهوة والدود والدوسنطاريا •

ومن خاصيته ، فيما ذكر الأطباء ، توليد النسيان ، وروي في الأثر(٨٨) ، الا أنه في غاية النكران • وشرابه يعقل الطبيعة ، ويقمع حرا ، ويصلح للغثي والقيء الكائنين من المرّة الصفرا •

وعصارته لرجل النقرس(٨٩) طلا ، وهو يُسر النفس ، ويحسن الخُلق ، شماً ومأكلا • والحذر من أكل فاكهة لم تنضج على شجرها ،فانها عليلة ، ومن أكثر من أكلها أورثه ذلك حمى طويلة • وقد جعل ابن البيطار السفرجل نوعاً من أنواع التفاح ، وجعل منها غالب ما أوردناه في هذا المراح(٩٠) • فسمى الأترج بالتفاح الماهي ، نسبة الى بلاد ماه ، والخوخ بالتفاح الفارسي ، والمشمش بالتفاح الأرميني ، وهذا يدل على شرف التفاح لمن وعاه . ومن محاسنه الأدبية أنه اجتمع فيه الصفرة الدرية، والبياض الفضي، والحمرة الذهبية. وأنه يلذذ(٩١) من الحواس ثلاث : بجرمه العين لحسنه ، والأنف لعرفه ، والفمَ لطعمه•

وكم قال فيه شاعر ماهر وأديب باهر ،فقال بعضهم فيه :

وتفاحةٍ فيها احمرارٌ وخضرةٌ مخضّبةٍ بالطيب من كلّ جانب
تكامل فيها الحسنُ حتى كأنّها تورّد خدٌ فوق خُضرةِ شارب

وقال آخر :

كأنما التفاحُ لما بدا يرفلُ(٩٣) في أثوابه الحمرِ
شهدٌ(٩٤) بماء الورد مستودعٌ في أكرٍ(٩٥) من جامد الخمر
كأننا حين نُحيّا(٩٦) به نستنشق(٩٧) الندّ من الجمر

وقال آخر :

تفاحةٌ جمعت لونين خلتهما خديّ حبيبٍ ومحبوبٍ قد اعتنقا
تعانقا فبدا الواشي فراعهما فأحمرّذا خجلاً واصفرذا فرقا(٩٨)

وقال آخر :

وتفاحةٍ من كفِ ظبيٍ أخذتُها جناها من الغصن الذي مثلُ قدّه
لها لينُ عِطفيه(٩٩) وطيبُ نسيمه وطعمُ لماه(١٠٠) ثم حمرةُ خدّه

وقال آخر :

الخمر تفاحٌ جرى ذائبا كذلك التفاحُ خمرٌ جمد

الكُمثرى(١٠١) ، وما أدراك ما الكمثرى :

(مزاجه) بارد في (الدرجة) الثانية ،رطب في الأولى • يشاكل التفاح في طبيعته ، ولكن التفاح خير منه وأولى • يقوي القلب والمعدة من الاعتلال(١٠٢) ، ويقطع العطش والقيء والاسهال •

وقال بعضهم : ان الكمثرى أسرع انهضاماً من التفاح ، وما يتولد منها في البدن أحمد منه وأقرب الى الصلاح • وقال قوم : انأكلها على الريق يضر آكله ويسيء بفاعله • وخصه ابن البيطار بمن أكله على سبيل اللذةوالغذاء ، لا على سبيل الحاجة والدواء •

فأما للدواء فهو على الريق أفضل وأجدر ، لأنه بعد الطعام مُطلق(١٠٣) وزائد في ضعف المعدة وأوقر(١٠٤) • والحامض من الكمثرى دابغ للمعدة ، زائد في الشدة ، مشّه للأكل ، مدر للبول • وشرابها وربّها للمعدةيشدان ، وللاسهال الصفراوي يقطعان ويسدان •

وقد شبهه الشعراء بالنهد والسرة ، وناهيك بحسن هذا التشبيه في المسرة ·

قـال الشـاعر :

وكمثـــرى تـــراه حـين يبـدو ... على الأغصـان مخضرّ الثيـاب
كثدي مليحـة أبدتـه تيهـاً(١٠٥) ... له طعـم ألـذّ من الشـراب

وقـال فيـه :

حيـّـا بكمثـرايـة لـونُهـا ... لـونُ محبٍ زائد الصفـرة
تشبه نهـد البنت ان أنهـدت ... وهـي لهـا ان قلبـت سـرة

وقـال آخـر :

وكمثـرى سباني(١٠٦) منه طعمٌ ... كطعم المسك شِيب(١٠٧) بماء ورد
لـذيـذ خلقتـه لمـا أتـانـا ... نهـود السمر في معنى وقدّ

وقال فيه أيضاً :

وكمثـــرى ببستـــان شـــهي الطعـــم والمنظـــر
كأثـداءِ(١٠٨) الدُمـى جـاءت عليهـا السُندس(١٠٩) الأخضـر
لهـا طعـمٌ اذا ذيقـت كمـاءِ الـورد والسـكر

النبق وما أدراك ما النبق :

قال الملك المعبود « وسدر(١١٠) مخضود(١١١) » · وفي الحديث عن سيد البشر :

« رأيتُ سدرةَ المنتهى فاذا نبقها كقلال(١١٢) هجر » · والسدرة ، المذكورة في القرآن ، وفي عدة من الأحاديث الصحاح الحسان ، (مزاجها) بارد يابس ، في وسط الدرجة الأولى ، نافع للمعدة ، يحدر عنها فضولا ، يسهل المرة الصفرا المجتمعة في المعدة والأمعا· وهو للحرارة قميع(١١٣) ، ويمنع الاسهال الذريع(١١٤) · فهو مطلق وعاقل ، كالهليج(١١٥) الذي هو بالبرد والعفوصة فاعل ·

فسبحان خالق الأضداد ، المنزّه عن الأشباه والأنداد(١١٦)،يقوّي المعدة من الضعف، وينفع من قروح الأمعاء والنزف · وهو يمنعتساقط الشعر ويقويه ويطوله ، وورقه يليّن الورم الحار ويحلله ، ويصلح لأمراض الرئةوللربو ، يزيله ويعدّله · وطبيخ (أوراق) السدر لسيلان الرحم ينطله(١١٧) ، وصمغـهيُذهب الابرية(١١٨) والحزاز اذا به يغسله ، وكم فيه من شعر يصفه ويفضّله · قال الشاعر :

وسـدرةٍ في كـل يـوم ... مـن حُسنهـا في فنـون
كأنمـا النَبْـق فيهـا ... وقـد بـدا للعيـون
جلاجلٌ(١١٩) من نُضار(١٢٠) ... قـد عُلقـت في الغصـون

وقـال آخـر :

أنظر الى النبـق في الأغصان منتظما   والشمس قد أخذت تجلوه(١٢١) في القضب(١٢٢)
كـأن صُفـرتـه للناظريـن غـدت   تحكـي الجـلاجـل قـد صيغت من الذهـب

وقـال آخـر :

انظـر الى النبـق الـذي   فيـه الشـفاء لكـل ذائـق
فكـأنـــه في دوحـــه(١٢٣)   والليلُ ممدودُ السُرادق(١٢٤)
ذهـبٌ تبهرجه(١٢٥) الصيـا   رفُ صار حبّـاً للمخانق(١٢٦)

وقـال آخـر :

تفـاءلـتُ لكـي نبقـى   فـأهديـتُ لـكِ النبقـا
ولا زلـت ولا زلنـا   وفـي النعمـة لا نشقـى

الخـوخ وما أدراك ما الخوخ :

(مزاجه) بارد في آخر (الدرجة) الأولى ، رطب في مبتدأ الثانية .

ينفع الأبدان اليابسة ، الحارة الواهية(١٢٧) . جيـد للمعدة الحارة ، ويقطع اللهيب والعطش ومضاره . ويُشهي الطعام، ويزيد في البـاه والاغتـلام . ويطفيء الحـرارة المطلقة ، وينفع المحموم وقت صعـود الحمى الحادة ، اذا كانت غِباً أو خالصةً أو مُحرقة . وورقه اذا دق وعصر وشرب مرات متواليات أسهل حب القرع(١٢٨) والحيّات . واذا ضمّد به السرّة قتل ما في البطن من الديدان ، فاذا دُلك بـه بعـد الطـلاء بالنورة(١٢٩) طيّب الأبدان . ودهنه ينفع من الشقيقة(١٣٠) وأوجاع الآذان . وكم للشعراء فيه من تشبيهات حسان . قال الشاعر :

وخوخـةٍ بستـان ذكيٍ نسيمُها   من المسك والكافور قد كسبت نشرا
ملبّسةٍ ثوبـاً مـن التبـر نصفهـا   مُصاغاً وبـاقيهـا كياقوتة حمـرا

وقـال آخـر :

وخوخـةٍ جمعـت طعمـاً ورائحة   ومنظراً يالـه مـن منظـرٍ حسـن
فيها مـن الطعـم أصنافٌ مُضاعفة   طعـمُ الفواكه مجنيٌ مـن الغصن
في وسطها عجوة(١٣١) تشفي اذا عصرت   من كل داء جرى في الرأس والبـدن
أضحت شفـاءً وريحانـاً وفاكهـة   زينُ الفواكـه في الأمصـار والمدن

وقــال آخـر :

كأنمــا الخــوخ علــى دوحــه ... وقــد بــدا أحمــرُ العَنْدم(١٣٢)
بنــآدق" مــن ذهــبٍ أصفــر ... قــد خُضّبَــت أنصــافُها بالــدم

وقــال آخــر :

وخوخــةٍ يحكــي لنــا نصفُها ... وجنــة معشــوقٍ رآه الرقيــب
ونصفُهــا الآخــرُ شبّهتُــه ... بلــون صــبٍ غــاب عنـه الحبيب

وقــال آخــر :

ياحبــذا الخــوخُ ويا حبــذا ... محمّره المغموس في الابيضاض
كأنــه خــدُ رشــا لــم يــزل ... يُبصَرُ فيــه أثــرٌ للعِضــاض

وقــال آخــر :

يا حبــذا الخوخــةُ والذائــقُ ... وحُسنُهــا المستكمــلُ الفائق
كــأنمــا تَوريــد حافــاتها ... توريــدُ خــدٍ مسّــه عاشــقُ

ويختتم (السيوطي) هذه المعاني بأبياتٍ من الشعر لابن شرف القيرواني :

سقى الله عيشي تحت ريــان يانــعٍ(١٣٣) ... منــدّى بأنــداءٍ(١٣٤) وبــردٍ ظــلال
كانــي اذا امتــدت علــيّ ظلالــه ... نسجت على بُردي(١٣٥) دِرعٍ(١٣٦) غوال
كــان على أوراقــه أدمــع الحيــا(١٣٧) ... نظــامُ لالٍ او نجــوم ليــالِ
كــان علــى أعنابــه سندسيةٌ(١٣٨) ... سواتر من حــرِّ الهجيــر(١١٦) حوالِ(١٤٠)
كــان مديــدات(١٤١) العــرائس فوقنــا ... هوابــطُ خلجــان(١٤٢) فتبــن عــوالِ
كــان جنــى المقطــوفِ مــن تمراتهــا ... جنــى النحــلِ ممزوجــا بمــاء زُلالِ
كــان سنا(١٤١) النارنــج فــوق غصونــه ... سنا الجمر١٤٤ يذكى١٤٥ بالالوه١٤٦ صال١٤٧
كــان مبادي(١٤٨) الجلنــار(١٤٩) أنامــل ... مطرّفــه(١٥٠) مــن داميــات(١٥١) نبالِ
كــان ذُرى الرمــان(١٥٢) غيــدُ نواهــدٍ ... جلاهــن(١٥٢) في أعلــى المنصــة جالِ
كــأن ثمــارَ النبــق أنجــمُ عسجــدٍ ... بغيــر سنــا شمــسٍ ونــورِ هــلالِ
كــأن ثمــارَ الخــوخ تبــدي جنوبُهــا ... خُدوداً مــن التخميش ذاتَ سلالِ
كــأن جنــى وردٍ بــه جُمعــا معــاً ... عقيقٌ ودرٌ في ترائــب(١٥٥) حــالِ(١٥٦)
كــأن ذكــيَّ اليــاسميــن وحسنــه ... جميــلُ ثنــاءٍ عــن جزيــل نــوالِ
فياحبــذا حالــي اذا رحــت خاليــاً ... بهــذا وذا لــو أن سرّي خــالِ

تمت المقامة (التفاحية بحمد الله وعونه، والحمد لله وحده ، وصلى الله على من لا نبي بعده ، وسلم تسليماً ، آمين ٠

« المقامة الفستقية »

بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم يسّر يا كريم ·

قال الشيخ الامام ، العالم العلامة ، الشيخ جلال الدين السيوطي الشافعي ، رحمه الله تعالى ، ونفعنا به في الدنيا والآخرة آمين :

مرت من النقول(١٥٧) طائفة (١٥٨) ، عائفة(١٥٩) · تروم الافصاح عن منافعها ، والايضاح عن طبائعها · فأجابها من أجاب ، من الألباء(١٦٠) الأنجاب · أن استمعوا ما ألقي اليكم ، وعوا ما أملي عليكم :

أما الفستق :

(مزاجه) حار رطب في الثانية ، أشد حرارة من اللوز والجوز متناهية ، يفتح السُدَد ، وينقي الكبد ، ويقوي المعد · لأبخرتها التي ترقى الى الأعلى قامع(١٦١) ، ولعلل الصدر والرئة نافع · وينقي منافذ الغذا ، ويزيل ما فيها من ثقل وأذى · ويذهب المغص والغثيان ، وينفع من نهش الهوام ، والحية والثعبان ، ويقوّي فم المعدة وقلب الانسان · ويُعدّ في المفرحات والترياقات ، وقشره اذا نقع في الماء وشرب نفع من العطش والقيء والاطلاقات(١٦٢) ، ويطيّب النكهات(١٦٣) لما فيه من العطريات · ودهنه يضر بالمعدة وذلك من الخاصيات ·

وفيه يقول الشاعر :

مـن الفستق الشامي كـل مصونـة ... تصان عـن الأحداق في بطـن تابوت
زبرجـدة ملفوفـة في حريـزة(١٦٤) ... مضمنـة دراً مغشى بيـاقـوت(١٦٥)

وقـال آخـر :

تفكـرت في معنى الثمـار فلم أجـد ... بهـا ثمـراً يبـدو بحسـن مجـرد
سـوى الفستق الرطب الجني فانـه ... زهـا بمعـان زينت بتحـدد
غلالة مرجان(١٦٦) على جسم فضـة ... وأحشاء ياقوت وقلب زبرجـد(١٦٧)

وقـال آخـر :

وفستقـة شبهتهـا اذ رأيتهـا ... وقـد عـاينتهـا مقلتي بنعيـم(١٦٨)
زبرجـدة خضـراء وسط حـريـزة ... بحقـة عـاج في غـلاف أديـم

وقـال آخـر :

وفستق قـد حكى(١٦٩) جلبابه شفقاً ... وقلبـه كـوداد العاشق الكلف(١٧٠)
تراه ملتحفـاً ثوب الحيا(١٧١) خجلاً ... طـوراً وطـوراً تـراه غـير ملتحف

يحكي فصوص(١٧٢) يواقيت مفصلة	زرقاً وخضراً لها غلف من الصدف
كأن آكله من طيب مطعمه	مواصل لحبيب دائم الصلف(١٧٣)

وأما اللوز :

(فمزاجه) حار رطب، في وسط الدرجة الأولى ٠ تصلح به المعدة ، ويقذف ما فيها رطوبة وفضولا - ويجلو الأعضاء الباطنة وينقيها ، ويغذو الأمعاء ويلزق ما فيها ٠ ويدر البول ويسكن حرقة المبال(١٧٤) ، ويفتح السُدَد من الكبد والطحال ، ويلين الحلق ، وينفع اليابس من السعال ٠ ويسمن ويقوي البصر المضطرب، وينفع من القولنج(١٧٥) ومن عضة الكلب الكَلِب(١٧٦) ٠ وهو جيد للصدر والرئة والمثانة الخشنة ، واذا أكل بالسكر زاد في المني وسخنه ٠

واللوز المقلي ينفع للمعدة بالدباغ(١٧٧) ، واذا أكل اللوز والجوز بالسكر غذيا كثيراً، وخصبا(١٧٨) البدن، وزادا في المخ والدماغ ٠ واللوز الأخضر يدبغ اللثة والفم ، ويُسكن ما فيهما من الحرارة والدم ٠ وفيه يقول الشاعر :

انظر الى اللوز اذ وافاك أخضره	يامن محاسنه تاهت(١٧٩) على التيه(١٨٠)
انظر اليه بعين الزهو(١٨١) مستمعاً	قولي لتنظر فيه حسن تشبيهي
كأنه حب در صانه صدف	من الزبرجد جلَّ الله منشيه(١٨٢)

وقال آخر :

رأيت في اللوز معنى(١٨٣)	مثاله ليس يوجد
كأنه حب در	عليه قفل زبرجد

وقال آخر :

ومهد الينا لوزة قد تضمنت	لمبصرها قلبين(١٨٤) فيها تلاصقا
كأنهما خلان(١٨٥) فازا بخلوة	على غفلة في جلسة فتعانقا

وأما الجوز : فشديد الحرارة والاسخان كثير الاضرار بالانسان ٠ وله في المعدة الباردة نفع ، ومن منافعه أنه يسهل الديدان وحب القرع ٠ وهو دواء لجميع السموم ، وتسكينه للمغص معلوم ٠ وأكثر نفعه للمعالج في الطلا(١٨٦) ، من خارج على القوبا(١٨٧) . والملتوي من الأعصاب ، والثدي الوارم ، وعضة البشر والكلاب ٠ وفيه يقول الشاعر :

تأمل الجوز في أطباقه(١٨٨) لترى	راووق حسن عليه غير مخطوط
كأنه أكر(١٩٠) من صندل خرطت	فيها بدائع من نقش وتخطيط

وقال آخر :

يا رب جوز أخضر	مفصص مقشر
كأنما أرباعه	مضغة(١٩١) علك الكندر(١٩٢)

وأما البندق : فأغلظ وأغذى من الجوزوفي الحرارة دون اللوز ، ولفظه فارسي واسمه العربي الجلّوز • وهو الى حرارةويبوسة قليلة ، وفيه خواص ومنافع جليلة ، منها أنه يزيد آكله في الدماغ ،وينفع من السموم ولدغ العقرب اللداغ • ويقوي المعا ، المدعو بالصايم(١٩٣) ، وينفي الضرر عنه بالخاصية ويلايم • وينفع من السعال المزمن والنفث(١٩٤) الحادث من الرئة والصدر ،وذكر ابن البيطار أن قوماً يعلقونه في أعضائهم من لدغ العقارب ، وذلك نفع جليل القدر •وليقشر من قشريه ليكون أسرع انقضاماً(١٩٥) وانحداراً ، وأقل من النفخ والقراقر(١٩٦) أضراراً • فان في القشر الباطن قبضاً شديداً، وبه يعقل البطن ويكثر النفخ توليداً • واذا قلاه من أراد أكله أعانه على انضاج النزلة(١٩٧) •

وأما الشاهبلوط : وهو القسطل(١٩٨) ،فبارد ذو يباس ، نافخ مصدع للرأس ، وغذاؤه غير محمود للناس • قابض بطيء الانهضام ، وفيه تقوية للأعضاء ومنع للنزوف وجلاء ، ومن السحج(١٩٩) وقروح الأمعاء •وينفع من رطوبة المعدة ونفث الدم ، ولحمه جيد للمسموم ، ولتغزير البول معلوم •

وأما حب الزلّم(٢٠٠): فحار في الثانية،رطب في الأولى ، يزيد في المني كثيراً مأكولا. وطعمه ومذاقه ما ألذه وأطيبه ، واذا مضغ ووضع على كلف(٢٠١) الوجه أذهبه •

وأما حب الصنوبر : فحار في الثانية رطب في الأولى ، وقليل يابس في الثانية نزولا. شديد الاسخان ، صالح للمشايخ دون الشباب• للرعشة والفالج والربو نافع ، وللرطوبات العفنة والبلاغم قالع • وينقي الكلى والمثانةمن الحصى والرمل ويشفيها ، ويقوي المثانة على امساك البول الذي فيها • ويزيد في الباهويكسر الرياح ، ويسكّن الكلى لمن كان له بالاسخان نجاح • وينفع ما عرض في البدن من الاسترخاء ، ويجفف الرطوبات الفاسدة المتولدة في الأعضاء • وهو بطيء الهضم فليحذر فيه الاكثار ، ولا للمحرورين أن يقربوه ، ولا سيما في الزمن الحار • والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم آمين •

★ ★ ★

« المقامة الزمردية »(٢٠٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

سأل سائل من أهل الوسائل(٣٠٢) ، من يقصد في المسائل(٢٠٤) ، ويرصد(٢٠٥) لديوان الرسائل ، عن الخضراوات السبعة ، المنفردة بالرواء(٢٠٦) واللمعة ، وما أجدى(٢٠٧) منها نفعه ، وأجدر(٢٠٨) وقعه ، وأسرع وضعه(٢٠٩) ، وأوضح نزعه ، وأنصع في فن الطب شرعه • فقال على الخبير سقطتم ، ومن البحر لقطتم ، ولقد أقسطتم(٢١٠) في سؤالكم وما قسطتم(٢١١) • وسأنبئكم بما يفوق حكمة بقراط ، من غير تفريط ولا افراط •

القرع وما أدراك ما القرع :

ذو الفضل الذي انتشر ، والذي كان يحبه سيد البشر(٢١٢) • كم فيه من حديث ورد ، وخير مقبول ورد • ففي الصحيحين أنه ﷺ كان يتتبعه من حوالي القصعة(٢١٣) ، وروى النسائي عن أنس قال : كان النبي ﷺ يحب القرع وكفى بذلك تحفه • وفي حديث رواه الحفّاظ من المتقين المبرزين : اذا طبختم قرعاً فأكثروا فيها من الدباء(٢١٤) فانه يشد قلب الحزين • وفي حديث رواه أئمة البلاغ ،عليكم بالقرع فانه يزيد في الدماغ •

مزاجه بارد رطب ، في الدرجة الثالثة ،دواء نافع من الأدواء العائبة(٢١٥) العايثة(٢١٦) • وهو أقل الثمار الصيفية كلها مضرة ، وأثيرهم في المعدة لائبة(٢١٧) • مذكور في المشهورين ، ومشهور في المذكورين • وهو من طعام المحرورين ، جيد لأصحاب الصفرا ، ولأصحاب الأكباد الحارة أصلح وأحرى • لم يداو المبرودين والمحرورين مثله صنعا ، ولا أعجل منه نفعاً ، ولا أعظم منه وقعاً • يبرد ويطفي ، ويلين البطن ويغفي • ويسكن العطش واللهيب، وله في نفع الحميات نصيب. ومرقة القرع المطبوخ فيها ، منعشة من الغشيات ، الناشئة من حدة الأخلاط الصفراوية في الحميات •

اذا ضمّد به شيء من الأورام الحارة بردها وأطفاها ، وسواء في ذلك الدماغ والعين والنقرس وما سواها • وماؤه اذا شرب أو غسل به الرأس سكّن الصداع ، وينوّم من يبس دماغه من مرض تقطراً في الأنف بلا نزاع • واذا لطخ بعجين وشوي ، واستخرج ماؤه ، سكّن حرارة الحمى الملتهبة ، وقطع العطش وحسّن غذاؤه • واذا شرب شرباً بخيار شنبر وبنفسج مربى ، أحدر الصفرا محضة(٢١٨) وأزال كربا(٢١٩) •

وجرادة القرع ان كحل بها العينان أذهب منها صفرة اليرقان • وجرادة القرع اذا لطخ بها الرأس سكن الحار من الصداع ، أوضمدت به العين من الرمد الحار سكن منه الأوجاع ، والحمرة حصل لمادتها الارداع •

وماء قشر القرع اذا تغرغر(٢٢٠) به نفع من وجع الأسنان ، أو قطّر مع دهن ورد نفع الوجع الحار في الآذان • واذا طبخ القرع بالخل نقص من خلطه وانهضم ، وكان أشد تطفية للصفراء والدم • وسويقه(٢٢١) نافع من السعال ووجع الحلق والصدر الصادرين((٢٢٢) حرا، ومن الكرب الحادث من الصفرا •

ودهن القرع نحو دهن البنفسج والنيلوفر ، جيد للجرب والسهر • وهو من أجل الأدوية لتقويم(٢٢٣) المحمومين والمسلولين كيفما استعمله البشر • واذا اكتحل بماء زهره أذهب الرمد الحار وأقلعه •

وقشر القرع اليابس اذا أحرق وذر على الدم المنبعث قطعه ، واذا عجن والحالة هذه بخل وطلي على المرض نفعه • وينفع من قروح الذكر والأعضاء اليابسة المزاج ، وهو جيد لتطهير الصبيان وحرق النار ، معجوناً بسمن النعاج •

واذا قشر حبّه ودقّ واستخرج منه الأدهان نفع وجع الامعاء الحارة ووجع الآذان • ولبّ بزره ينفع من السعال الحار المواد ،ويرطبّ الصدر ويبرىء حرقة المثانة المتولدة عن خلط حار • ولو لم يكن من فضله المبين ،الا أنه داوى الله تعالى بـه رسـولا(٢٢٥) من أصفيائه المرسلين ، قال تعالى « فنبذناه بالعراء وهو سقيم، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين». وفيه يقول الشاعر :

وقـرع تبـدّى للعيـون كـانـه | خراطيم أفيال لطخن بزنجار(٢٢٦)
مررنا فعـاينـاه بـين مزارع | فأعجب منـا حسنـه كـل نظـار

وقـال آخـر :

باكورة مـن قرع ناطـور ناظـر | في كف حلو(٢٢٧) الـدل بغـدادي
كـأنهـا كـافـورة أقبلـت | في خرق خضـر من اللاذي (٢٢٨)

الهندبا(٢٢٩) وما أدراك ما الهندبا :

فيه أحاديث عديـدة ، طـرقٌ بعضهـا لبعضها شهيدة• ما من ورقة من ورق الهندبا الا عليها قطرة من الجنة • وهذه منفعة جليلةوفضيلة ومنّة• ومن الأطباء من سماها البقلة المباركة ، لأنهم حمدوا في قانونها الطبي سالكه(٢٣٠) •

مزاجـه بارد رطب في الأولى ، جيدّ للمعدة ماكولا • ينفـع مـن ضعف القلـب والمعدة ، ويفتح من الكبد والطحال سدده ،وهو من أفضل أدوية المعدة والكبد الحارين ، وتنقي مجاري الكلى من الريـن(٢٣١) • واذاأكلت مطبوخـة عقلت(٢٣٢) وتسكن التهـاب المعدة والكبد (اذا) ضُمد بهـا أو أكلت •وتنفع من الحميات والاستسقـاء والأورام ، ومن نفث الدم وأكثر السموم ولسع الهوام(٢٣٣)•وتسكّن الغثيان ، ويُضمد بها الحمرة والخفقان ، ومن النقرس والورم الحار في عين الانسان ، ويُضمد بأصلها من لسع الحية والعقربان(٢٣٤) • وماؤها اذا غلي وصفي ،وشرب بسكنجبين(٢٣٥) ينقي الرطوبات العفنة، وينفع من الحمّيات المزمنة • وان طُلي بهالأورام بردها وأسعف ، وبزرها قريب الفعل من مائها المعتصر الا أنه أضعف • وفي القانونوهـو أبرّهـا(٢٣٦) ، أنفـع الهندبا للكبـد أمرّها •

وليحذر الهندبا أصحاب السعال ، فانهلا يوافقهم بحال • وفيه يقول الشاعر :

الا حبـذا الهنـدبـا بقلـة | منـافعهـا جمـة جـامعـة
لـه ورقـات كلـين الرياط(٢٣٧) | خضـر بأطرافـه طـالعـة
اذا نـالـه ذو سـقام ابـل | ولم يخش مـن بعده واقعـة

الخسّ وما أدراك ما الخس :

مزاجه بارد رطب ، أشد من الهندبا ترطيباً ، وأوفى في التطفية وتسكـين العطش نصيبا • مبرد للبطن منوم ، مدر للبول اذا عليه دوّم(٢٣٨) • واذا طبـخ فهـو أكثر في

الغذا ، واذا أكل كما قُلع غير مغسول(٢٣٩) وافق من يشتكي من معدته أذى ، ينفع من الحمرة والورم الحار ، وليكثر من أكله مَنْ معدته تولّد المرار .

قال ابن البيطار : لم أجد شيئاً من البقول يُداوى به من السهر غيره . والحلو المتولد منه بارد رطب ، جيد ما يوازي بقل تأخيره(٢٤٠) ، اذ ليس تعرض له رداءة(٢٤١) الاستمراء كما يعرض لسائر البقول ، والبطن معه لا هو منطلق ولا معقول ، وهو يهيج للانسان ،شهوة المأكول . وينفع اللذع في المعدة ، ومن حرقة المثانة التي من خلط صفراوي متولدة . ومن السعال الذي لا نفث معه ، وهو من مادة رقيقة تتحلب(٢٤٢) من الرأس مُسْهِدة(٢٤٣) . ويفرز اللبن ويذهب البرقان ، ويسكن حرارة الرأس والهذيان . ويسكن وجع الثدي ، وهو دواء لاختلاف المياه والأرضين والبدي(٢٤٤) . وان أكل بالخل نيئاً سكّن المرار ، والصداع المتولد من صفراوي البخار . واذا عجن بمائه دقيق الشعير سكن الورم الحار في العين، والاكثار من أكله يضعف البصر ويكسبه الغشاوة والرّيّن(٢٤٥) . وبزره يسكن وجع الصدر ولذعة العقرب والهوام ، واذا شرب قطع شهوة الجماع والاحتلام . وفيه يقول الشاعر :

أتاني الغلام قبيل الطعام	**وقد حم جسمي بخس نضير**
كقضيب اللجين باطرافها	**لبصرها عذبات(٢٤٦) الحرير**

الرجلة ، وما أدراك ما الرجلة :

فيها حديث ضعيف بلا نزاع ، أن فيها شفاء من سبعين داء ، أدناه الصداع . وأنه ﷺ دعا لها بالبركة ، وحيث يشاء نبتت ، وذلك حين داوى بها قرحة كانت في رجله فبرأت . فلذلك تسميها الأطباء البقلة المباركة ، واللينة الحمقا ، أسماء متشابكة .

مزاجها بارد في الثالثة ، رطبة في الثانية ، كثيرة المنافع في الحاضرة والبادية . عظيمة البركات ، تمنع المواد المتحلّبة والنزلات ، لا سيما التي الى المرارة والحرارة مائلات ؛ مع أنها تعين هذه المواد ، وتحيل منها المزاج ، وكم لها من أثر حسن في العلاج . تقمع الصفراء جداً ، وتبدّل من الحرارة برداً ، وتبرّد تبريداً شديداً وهي من أنفع الأشياء كلها لمن يجد في المعدة لهيباً وتوقيداً . أكلاً لها وشرباً لمائها ، ووضعاً على فم المعدة وما دون الشراسيف(٢٤٧) بأواذيها(٢٤٨) . وتشفي من الضَرَس(٢٤٩) العارض في الأسنان ، ومن قرحة الامعاء ، اذا أكلها الانسان ، ومن الفضول أن تصل الى المعدة بالسيلان، ومن نفث الدم من الصدر ، والقيء والاسهال ، ومن نزف النسوان . ومن الأوجاع والقروح والكلى والمثانة ، ومن حرقة البول والعطش ، فجلّ الباري سبحانه . وتنفع المحرورين وأصحاب الحميات الحادة ، وتزيد في الباه والمني ، في الأمزجة الحارّة اليابسة المادة . ومن قال انها تضعف شهوة الجماع فهو من المبردين بلا نزاع ، وضمادها ينفع من الصداع . وأورام العين وغيرها ، ومن الحمرة والتهاب المقعدة ، والمثانة وحرق النار وضَيْرها(٢٥٠) .

وعصارتها تنفع من الحميات والبواسير، وحب القرع شربا ، ومن بثور الرأس وصداعه غسلاً بها وشربا • وقد تقع في أدوية الرحم وفي أخلاط الأكحال ، واذا حُقن بها غير مغلّية تنفع من انصباب المرة الصفرا الىالأمعا ، وتُمسك ما حدث عنها من الاسهال •

وبزرها ينفع من القُلاع(٢٥١) والحر في أفواه الأطفال • ويُشفي من الحصا ويُدر البول ويُسهل الطبعا(٢٥٢) ،واذا قُلي أمسك الطبيعة وقوّى الامعا • واذا دلك بالرجلة الثآليل قلعها بالخاصية قلعاً ، ومن وضعها في فراشه لم ير حلماً ولا مناماً قطعاً • وهي في الجملة صالحة في العلاج ، في كل حار من الأزمان ، والبلدان والمزاج • غير أنها تقطع شهوة الطعام ، وتحدث في البصر الاظلام •

البامية ، وما أدراك ما البامية :

(مزاجها) باردة رطبة في الثانية ، وهي أرطب سائر البقول ، والدم المتولد عنها رديء الفضول • موافقة لأصحاب المزاج الحار ، وغذاؤها في غاية القلة والاستنزار ، والتوابل الحارّة تدفع ما فيها من المضارّ • وفيها أقول شعراً :

وباميــة لهــا طعـم لـذيـذ ومنظرهـا بـديـع في الجمـال
تحـاكي وهي تزهـر في ريـاض حقـاق(٢٥٣) زمرد ملئت لآل(٢٥٤)

الملوخيا ، وما أدراك ما الملوخيا :

(مزاجها) باردة في الأولى رطبة في الثانية ، تفتح سدد الكبد الوانية(٢٥٥) • وتُرطب الصدرَ وتنفع السعال ، وتليّن البطن ، وبزرها أشدّ في الاسهال • وصريحُ كلام القانون في الترجمة عنها أن منافع الخبازى جارية فيها ، لأنها نوع منها •

الخبازى ، وما أدراك ما الخبازى :

(مزاجه) بارد رطب في الأولى ، رديء للمعدة الرطبة فضولا • مفرز للبن نفّاع ، يفتح سُدد الكبد ويُمضغ للقُلاع • وينفع من السعال اليابس بالاغتذا ، ومن أوجاع المثانة وما بها من الأذى • ويُليّن طبعا ،ويُصلح خشونة الصدر والرئة ، وبزره في ذلك أشد نفعا ، وقضبانه نافعة للمثانة والأمعا • وورقه اذا مُضغ نيئاً وضمد به العين ، نقى النواصر(٢٥٦) ، وأثبت فيها اللحم وأزال الغين(٢٥٧) •

واذا ضُمّد به للسع النحل والزنابير نفع ، واذا دُقّ وخلط وزيد(٢٥٨) ، وتمسح به لم يَضُرّه منها ما لسع •

واذا ضمّد به مع البول أبرأ الرّطبة من قروح الرأس ، واذا طبخ ودق وخلط به زيت،ووضع على الحُمرة(٢٥٩) وحرق النار،أذهب عنه البأس • واذا وضع وحده على

الأورام سكّنها ، أو الدماميل فجّرها ،وأخرجما فيها من الأدناس(٢٦٠) • واذا جلس النساء على طبيخه سكّن صلابة الرحم والمقعدة(٢٦١)،واذا أضيف بزرها الى أدوية الحقن أزال ضرر الأدوية الحارة وبرده • واذا طبخ ورقه بأصوله نفع من لسعة الرتيلاء(٢٦٢) والأدوية القتالة ، وينبغي أن يُشرب ويتقيأ به دائماً ،فانه يبرىء ذلك لا محالة • وقد قلت فيه شعراً :

خبازيات تراها تحكي قباب زبرجد
كثيرةُ النفع طبا مقامُها فيه أمجد(٢٦٣)
تفوق في الطب حقا على اللجين وعسجد(٢٦٤)

تمت المقامة الزمردية في الخضراوات السبع لخاتمة الحفّاظ جلال الدين السيوطي الشافعي رحمه الله •

★ ★ ★

الحواشي :

١ ـ الفقه : العلم بالشيء •
٢ ـ ج• منقبة : مفخرة •
٣ ـ مشاكهة : مشابهة ، مشاكلة ، مقاربة •
٤ ـ أريب : بصير بالأمور •
٥ ـ جهر : أعلن •
٦ ـ دبغ : عالج الجلد بمادة تحفظه •
٧ ـ حدّر الشيء انزله من أعلى الى اسفل •
٨ ـ نسبة للمرة الصفراء •
٩ ـ مرضها ووجعها •
١٠ ـ حمى الغب تاتي يوما وتغيب في اليوم الثاني •
١١ ـ التي يمتد تاثيرها •
١٢ ـ فضل الغذاء الذي عجزت الطبيعة عن تمثله •
١٣ ـ يحدث الانعاظ اي الانتصاب •
١٤ ـ الامساك •
١٥ ـ بتلات الزهرة •
١٦ ـ جعل متقدما على غيره •
١٧ ـ اخلاط الجسم اربعة : الدم والبلغم والصفراء والسوداء •
١٨ ـ الحامض والحلو •
١٩ ـ شحم الرمان النسيج الأبيض الذي يلي القشرة •
٢٠ ـ العصير المجفف لقوام الخلاصة اللينة •
٢١ ـ مرض جلدي يكون على شكل بقع بيضاء في الفم •
٢٢ ـ حمرة وصلابة تحدثان في الأجفان ، وتنتثر معها الأشعار •
٢٣ ـ قليل الحلاوة •
٢٤ ـ السريع •
٢٥ ـ لدرجة النعومة •
٢٦ ـ المطر •
٢٧ ـ سقوط الشرج •
٢٨ ـ الجلنار بالفارسية زهر الرمان •
٢٩ ـ اصحاب •
٣٠ ـ جذر •
٣١ ـ الفتاة أول ظهور ثديها •
٣٢ ـ ما يتفكه به •
٣٣ ـ سنام البعير •
٣٤ ـ ج • بعير وهي الابل •
٣٥ ـ رئم : ولد الظبي •
٣٦ ـ وعاء صغير •
٣٧ ـ عسجد : الذهب الخالص •
٣٨ ـ أديم : جلد •
٣٩ ـ بلخش : حجر كريم •
٤٠ ـ الغيد : ج غيداء وهي المتثنية في مشيتها •
٤١ ـ دنَس : لوث •
٤٢ ـ مزعفر : مصبوغ بالزعفران •
٤٣ ـ قراضة : قطع •
٤٤ ـ ضرام : اشتعال •

٤٥ ـ ميّد : متمايلة •

** أبيات من المخطوطين (ب) و (و) •

٤٤َ ـ الأترج : ويقال له الأترنج أو المتك •

٤٥َ ـ الوابل : المطر ، الصيب : السحاب الكثيف الممطر •

٤٦ ـ اللجج : ج لجة وهو موجة البحر •

٤٧ ـ اللقوة : اعوجاج الفك •

٤٧ ـ الزَمِن والمزمن : من طال مرضه •

٤٨ ـ حماضه : لبه الحامض •

٤٩ ـ ماليخوليا : مرض السوداء •

٥٠ ـ قمع : ردع ، أبعد ، زجر •

٥١ ـ عقربان أم أربع وأربعين •

٥٢ ـ القوبا والكلف : مرضان جلديان •

٥٣ ـ تحلّب : سال •

٥٤ ـ عارض : عابر ، ناشيء •

٥٥ ـ شين : عيب ، قبح •

٥٦ ـ الرين : ما يغلب من المرض •

٥٧ ـ الغلمة : شدة الشهوة عند النساء •

٥٨ ـ اوردة تنبتج احيانا حول الشرج •

٥٩ ـ الوباء : مرض شديد العدوى •

٦٠ ـ طلاء : دهون •

٦١ ـ المليك : الاله •

٦٢ ـ لجين : فضة •

* جملة زائدة في (و) •

٦٣ ـ النضير : الجميل •

٦٤ ـ التبر : الذهب •

٦٥ ـ حياك : قدم لك التحية •

٦٦ ـ مقدودة : جميلة القد •

٦٧ ـ مصيغ : مصنوع على مثال معين •

٦٨ ـ الغلائل : ج : غلالة وهي ثوب شفاف •

٦٩ ـ مستهام : عاشق •

٧٠ ـ البين : الفراق •

٧١ ـ النوى : البعد •

٧٢ ـ العارفين بالأصل •

* أبيات غير موجودة في (آ) و (و) •

٧٢ ـ جم : استراح واستعاد قوته •

٧٣ ـ طغاوة القلب : الكرب •

٧٤ ـ الدوسنطاريا : اسهال •

٧٥ ـ يقر : يثبت •

٧٦ ـ انتصاب النفس : ضيقه •

٧٧ ـ الاحليل : مجرى البول •

٧٨ ـ النملة : اكزيما •

٧٩ ـ الشقاق : تشقق حول الشرج •

٨٠ ـ النضار : الذهب •

٨١ ـ العقار : الخمر •

٨٢ ـ الراح : الخمر •

٨٣ـ٨٤ التبر والعسجد : الذهب •

٨٤ ـ نشق : شم •

٨٥ ـ سلاف : خالص •

٨٦ ـ موسوس : مصاب بالوسواس •

٨٧ ـ مدبول : مصاب بالدبول •

٨٨ ـ الأثر : أي مأثور الحديث •

٨٩ ـ النقرس : مرض مؤلم تصاب به مفاصل الرجل غالبا

٩٠ ـ المراح : مكان الراحة والرواح •

٩١ ـ لذ : يمنح اللذة •

٩٢ ـ مخضبة : مصبوغة •

٩٣ ـ رفل : تبختر ، زها •

٩٤ ـ شهد : عسل •

٩٥ ـ أكر : ج أكرة وهي الكرة •

٩٦ ـ تحيا به : يقيم لنا •

٩٧ ـ الند : العود الهندي •

٩٨ ـ الفرق : الخوف •

٩٩ ـ العطف : الجانب •

١٠٠ ـ لمى : سمرة في الشفة •

١٠١ ـ الكمثرى : يذكر ويؤنث •

١٠٢ ـ مصدر اعتل : أصيب بالعلة أي المرض •

١٠٣ ـ منطلق : مسهل وضده عاقل •

١٠٤ ـ أوقر : أثبت •

١٠٥ ـ تيها : تكبرا •

١٠٦ ـ سباني : أسرني بجماله •

١٠٧ ـ شيب : مزج •

١٠٨ ـ دمى ج : دمية وهي اللعبة •

١٠٩ ـ السندس : نوع من الديباج •

١١٠ ـ السدرة : شجرة النبق •

١١١ ـ خضد : نزع الشوك •

١١٢ ـ قلال : ج • قلة وهي الجرة الصغيرة وهجر قرية كانت قرب المدينة تنسب اليها القلال •

١١٣ ـ قمع : زجر ، ردع •

١١٤ ـ الذريع : السريع •

١١٥ ـ ثمر نبات هندي •

١١٦ ـ النِد : النظير •

١١٧ ـ نطل : سكب •
١١٨ ـ الابرية والحزاز : مرضان جلديان •
١١٩ ـ جلاجل : ج• جلجل وهو الجرس •
١٢٠ ـ نضار : ذهب نضار اي خالص •
١٢١ ـ جلا : صقل •
١٢٢ ـ قضب : ج• قضيب •
١٢٣ ـ دوحة : الشجرة العظيمة •
١٢٤ ـ سرادق : وهو الخيمة •
١٢٥ ـ بهرج : زين ، زخرف •
١٢٦ ـ مخانق : ج •مخنق وهو العقد •
١٢٧ ـ الواهي : الضعيف •
١٢٨ ـ حب القرع : قطع من الدودة الوحيدة •
١٢٩ ـ مزيج من الكلس الحي وكبريت الزرنيخ يستعمل لحلق الشعر •
١٣٠ ـ الشقيقة : صداع في شق الرأس •
١٣١ ـ عجوة : نواة •
١٣٢ ـ العندم : مادة صمغية راتنجية يقال لها دم الاخوين
١٣٣ ـ مندى : مبتل •
١٣٤ ـ انداء : ج• ندى •
١٣٥ ـ بردي : ردائي •
١٣٦ ـ درع : قميص من زرد الحديد •
١٣٧ ـ الحيا : المطر •
١٣٨ ـ سندس : ديباج رقيق اخضر اللون : يقصد اوراق الشجر •
١٣٩ ـ الهجير : الحر في نصف النهار •
١٤٠ ـ كوال : ج• كالىء اي حافظ •
١٤١ ـ مديدات العرائش : اغصانها المتدلية •
١٤٢ ـ خلجان : ج• خليج وهو الحبل •
١٤٣ ـ سنا : ضوء •
١٤٤ ـ الجمر : ج• جمرة وهي قطعة الفحم الملتهبة •
١٤٥ ـ يذكى : ذكا يذكو الشيء اشتعل واشتد لهيبه •
١٤٦ ـ الألوة : العود الهندي •
١٤٧ ـ صالي : صلى الشيء القاه في النار •
١٤٨ ـ براعم •
١٤٩ ـ الجلنار : زهر الرمان •
١٥٠ ـ مطرفة : ملونة الأطراف •
١٥١ ـ دمي : الجرح خرج منه الدم •
١٥٢ ـ غيد : ج• غادة وهي الفتاة الناعمة •
١٥٣ ـ جلا : صقل وزين •

١٥٤ ـ المنصة : كرسي أو سرير تجلس عليه العروس •
١٥٥ ـ ترائب : عظام على الصدر •
١٥٦ ـ حالي : لابس الحلي •
١٥٧ ـ النقول : ج• نقل وهو ما يتسلى به •
١٥٨ ـ طائفه : من طاف يطوف •
١٥٩ ـ عاف الشيء كرهه فتركه •
١٦٠ ـ الالباء : ج• لبيب : ذو عقل •
١٦١ ـ قمع : ردع •
١٦٢ ـ اطلاقات : اسهالات •
١٦٣ ـ نكهة : رائحة •
١٦٤ ـ حريزة : وعاء صغير يحفظ فيه الشيء •
١٦٥ ـ ياقوت : حجر كريم يغلب عليه اللون الاحمر •
١٦٦ ـ مرجان : حيوان بحري متحجر لونه احمر •
١٦٧ ـ زبرجد : حجر كريم منه الاخضر والأصفر •
١٦٨ ـ باستمتاع •
١٦٩ ـ الجلباب : غلاف الثمرة •
١٧٠ ـ الكلف : المولع •
١٧١ ـ الحيا : الحياء •
١٧٢ ـ فصوص : ج• فص وهو ما يركب في الخاتم من الأحجار الكريمة •
١٧٣ ـ الصلف : التكبر •
١٧٤ ـ المبال : مجرى البول •
١٧٥ ـ القولنج : الم في الامعاء •
١٧٦ ـ الكلِب : مصاب بداء الكَلَب •
١٧٧ ـ دباغ : مصدر دبغ بمعنى حفظ •
١٧٨ ـ خصب : زاد في النمو •
١٧٩ ـ تاه : تكبر •
١٨٠ ـ التيه : الصلف والتكبر •
١٨١ ـ الزهو : الفخر •
١٨٢ ـ منشيه : منشئه •
١٨٣ ـ معنى : صفة •
١٨٤ ـ قلبين : قصين •
١٨٥ ـ خلان : صديقان •
١٨٦ ـ الطلاء : ما يدهن به من مراهم •
١٨٧ ـ قوباء : مرض جلدي •
١٨٨ ـأطباق : ج• طبق وهو الصحن •
١٨٩ ـ راووق : مصفاة •
١٩٠ ـ اكر : ج• اكرة وهي الكرة •
١٩١ ـ مضغة : قطعة لحم او غيره مما يمضغ •
١٩٢ ـ الكنلر : اللبان •

١٩٣ ــ الصائم : قطعة من المعاء الصغير تلي الاثنا عشر •
١٩٤ ــ النفث : ما يفرز من الصدر •
١٩٥ ــ قضم : أكل باطراف أسنانه •
١٩٦ ــ قرقرة : صوت الغازات في البطن •
١٩٧ ــ النزلة : الزكام •

١٩٨ ــ القسطل : الكستنا •
١٩٩ ــ السحج : مرض يطرح فيه قطع من بطانة المعاء •
٢٠٠ ــ حب الزلم : حب العزيز ، السعد •
٢٠١ ــ الكلف : بقع تعلو الوجه •

٢٠٢ ــ الزمرد : حجر كريم أخضر اللون •
٢٠٣ ــ أهل الوسائل : أصحاب المنزلة •
٢٠٤ ــ المسائل : المطالب •

٢٠٥ ــ رصد : راقب •
٢٠٦ ــ الرواء : المنظر الحسن •
٢٠٧ ــ أجدى : أكثر فائدة •

٢٠٨ ــ أجدر : أكثر قدرة واستحقاقا • •
٢٠٩ ــ وضعه : طرحه •
٢١٠ ــ القسط : عدل •

٢١١ ــ قسط : جار •
٢١٢ ــ سيد البشر : الرسول محمد (ص) •
٢١٣ ــ القصعة : وعاء كبير يوضع فيه الطعام •

٢١٤ ــ الدباء : اليقطين •
٢١٥ ــ عائب : الذي يحدث عيباً •
٢١٦ ــ عائث : مفسد •
٢١٧ ــ لائبة : عطشى •

٢١٨ ــ محضة : خالصة •
٢١٩ ــ الكرب : الحزن والغم •
٢٢٠ ــ تغرغر : كلمة غير واضحة بالأصل •
٢٢١ ــ السويق : عصير القرع المشوي •
٢٢٢ ــ الصادر : الناشر •

٢٢٣ ــ تقويم : شفاء •
٢٢٤ ــ تطهير : ختان •
٢٢٥ ــ الرسول : يقصد به النبي أيوب (ع) •

٢٢٦ ــ زنجار : خلات النحاس •
٢٢٧ ــ الدل : الدلال •
٢٢٨ ــ لاذي : تحريف لاذن وهو شجر عريض الأوراق •
٢٢٩ ــ الهندبا : يذكر ويؤنث •

٢٣٠ ــ سالكة في قانونها الطبي : ناجعة في تأثيرها •
٢٣١ ــ الرين : المرض •
٢٣٢ ــ عقلت : أمسكت •
٢٣٣ ــ الهوام : الحشرات الهائمة •
٢٣٤ ــ العقربان : العقرب •
٢٣٥ ــ سكنجبين : شراب يحضر من الخل والعسل •

٢٣٦ ــ أبرها : أصدقها •
٢٣٧ ــ رياط : ج• ريطه وهو الثوب الرقيق •
٢٣٨ ــ دوم : استمر استعماله •
٢٣٩ ــ استعمال غير صحي •
٢٤٠ ــ تأخيره : أي تناوله آخر الطعام •
٢٤١ ــ رداءة الاستمرار : سوء الهضم •
٢٤٢ ــ تحلب : سال •

٢٤٣ ــ مسهد : منوم •
٢٤٤ ــ البدي : البوادي •
٢٤٥ ــ الرين : مصدر ران أي غطى على الشيء •

٢٤٦ ــ عذبات : ج• عذبة وهي الطحلب أو ما يسيل خلف العمامة •

٢٤٧ ــ شراسيف : ج شرسوف وهو الغضروف المعلق بكل ضلع •

٢٤٨ ــ أواذيها : ج • أذية أي المكروه اليسير •
٢٤٩ ــ الضّرس : العض الشديد بالأضراس •
٢٥٠ ــ الضير : الضرر •
٢٥١ ــ القلاع : داء يكون في الفم •

٢٥٢ ــ الطبع : التبرز •
٢٥٣ ــ حقاق : ج• حقة الجرة الصغيرة •
٢٥٤ ــ لآل : لآلىء •
٢٥٥ ــ واني : مريض ، ضعيف •

٢٥٦ ــ نواصر : ج• ناصر وهو مجرى المياه أو دمع العين•
٢٥٧ ــ الغبن : الصديد القيح •
٢٥٨ ــ كذا في الأصل •
٢٥٩ ــ الحمرة : مرض جلدي •

٢٦٠ ــ دنس : وسخ ، قيح •
٢٦١ ــ المقعدة : الأسفل ، الشرج •

٢٦٢ ــ رتيلاء : نوع من العناكب السامة •
٢٦٣ ــ أمجد : رفيع •
٢٦٤ ــ عسجد :ذهب •

عمر بن الخطاب

رواية تاريخيّة اجتماعيّة
لمعروف الأرناؤوط

عبداللطيف أرناؤوط

بعد ثماني سنوات من صدور رواية « سيد قريش » لمعروف الأرناؤوط وفي عام ١٩٣٧ طلع على الناس برائعته الثانية «عمر بن الخطاب » وكانت شهرته التي حققتها روايته الأولى قد شجعته على متابعة الكتابة في مجال الرواية التاريخية ، بل كان يطمح على ما يبدو أن يصدر رواية «عمر بن الخطاب» في أربعة أجزاء غير أن المجلد الأول من الرواية الذي طبع في مطبعة فتى العرب طبعتين متواليتين لم يتضمن الا الجزأين الأول والثاني من الرواية وبلغ عدد صفحاته مع المقدمة ٤٢٧ صفحة ، مما يدل على أن المؤلف لم يتابع عمله ولم يَفِ بوعده في اصدار الجزأين الثالث والرابع منها .

ولم تتضح دواعي توقفه عن الكتابة مع أنه كما يشير في المقدمة كان يطمح أن يصدر سلسلة كاملة من الروايات عن تاريخ العرب والاسلام يقول في مقدمة الرواية : « واني لأرجو الله أن يمد أيامي، فلعلني أقول هذا الشيء الكثير الذي على فمي ، ولعلني بعد هذا كله أفيء الى ظل هذه الأرض الحادبة فأستريح اليها بجوار أمي في حفرة تنديها السحب وترقفها الأزهار التي جمعتها في أسفاري من سيناء ومكة وبوادي الشام والعراق ، رحم الله أمي ! فلقد حسرت عن بصري وأرتني دنيا محمد رسول الله ودنيا صحبه ووهبت لي مجد هذا اليوم . » ومعروف يعترف بفضل أمه عليه وأثرها في تنشئته على الدين ومحبة التاريخ العربي الاسلامي. فقد كانت تقص على مسامعه نبذاً من سيرة الرسول ﷺ وهو طفل وقد حمّلته نسخة من القرآن الكريم حين دعي للجندية في استانبول ، وأوصته

بالرجوع اليها كلما واجهته المحن والكوارث ، وكان في الثامنة عشرة من عمره آنذاك حين دعي ليشارك في الحرب العالمية الأولى مع العثمانيين ، في هذه الفترة تعرف على الشاعر التركي « عبد الحق حامد » وقرأ الشعر الفرنسي ولا سيما شعر لامارتين وتأثر بالشاعر الفرنسي لاسيلي وبنزعته الابداعية مثلما تأثر بشعر أمرىء القيس ، فكانت هذه القراءات النبع الذي فجر فيه كتابته الابداعية وحسه الرهيف ، والمنهل الذي شده الى التاريخ العربي الاسلامي ، اضافة الى تربيته في كنف تلك الأم البارة .

تقع رواية « عمر بن الخطاب » التي لم تكتمل أجزاؤها في مجلد واحد ، وقد وصفها معروف بقوله :

« رواية اجتماعية تاريخية في أربعة أجزاء تصف حياة العرب الاجتماعية والسياسية وكفاحهم في سبيل حرية الشام والعراق من زمن محمد سيد قريش الى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » .

يمتد زمن الرواية التاريخي من عام ٦١٦ م الى ما بعد معركة مؤتة بقليل ٦٢٤ م فتتم أحداث سيد قريش ومع أن الرواية معنونة باسم « عمر بن الخطاب » الا أن الكاتب لم يتحدث كثيراً فيها عن عمر ، ولعله أرجأ ذلك على ما يبدو الى الجزأين اللذين لم يصدرهما ، اذ لم يرد ذكر عمر الا عارضاً في فصل تحدث فيه الكاتب عن سفره الى دمشق زمن الروم داعياً للدين الجديد وما صادفه هناك من مغامرات .

وانصبت عناية الكاتب في روايته على وصف الظروف الاجتماعية والتاريخية التي مهدت لظهور الاسلام زمن الروم والفرس ، وركز اهتمامه على البيئات العربية خارج الحجاز ولا سيما سورية والعراق والأردن ، دون أن يهمل أصداء الدعوة الاسلامية الناشئة في تلك البيئات العربية التي وجدت في الاسلام منقذاً لها من عسف الروم والفرس وسبيلا الى وحدة العرب وحريتهم .

وبحكم أن الأحداث التي تناولتها الرواية تتصل بالتاريخ الروماني والفارسي وصنائعهما من العرب في الحيرة والشام ، فقد اضطر الكاتب أن يوسع قراءاته التاريخية حول هذه الفترة معتمداً المصادر الأجنبية والمصادر

العربية كما يتضح من قائمة الكتب المرجعية التي أدرجها في نهاية الرواية وقد حوت من الكتب الأجنبية : « نصارى العرب في الشام والعراق حوالي القرن السابع» لفرانسوا نادو • و « التاريخ العام » لرامبو ولافيس و «فتح العرب لمصر» لجورج بتلر • و « فتح العرب للشام » لدي غويه و« تاريخ العرب» لكرسين دي برسفال و « تاريخ العرب » لسيديو • و « العرب في سورية قبل الاسلام » لرينه ديسو • و « بيزنطة » لشارل ديل • و « أمراء غسان » لفولوكي و « تاريخ العرب » و « تاريخ فارس القديمة » لكليمان • وأما المصادر العربية فمحددة منها طبقات ابن سعد والسيرة النبوية لابن هشام والطبري وابن الأثير والأغاني ، وللمؤلف نفسه كتاب عنوانه « تاريخ الدولة الغسانية في الشام » كان أحد المصادر التي اعتمد عليها في نقل الوقائع التاريخية ، ويعود اهتمام الكاتب بالمصادر الأجنبية عن تلك الفترة الى قلة المصادر العربية التي عنيت بتاريخ سورية والعراق وفارس وبيزنطة قبل الاسلام ، على أن المؤلف يحسن اختيار مادته التاريخية من هذه المصادر في ضوء أهدافه القومية والدينية ، ويتخير المواقف المشرقة من تاريخ العرب قبل الاسلام ويصطفي من الشخصيات ما يخدم هدفه في التوجيه والتحفيز •

يبدو معروف الأرناؤوط في روايته عمر بن الخطاب أكثر التزاماً بالشروط الفنية للرواية التاريخية منه في رواية سيد قريش ، وأقل اقحاماً للتاريخ والبحث ، وان كانت روايته لم تسلم من التجاوزات لشروط الفن القصصي ، فقد دفعه حرصه على تثقيف القارىء ومده بالمعلومات التاريخية الهادفة الى ذكر تفصيلات تاريخية ومعلومات مسهبة لايتحملها الفن القصصي ويرهق بها في كثير من فصول الرواية •

تقع رواية « عمر بن الخطاب » في ستة وثلاثين فصلا وتجري أحداثها في عدة بيئات ومدن عربية منها طبرية والناصرة وعين كارم وبصرى والقدس والبتراء (سلع) ، وقد اضطر الكاتب مدفوعاً بنزعته القومية الى استرجاع ماضي هذه المدن التاريخي ، وعراقتها في العروبة ،ودورها القومي في مناهضة بيزنطة زمن المسيحية ، ورفضها الخضوع للأجنبي عبر التاريخ ، ولا سيما (سلع) عاصمة الأنباط ، قاهرة روما وبيزنطة زمن ملكها الحارث الثالث ، اذ وفق الكاتب في

جعل تاريخ مدينة سلع أو البتراء سلسلة مشرفة من النضال في سبيل الحرية ، وكانت آخر فصول بطولتها ومقاومتها الوجود البيزنطي زمن هرقليوس وقبيل الفتح الاسلامي وتدميرها نهائياً على يده بعد ما أبدته من ضروب البسالة في الدفاع عن نفسها ، فليس غريباً أن يولي الكاتب بطولاتها التاريخية حيزاً هاماً من روايته • وأبطال رواية عمر بن الخطاب متعددون متنوعون : منهم من له وجود تاريخي أضفى عليه الكاتب من خياله الحياة ، وبعث في شخصيته روحاً حية جسدها خياله المبدع ، كفروة بن عمرو أمير سلع وزيد بن ثابت وعبد الله بن رواحة ، ونوع آخر ابتكره خياله ، كشخصية كريستيا الشاعر ونوع ثالث له وجود تاريخي عابر توقف عنده الكاتب واستغله لبناء حبكة للرواية كشخصيتي نفتالي ومنصور بن سرجون •

وما من شك في أن منحى الرواية يتخذ طابعاً رومانسياً من حيث الصياغة الشاعرية ، ويرسم المشاعر الوجدانية التي برزت أكثر ما يكون في تصوير حب كريستيا : الشاعر والمثال لبنيامينا السامرية ، وحب « سافو » شقيقة كريستيا للبطل فروة بن عمرو • كذلك تتجلى نزعة الأرناؤوط الرومانسية في تأثره بقراءاته في الأدب الابداعي الفرنسي ، فقد حرص على أن يجمع بين القبح والجمال في شخصيتي بنيامينا الساحرة التي كانت رائعة الجمال وأبيها نفتالي الذي كان قبيح الوجه شائه الخلقة ، فهو أشبه بأحدب نوتردام ، وكأن الأرناؤوط يبرهن على ما ذهب اليه الرومانسيون من أن القبح والجمال يمكن أن يلتقيا في الحياة في اطار المشاعر الانسانية ، ولم يكن الاتباعيون يقبلون بهذا المنطق حتى جاء فيكتور هوغو فأثبته في روايته • كذلك فان النزعة الابداعية لدى الكاتب تتجلى في رسمه لدور الفنان والشاعر كريستيا فهو دور قيادي نضالي من ناحيتين، فان قصائد كريستيا في الحرية والحب كانت على كل لسان ، يلهج بها أهل سورية كلهم ، وهو بالاضافة الى ذلك كامرىء القيس ، في سيد قريش صاحب رسالة جسيمة هي الثأر لأبيه اذ تبين أنه ابن الامبراطور المخلوع موريس الذي نحاه الطاغية جوستيان عن الحكم • ان فكرة كون الشعراء محررين وقادة ولسان الأمة هي فكرة ابداعية بحتة ، ولعل الكاتب رسم ملامح كريستيا متأثراً بشخصية صديقه الشاعر التركي (عبد الحق حامد) الذي تعرفه في استانبول وأفاض في الحديث عنه في مقدمة الكتاب •

والتاريخ عند الأرناؤوط باعث ومحرك وملهم ، واذا كانت حركة التاريخ في سيد قريش تدفعها الأدوار التي يقوم بها الفرد البطل الملتحم برغبات الجماعة، فهي في رواية عمر بن الخطاب أيضاً تقوم على دور الفرد باعثاً ومحركاً ومتبنياً لأماني الجماعة ، ففروة بن عمرو قائد بني جذام يتحدى بيزنطة ويواجهها • لكن قوته ليست فردية انها مستمدة من قوة قومه العرب وأمانيهم في الثورة على الظلم بعدما أذلهم الروم في أكثر من مناسبة ، وحتى الشخصيات الرومانية التي نالت من ظلم قومها لا تسعى أبداً بدافع الحقد الفردي ، بل يشدها نزوع الى العدالة والتحرر • يقول على لسان فروة :

« لقد روع قيصر شعوباً كثيرة كانت آمنة في أوطانها فلما وطىء أرضها طفرت هذه الشعوب من ممارستها لقتال الرومان ، ومنعهم من أن يدنسوا قبور الأجداد ، ثم أسلمت هذه الشعوب منازلها وحقولها وأطفالها وشيوخها الى النيران وآثرت أن يتداعى الوطن كله تحت صليل الحريق ، فتلتهم النار رفاته الغالي ، وتحصد حريته ، حتى اذا قدر للعدو المغير أن ينشر ظله الراعب على جبال الوطن وسهوله لم يلق في هذه الجبال والسهول شعباً يعذبه ويضطهده ، ناشدتك الله يا عمرو أن تقول لسيد العالم (قيصر) اذا لقيته أو استمعت له أن (سلع) قد أسلمت جمالها ونساءها وشيوخها للنار لتستقي حريتها وشممها فلا يعبث بها قيصر » •

وقد يكون هذا الوعي القومي الذي يحمله الكاتب لشخصياته أقرب الى روح عصرنا ، لكنه ليس بعيداً عن المعقول • فمنذ أن وجد العربي وهو يدافع عن حريته ويشعر بها ويحس بكيانه القومي ولو كان احساساً عفوياً •

ويجهد الكاتب أن يوحد المقاومة التي يبديها العرب والرومان معاً للتحرر من اضطهاد قيصر والدولة البيزنطية ، اذ يجمع بينهما نزوع الى الحرية ، ومقاومة الظلم •

وبالمقارنة مع رواية سيد قريش فان البيئة الثقافية والاجتماعية التي رسمها الكاتب في الروايتين متباينتان ، ففي حين اهتم في روايته سيد قريش بالثقافة العربية في بلاطي الغساسنة والمناذرة ورسم الحياة الاجتماعية للعرب في

الجاهلية قبل الاسلام ، نجده في عمر بن الخطاب يرسم معالم الثقافة الهلينية والبيزنطية ويهتم بمعالم هاتين الثقافتين السائدتين في سورية ، ويعنى برصد الصراعات الدينية التي فجرتها الأماني القومية للشعب العربي في سورية ، فيبرز أن التنازع الديني حول طبيعة السيد المسيح والفرق الدينية المتعددة الناجمة عن ذلك الجدل الديني المسيحي ليس الا مظهراً خفياً للصراع السياسي بين الشعب العربي والشعوب الأخرى الراضخة في مواجهة الدولة الرومانية والسلطة الرسمية التي تريد أن تستغل المسيحية لأغراضها السياسية ، ومما يؤخذ على الأرناؤوط في الرواية أنه رسم الثقافة السائدة في سورية آنذاك في الشعر والنحت فجعلها ثقافة الدولة الحاكمة ، ولم يول اهتمامه بالثقافة العربية واسهامها قدر ما أولاها في سيد قريش ، وان كان قد أشار في مواطن متعددة الى اسهام سكان سورية في الفكر والثقافة والسياسة وتبوأ أباطرة سوريين عرش روما ، في رواية عمر بن الخطاب اختار أبطالا يدعون الى التحرر من غير العرب ومن الرومان أنفسهم فطغى الجو الثقافي والاجتماعي غير العربي على الرواية ، وخفف من أثر العنصر العربي وظهوره فيها ، وما قدمه الكاتب عن بطولة الشخصيات العربية في الرواية كعبدالله بن رواحة في مؤتة وفروة بن عمرو في سلع وعمر بن الخطاب في دمشق ، والأزدي الشهيد رسول النبي ﷺ الى الغساسنة لا يحتل من الرواية حيزاً يساوي الحيز الذي أولاه لأبطال روايته من أبناء سورية مثل كريستيا وسافونفتالي والشخصيات المعارضة الأخرى والرومان المستعمرين مما يمنح الرواية أفقاً معاصراً • فنضال الشعوب ونزوعها الى الحرية واحد ، وهو نضال موجه الى حكام روما ولا جريرة لشعبها فيما ارتكب من صنوف العسف لأنه مضطهد شأن بقية الشعوب ، وهي نظرة جديدة الى التاريخ يسقطها الكاتب على فترة تاريخية لم يكن قد برز فيها مثل هذا الوعي •

وللوقوف على خيال الكاتب الابداعي نعرض بايجاز خلاصة القصة التي نسجها مستأنساً ببعض الأحداث التاريخية الهامة والعابرة •

ـ ١ ـ

في صباح يوم رائق من شهر أيار سنة ٦١٦ م كان كريستيا ، الشاعر الروماني والنحات الملهم ، يتنزه قرب بحيرة طبرية ، شارد اللب ، حزيناً ، وقد حاولت فتيات

الجليل أن يخففن من لواعجه وهمومه دون جدوى ، فقد أحب فتاة لعوباً تدعى بنيامين ، ونغّص حبها عليه حياته ومواهبه ، كانت بنيامين ابنة نبيل يدعى نفتالي وكان أبوها فاحش الثراء موفور الجاه في أول حياته وهو سامري الأصل ، امتدت تجارته من أيلة الى الاسكندرية ، فحسده قيصر لأن شهرته طغت على شهرته وحسده البطريرك أيضاً لأنه كان ينافسه في سيادته على الجليل ، ولم يكن يلبي جشعه في ابتزاز أموال الرعية، فاتهمه بأنه عبث بصور الأولياء والصالحين وسخر من السيد المسيح حين رأى صورته على الصليب ، وأوغر صدر قيصر عليه فقرر مصادرة أملاكه كلها ونفيه الى شاطىء البحر الميت ، فلما حلت به المصيبة وهزه الرعب برزت في وجهه بثور وقروح لم يشف منها فشوهت خلقته وعاش بقية عمره يعاني من محنة الظلم والتشويه • وأخذ الناس يرجحون أنه ابتلي بالقروح لأنه تطاول على الدين فكان اسمه يثير النفور مثلما تبعث سحنته على التقزز •

نشأت ابنة نفتالي في حجر أمها وفي رعايتها على شاطىء « مجدلة » في الجليل تعيش من حقل يحيط بالمنزل المتواضع ، الى أن ماتت الأم ولم يبق للطفلة بنيامينا مَنْ يحميها أو يرعاها ، وفي ذات يوم وقعت عليها عين الفيلارك « يوليوس » عامل قيصر في بلاد الجليل فسحره جمالها ، واقتادها الى منزلها ، فحدثها أولا عن ماضي أبيها ونفيه ، ثم عن صلة أمها بقائد حرس « مجدلة » وظل يتردد على الفتاة الى أن حملها يوماً الى قصره فاغتصبها ، وفتح لها أبواب المتع في قصره فعرّفها بحاشيته من الشعراء والمصورين والقادة حتى شاع تبذلها بين الناس ، وأصبح اسمها على كل لسان ، وتعلق بها كريستيا فملكت عليه نفسه وتنازعته عاطفتا الحب الجارف والنفور من سمعتها وماضيها ، لكنه لم يستطع أن يثني قلبه عن التعلق بها فظل مشدوداً اليها وهو يعلم ماضيها الشائن •

وكان نفتالي يخشى أن تعرف ابنته مأساته وتقف على قبحه فتنفر منه ، فاتفق مع زوجته أن يربياها على طي اسمه من حياتها فنشأت وهي تعتقد أن والدها قد مات ، الى أن كان يوم بلغته أنباء ابنته وما يشيع على لسان الناس من تبذلها ، فقرر أن يزورها من منفاه ليلا ليتعرف حقيقتها ، فلما بلغ حديقة بيتها ، أبصرها تناجي كريستيا الشاعر وتبثه وجدها ، وتدافع عن سمعتها ،

وتقص على مسامعه ظروف حياتهاالخفية ، فحسبه نفتالي أحد حاشية الفيلارك وهم ّ أن يقتله ويقتلها ، ثم تبين له من الحديث أنه كريستيا الشاعر ، وأن ابنته مفتونة به ، فقدر مشاعرابنته وكان يحبها حتى العبادة ، وعزف عن فكرته الجنونية ٠

اقترب نفتالي من ابنته وقداستسلمت للكرى بعد مغادرة فتاها كريستيا ، وراح يتأمل شبابها النضرويستعرض حياته المؤلمة في المنفى ، ومأساته التي قادته مرة الى محاولة الانتحار غرقاً في البحر الميت لكن مياهه المالحة طفت به الى سطح اللج فلم يغرق،فقرر أن يتأقلم مع واقعه ، ويدفع عن ابنته محن الحياة ، ونذر نفسه للانتقام من قيصر والبطريرك اللذين نغّصا حياته ٠ فكان يخرج من منفاه وقد تزيَّى بلباس متسول وقد نسي الناس قصته على مر الزمن ، فيطوف حول بيت ابنته دون أن تحس بوجوده ٠ وبعد انصراف كريستيا في تلك الليلة ، راح الأب يتأملوجه ابنته الرائع تحت ضوء القمر فقد شبت واكتمل ربيعها ، فيهم ّ أن يقبلهافي مشهد يلتقي فيه القبح كله بالجمال كله ، ولكنه يشفق على ابنته من هذه القبلة التي تنز قروحاً وصديداً وتنهض ابنته فتدلف الى منزلها دون أن يمكنهاالأب من رؤيته وفي قلبه الألم والمرارة ٠ فيعود الى منفاه على شاطىء البحر الميت يقتات من الأسماك الميتة التي يقذفها في البحر الميت نهر الأردن الذي يصب فيه ٠٠

ويقضي كريستيا زمناً ممتعاً قرب حبيبته ، يزورها كل يوم ثم ينثني الى بيته لرعاية أخته « سافو » وكانت فتاةرقيقة متواصلة العلل والأمراض ، وكان يطيب له وهو الشاعر أن ينتبذ مكاناًمنعزلا يصغي الى تغاريد العصافير وثرثرة الينابيع وينظم أحلى الأشعار ٠لكن هذا الشاعر الطائر الصيت لم تحركه انتصارات هرقل على الفرس ولا قدومقيصر الى فلسطين ليحتفل مع الشعب بعودة الصليب المقدس الذي نهبه الفرسحين دخولهم القدس ، فما كان له أن ينسى حقده على قيصر ودم أبيه ، ذلكأن كريستيا سليل شخصية عظيمة ، اذ كان والده موريس قيصر روما من قبل ،وقد اغتصب الحكم منه قيصر آخر يدعى فوكاس سنة ٦٠٢ م فهربت القيصرةبولديها فراراً من مصير زوجها الذي قتله الامبراطور الجديد وقتل معه خمسة من أولاده ، ثم جاء هرقل فأنهى حكم فوكاس

انتصاراً لقيصر المخلوع لكنه حين تمّ له النصر تنكّر لمن قاد الثورة باسم ولده واستأثر بالحكم مع أنه أسقط فوكاس على أمل أن ينصب ولد موريس كريستيا قيصراً مكان أبيه • وهكذا عاش ابن قيصر الشاعر وأمه وأخته في بلاد الجليل دون أن يعرف هرقل حقيقته ، ولو أدرك أن ابن موريس ما يزال حياً لعمل على قتله ، عاش الفتى ينظم الشعر وينحت التماثيل وينتظر الثأر لعرش أبيه موريس من هرقل المستأثر به •

وكان الشعراء من أتراب كريستيا يعجبون من أن هذا الشاعر لا يمجد انتصارات هرقل ولا يكتب فيها أشعاره لكنهم لا يعرفون سبباً لموقفه السلبي ، ويشاء القدر أن تموت أمه الامبراطورة في منفاها ويبقى ولداها كريستيا وسافو وحيدين معزولين وقد نسي العالم أصلهما، لكن الشاعر كان يتوق أن يغمد خنجره في صدر هرقل فترده أخته عن عزمه حدباً عليه ، وفرقاً من بطش قيصر •

ويزور هرقل في تلك الفترة القدس، فتخرج مواكب الجنود وأبناء الشعب للقائه ، ويقرأ حليفه البطريرك سرجيوس ارادة قيصر بقتل اليهود بعد أن تعاونوا مع الفرس في حملتهم على سورية وفلسطين وسعوا في تقتيل النصارى ، وتطغى موجة عارمة من الغضب والانتقام، وتقف بنيامينا على شرفة قصرها ترقب المشهد فيطالعها وجه أبيها القبيح بين جماهير الناس وهي لا تعرفه • لقد قدر نفتالي أن ابنته ستتعرض هي أيضاً لغضب عامل قيصر « أركاديوس » لأنها هجرته وتحولت عنه الى الشاعر كريستيا، وكان ما توقع ، فقد أمر أركاديوس جنوده باحراق بيت بنيامينا ، وفي تلك اللحظة يظهر نفتالي، ويحملها على ظهره من بين ألسنة النار ويأخذها الى سرداب في القصر لا يعرفه سواه ليخرج بها من الجهة المقابلة الى شاطىء البحر ، فتعجب لنجدة هذا الرجل المجدور الوجه ومساعدته لها وهي لا تعلم أنه أبوها •

كان هرقل بادي الهم والقلق في زيارته فقد مر قبل قدومه الى طبريا ببصرى عاصمة الغساسنة فاستقبله أمراء غسان حنظلة أمير الجولان وزياد أمير اليرموك وامرؤ القيس أمير غزة والبحر الميت والأصبغ بن عامر الكلبي أمير دومة الجندل وأكيدر أمير كندة وغطريف أمير العراق وشرحبيل بن عمرو الغساني أمير الأردن ، وتحول آنذاك الى دير مارية فيها ، وشهد تمثيل مسرحية لسوفوكليس

في مدرج بصرى ، ولم يلتحق بمستقبليه من الأمراء فروة بن عمرو أمير البلقاء الذي قدم متأخراً ، وكان فروة سيد قومه بني جذام وفتى جيله ، وكانت في نفسه موجدة على القيصر بسبب أخيه تيودور حاكم البلقاء الروماني وانزاله تمثال الملك العربي النبطي الحارث قاهر الروم في زمانه في ساحة (سلع) ورفعه تمثال هرقل مكانه لأنه لا يريد أن يرتفع مع تمثال هرقل أي تمثال آخر ، ولأنه كان شرساً أذل قوم فروة من الجذاميين ٠ ولم تكن زيارة هرقل لبصرى ودمشق تخلو من تنغيص ، فقد رماه رجل بحجر وهو خارج من بيعة في دمشق ، وكان على مذهب اليعقوبيين المعارض لمذهب الحكام الملكاني ، فأمر قيصر بقتله ، وبصقت امرأة من الشام على تابوت الامبراطورة المكشوف في أثناء مرور موكب قيصر بدمشق فأمر البطريق بقتلها ، فكان شبح القتيلين يطاردان هرقل في زورته، ويبعثان في نفسه القلق من الصراع المذهبي في بلاد الشام حول طبيعة السيد المسيح ، وفيما هو يسمع ناقوس كنيسة بصرى يؤذن بالصلاة يفد اليه رسول من الحجاز يحمل كتابا من سيد قريش محمد بن عبد الله ﷺ يدعوه فيه الى الاسلام ، فيجمع أمراء غسان ويبادلهم الرأي فيما يرد به على الكتاب، وقد ورد في الكتاب: « من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم : السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وان تتولّ فان اثم الأكادين عليك» ويقترح بعض قادة الروم المتحمسين قتل حامل الرسالة دحية بن خليفة الكلبي ، ويقترح قيصر أن يقدم لمحمد ﷺ الجزية كل سنة أو يجعله فيلاركا على الحجاز ، ويرفض الحارث بن أبي شمر الغساني هذا المقترح ، ويخشى على ملكه في الشام ، ويقرر قيصر تسريح الرسول الى بلده دون جواب، ويرسل مالك الكندي: سادن دير مارية العربي مع دحية من يرافقه الى صرخد ويدله على الطريق الى الحجاز وكان يعطف على الدعوة النبوية ويرجو لها النجاح ٠

وفيما كان موكب هرقل يشق شوارع طبرية قدم فروة بن عمرو لاستقباله من البلقاء ، ومر في طريقه ببيت كريستيا ، وكان صديقه يقدر مواهبه، فوقع بصره على أخت الشاعر « سافو » ،فأحبها من أول نظرة ، وكان فروة يعتزم أن ينحت له الفنان كريستيا تمثالاً لجده الملك الحارث النبطي قاهر روما ليقيمه مكان التمثال الذي دمره حاكم البلقاء الروماني شقيق هرقل ، متحدياً بذلك قيصر

وأخاه ، لتعلو الارادة العربية فوق قهر حكام الروم المتغطرسين ، وكان يقدر أن تصرفه سيجر عليه غضب قيصر وأخيه ، لكنه صمم على قراره ولو كان في ذلك موته ·

ويجتمع فروة أمير سلع والبلقاء بكريستيا ، ويتكاشفان همومهما ، ويعلم فروة أن كريستيا ليس أقل منه حقداً على هرقل سالب ملكه والمتاجر بدم أبيه، فيرضى الفنان أن ينحت للملك الحارث تمثالاً يحمل عزة العرب ويتحدى به ارادة قيصر ، ويعرض فروة عليه أن يزوجه أخته سافو فيقبل كريستيا · وتفرح سافو التي أحبت ذلك الأمير العربي الشجاع من أول نظرة ، فيحملها فروة الى سلع لتصبح أميرة البلقاء ، وتتحد بذلك عرى المقاومة بين شعبين يحكمهما الطغاة الروم ·

ويقترح نفتالي على ابنته بنيامينا بعد أن أنقذها من الموت ومن مطاردة اركاديوس أن يحملها الى حبيبها كريستيا لتعيش في منزله ، لكنها تخشى أن تقود الى الشاعر الفنان غضب أركاديوس وقيصر ، وفيما هو يفكر في أمر ابنته يمر به مارسيليوس صديق كريسيا وكان مرسيليس يعرف نفتالي من قبل، فيفضح أمره ويخبر بنيامينا أن هذا الرجل المشوه الذي أنقذها من الحريق هو أبوها نفتالي فتبكي ويتعانق الأب والابنة في موقف مؤلم بعد فراق طويل ·

ويبلغ مارسيليوس كريستيا أن حبيبته بنيامينا ما تزال على قيد الحياة وقد نجت من براثن أركاديوس وهي الآن في مكان قريب من منزله ، فيخف اليها ويتعرف والدها ، ويعرض عليها أن ترافقه الى منزله لكنها تؤثر أن تذهب مع أبيها مبتعدة عنه فيودعها حزيناً، وتنتهي قصة حبهما الرائعة ، ويعود نفتالي الى منفاه قرب البحر الميت ·

وفي تلك الليلة كان عمر بن الخطاب يتجه الى وطنه الحجاز عائداً من دمشق بعد أن قدم اليها متستراً داعياً قومه الى الدين الجديد، لكن فلافيوس قائد جيش الرومان في دمشق يشك في أمره ويكلفه تنظيف التراب من احدى كنائسها عقوبة له لأنه نازعه وخاصمه ، فلما ضايقه البطريق قتله عمر ثم دفنه وخرج الى

بصرى هائماً ، فتلقاه مالك الكندي سادن دير مارية فيها ، وأخفاه عن عيون جنوده الروم الذين بحثوا عنه ، ثم أخرجه من بصرى مع القوافل المسافرة الى الحجاز ، وحمله تحياته الى سيد قريش ٠

– ٢ –

وينتقل مالك الكندي راهب بصرى القديم الى دير فاران في سيناء ، وكان عليماً بأخبار العرب لا يفوته من ماضي الأمة يسير أو كثير ، فكان أمراء العرب يفدون اليه ليقبسوا من علمه ومعرفته بأخبار أجدادهم ، فيفتح لهم باب الدير ويعيشون مع الماضي العربي من خلال أحاديثه الممتعة ، وأما انتقاله من بصرى الى فاران فقد تم بعد دخول الفرس الى سورية وهربه من بطشهم ، وكان مالك واثقاً من ظهور النبي العربي ﷺ الذي قرأ عنه في الكتب ، فهو يتابع أخباره في الحجاز ويرجو أن تمتد دعوته الى بلاد العرب كلها ، وكان فروة بن عمرو أمير البلقاء يعرفه منذ أن كان في بصرى وقد انعقدت بينهما صداقة وألفة ، فوفد فروة الى دير فاران للسلام على صديقه ، وكاشفه برغبته في الثورة على الروم فحذره مالك من بطش قيصر بعد انتصاره على الفرس وقال له : « في ميسورك أن تقص على قيصر عمل أخيه ، فينهاه عن البغي ويمنعه أن يسرف في مجافاة الناس ، وذلك أفضل من استنفارك عصبية قومك ، ٠٠ اني لأرى في عينيك صورة القتيل الشهيد ، وما أحب أن يطل دم اراقه صاحبه في سبيل قيصر والنصرانية ٠٠ » فيقول فروة : « أما أنك رأيت في عيني صورة القتيل الشهيد فذلك أمر ما كان يفوتني شيء منه ، فلقدتنبأ به كاهن لأبي يوم مولدي عن موتة أموتُها في وادي سلع ، وقال لذلك الوالد : انها لموتة" تشرف الجيل الذي تعيش فيه ، وتمجد الأجيال القادمة ٠٠ » ويودعه فروة ويأمل منه أن يشارك في عقد قرانه على سافو ٠

ويثابر كريستيا على صنع تمثال الملك الحارث النبطي بحماس ، فيروض الصخر ، وتطل أخته الأميرة من قصرها مزهوة بعمله ، ويطيب لها أن تستحم بالغدير مع صويحباتها كما فعلت عنيزة صاحبة أمرىء القيس ، ويمر بها وبصويحباتها فروة فيعابثنه ويكون لـه معهن قصة مماثلة لقصة امرىء القيس مع صويحباته ٠٠ وكانت سلع وريثة أمجاد الأنباط ومعجزة الدهر في بنائها

وتماثيلها ومدرجها ، وكان لها مجد تاريخي عريق فقد استطاع ملكها الحارث الثالث أن ينجد دمشق وينقذها ، فطهرالحارث أرض الشام من نفوذ اليهود عام ٥٨٠ م وضرب النقود باسمه واستتب له الأمر في الأردن وحوران ودمشق والشام وظل سيد بلاد الشام الى عام ٦٠٩ م حين دخل انطيوخوس مدينة دمشق ثم أدب الحارث الثالث بعد حين هيراكانوس ملك اليهودية فضرب حصاراً على أورشليم واضطره الى دفع الجزية ، ولما حاصر ساكوروس الروماني مدينة سلع عجز عن فتحها ٠٠ ان هذه الأمجاد الغابرة للحارث هي التي دفعت فروة أمير سلع أن يرد تمثاله الى مدينته التي حملت مجده مهماكلفه ذلك من تضحيات ، وأصر على أن يقيمه في ساحة المدينة مكان تمثال هرقل ٠

أنجز سافو تمثال الملك الحارث فجاء روعة في الفن ، وأقيم المهرجان في ساحة سلع وفيما كان الناس يهتفون سُمعت أصوات الأبواق منذرة بالخطر فتساءل فروة عما يجري ، فأنبأه رجاله أنهم عثروا على جثة عربي قتيل ، كان الشهيد يدعى عمير بن الحارث الأزدي رسول سيد قريش ﷺ الى شرحبيل بن عمرو الغساني الذي قتله عامل قيصر على معان ، فغضب شيوخ جذام لهذا العمل الوحشي وحزن فروة وقرر دفن الأزدي بما يليق به من الاكرام فوضع جثته في تابوت من الذهب ، وعزم أن ينتقم له من قاتليه ،ويرتفع تمثال الحارث ويحطم أهل سلع تمثال هرقل ، ويخطب فروة بالجموع معلناً ثورته ٠

استقرت بنيامينا في أريحا بلد يوحنا المعمدان وكان أبوها يبحث عنها دائباً الى أن يعثر عليها في حين كانت كتائب عمرو بن معدي كرب تمر من فلسطين في طريقها الى فروة بن عمرو الذي وفد العراق لزيارة سيد سلع ، فيتعرف البطل العربي المشهور نفتالي ويسمع قصته ،فيتألم لما سمع ويعده بأن ينتقم له من قيصر فقد حانت ساعة الثأر ٠ وفي تلك الليلة يدخل موكب هراقليوس الى ايلياء (القدس) وقد برز قيصر يحف به ملوك الشام وبطاريق الجيش ، وفي اليوم ذاته خرجت من جزيرة العرب سرية من الفرسان بقيادة جعفر بن أبي طالب فشقت الصحراء في طريقها الى الشام لتثار لدم عمير بن الحارث الأزدي الذي قتله عامل قيصر في معان ٠

ويتحول نفتالي الى بيت لحم فيتعرف بامرأة عمياء كانت تدعو على قيصر بالهلاك ، فيعرف منها أنها ابنة ضابط لامع أبلى بلاء حسناً في محاربة الفرس وأخلص لقيصر فمات في ساحة المعركة ،لكن قيصر لم يرع حرمته فلما جلا الفرس عن نيكوميديا اختطفها جنود قيصر وحملوها في زورق الى العاصمة ليجعلها هرقل احدى محظياته وبعد أن قضى منها وطره ، نفاها الى أنطاكية ثم الى عين كارم بفلسطين ، وقد أنجبت منه طفلة في مقتبل العمر ، فلما زار قيصر القدس اعترضته تلك العمياء البائسة التي ذهب بصرها بكاء على حظها التعس ، وذكرته بجريمته بحقها فأمر أن تقتل بتهمة السحر تخلصاً منها ومن عذاب ضميره ، وعقوبة لها لأنها آوت فرسان العرب الذين يقودهم عمرو بن معدي كرب في بيتها بعد أن لاحقهم جنود الروم .

وبلغت أنباء تمرد فروة مسامع قيصر فأمر بتأديبه وحشد له جيشاً من الغساسنة من بصرى وعليه شرحبيل بن عمرو الغساني وكان الحارث الملك الغساني قد أدركته حمّى بعد زيارة قيصر لمدينة القدس فاعتل ومات في الشام ورابط جيش آخر من الروم في وادي العربة ، وجيش ثالث من عرب الشام والروم في محاذاة البحر الأحمر يقوده مالك بن رافلة عميل الروم أما فروة بن عمرو فجمع قوة من لخم وجذام لا يزيدون عن ثلاثة آلاف محارب انضم اليهم جيش زيد بن حارثة الذي أرسله النبي الكريم ،وكان شيوخ العرب في تيماء وتبوك قد زهدوا في موالاة فروة تزلفاً لقيصر ،فأدبهم فروة ، وأخضعهم وجاء بهم الى سلع فعرضهم في ملعبها ومعهم أسلابهم ،وأعد سلعاً للمقاومة واجتمعت فيها كلمة العرب وشعار الدين الجديد ورفرفت لأول مرة راية العقاب التي رفعها جيش زيد بن حارثة الى جانب رايات لخم وجذام ، في وحدة عربية وقعت بعد فرقة ، ولم يشهد الأب مثل هذه الوحدة الا أيام الحارث ملك الأنباط في زمن بومبيوس . وتحول أهل سلع عن الوثنية وطرحوا اللات والعزى وفتحوا صدورهم للدين الجديد يلقنهم مبادئه عبدالله بن رواحة وجعفر بن أبي طالب .

ويشارك كريستيا القواد العرب في حفر الخنادق وتحصين المدينة التي أحبها وقد رأى في هذه الثورة العربية سبيلا الى الانتقام له من قيصر غاصب عرش

أبيه • وفي عشية ذلك اليوم خرج عبدالله بن رواحة الى جوار معان وانطلق فريق منهم الى زيزاء ومعهم رجال من لخم وجذام وبقي فروة في سلع يدافع عن مدينته ، ومرّ زيد بن حارثة بأناس يزرعون في حقولهم وطاف بالأديرة والمناسك فما أساء اليهم بل أحبه الناس أينما حلّ والتفوا حوله ، والتقى جيشه جيش الروم عند مشارف مؤتة ، فقتل من الرومان عدد كبير ، وقتل من أصحاب زيد مثل هذا العدد ثم حجز الليل بين الطرفين ، ولاذ الرومان الى البحر الميت ورجع أصحاب زيد الى مؤتة ، وفي اليوم التالي كر الرومان كرة جديدة على مؤتة فأخذتهم حراب الفتيان فتراجعوا الى الكرك ، غير أن الجيوش الرومانية أنجدت الجيش الروماني المحارب بقيادة هرقل نفسه وأركاديوس وثيودور شقيق قيصر الذي نازل زيداً في المعركة فجرحه زيد والتحم الطرفان فقتل زيد بن حارثة، فتلقف الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل ثم عقر فرسه وظل يقاتل وهو يحمل الراية بيمناه الى أن قطعت ، فتلقاها بشماله حتى قطعت شماله ، فيحتضنها الى أن يقتل ، ويعقد بعده لثابت بن أقدم العجلاني فيقاتل بحمية الى أن تحوّل الروم عن القتال الى سلع •

بلغت أنباء معركة مؤتة فروة بن عمرو وقد بلغه زحف قيصر اليها من جميع الجهات فتحصن فيها واستمر القتل بين الطرفين وقتل أركايوس في المعركة على مشارف سلع وراء جبل الحور ، وتغلبت كثرة جيش قيصر على بسالة فروة ومقاتليه ، فدخلوا المدينة وخربوها وأحرقوها وغادروها قاعاً صفصفاً • وراحت سافوا تبحث عن زوجها فروة وتسأل عن أخباره ، وكان قد أمرها أن تغادر سلعا الى جوارها مخافة أن يصيبها مقتل في المعركة ، ولما أشرفت على المدينة ألفتها هامدة كالأموات لا صوت ينبعث منها ولا نأمة ، فأثار السكون هواجسها وبصرت بحنظلة أحد قادة جيش فروة وهو بين الموت والحياة ، فسألته عن أنباء زوجها فقص عليها حكاية الساعات الأخيرة من عمر تلك المدينة العريقة ، وحدثها عن بطولات فروة في المعركة وتكاثر فرسان الروم عليه حتى استطاعوا القبض عليه ، فقاده قيصر الى ساحة المدينة وصلبه على عمود من أعمدتها وتقترب سافوا من الساحة لتطالعها جثة فروة وقد استقر مصلوباً على عمود في

ساحة المدينة بين المناضلين وعلى مقربة من الساحة رأت أخاها كريستيا ذاهلاً كالشبح فأغمي عليها بين ذراعي حنظلة ٠

وهكذا طويت صفحة البطل فروة وطويت معه حضارة سلع التي لم يبق من مجدها الا الأنقاض ٠ وفي أريحا كانت بنيامينا تعيش في كوخ بناه لها أبوها ترقب الطبيعة وقد مات الماضي في صدرها فلا تذكر أحزانها ولا أحزان من أحبت ، وعاش معها نفتالي يتتبع أخبار النبي المبعوث ، الى أن كان يوم قرر فيه أن يعتنق الاسلام ويطرح عنه اسم نفتالي الى الأبد ويسمي نفسه « علقمة » رمزاً لآلامه في الحياة والمظالم التي تجرعها ٠ ويعود كريستيا الى أريحا فيلتقي حبيبته بنيامينا وقد هام على وجهه بعد خراب سلع ، وتقترب منه بنيامينا ولكنه لا يعرفها ويرسل ضحكاً أبله يتلوه بكاء مر ، فتدرك بنيامينا أنه فقد صوابه واستسلم الى الجنون فتضمه بنيامينا الى صدرها وهي ترسم علامة الصليب ٠

* * *

هذه خلاصة لا تفي بابراز ما قدمه الكاتب من تحليل رائع ووصف لمشاهد الطبيعة والأوابد التاريخية يمده قلم مبدع ولغة عربية صافية صفاء النبع ، وعاطفة صادقة عميقة قادته في كثير من المواقف الى تصوير الحقائق بوحي وجدانه وقلبه ٠ فشاع في عرضه التهويل والمبالغات أحياناً ، وضخم من الوقائع ما لم يكن له بعد تاريخي بارز ، فابتعد قليلا عن الواقعية في التصوير ، وأسهب في تقديم المعلومات التاريخية وكل همه أن يبعث في الأجيال تلك الروح النضالية التي تحلى بها الأجداد ، وقد صفا أسلوبه بعد مراس ، وساعده تمكنه اللغوي على اصطفاء ما في العربية من سحر ، فروايته مرجع لغوي هام جدد فيها ما مات من كلمات اللغة وأحيا سحرها الدفين فاستخدم أفعالا أماتها الزمن كقوله : صحرته الشمس ، وطحا البدر ، وأصباه الهوى ، وسرب قيصر في أنحاء الكنيسة ، وسدرت شعرها ، وأغشاه الليل ، وكان الألم يرمض نفسه ، وأسدفت الشمس لمصرع الرجل ، وزفت الريح السحاب عن الجبال ، ورعش النسيم ، مثلما أحيا بعض أسمائها كقوله ، تنشد الطبيعة لحناً على الربا والذرى ثم على الرواميس

السابحة في غبش المساء ، وتريق على الأصلاء أفناناً من السحب، وابتكر صوراً حلوة كقوله : زهت الخيول بفرسانهاوراحت تترع الفضاء بصليل اختلط بعزيف الأبواق وحداء الفرسان • وقوله: (فطفرت اليه كما تطفر الوردة في كمها» وقوله في وصف مشهد لقاء كريستياوبنيامينا : « واقترب منها حتى تقارنا وتصاحبا فأدنت فمه من فمها وعيناها مغمضتان من سكر ولذاذة فما ان لمست شفتاها شفتيه حتى الونّ وجهه ، ورعش واستفاض جنونه ، وجعل يمتص تينك الشفتين الحمراوين والسامرية لا تبدي ولا تعيد • » فترك للأجيال نصاً ابداعياً يصقل الذوق ويرهف الوجدان ويهذبه ويشد الناشئة الى سحر هذه اللغة التي ما انفكت تظهر للملأ روعتها منذ أن نزل بها كلام الله المعجز •

دمشق : عبداللطيف أرناؤوط

* * *

كتاب من التراث العربي

الخصائص لابن جنّي

علي المصري

□ المؤلف :

هو أبو الفتح عثمان بن جني ، ولد في الموصل سنة ٣٢٢ أو ٣٢١ هـ من أب رومي يوناني كان مملوكاً لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدي ، فابن جني أزدي بالولاء ، فقد سكن الأزد الموصل بعد فتحها سنة ٢٠ للهجرة وكأنما كان ابن جني يحس ضعة عند الناس لأنه لم يكن من أصل عربي ، لذا فهو عني أن ينضح عن نفسه ، ويكدح لأن يرتفع بما يعوضه عن هذا النقص ، ويأخذ بضبعه نحو المعالي وباسقات الشرف ، فهو يعبر عن ذلك فيقول :

فان أُصبح بلا نسب ... فعلمي في الورى نسبي
على أني أؤول الى ... قروم سادة نجب
قياصرة اذا نطقوا ... أرمَّ الدهر ذو الخطب
أولاك دعا النبي لهم ... كفى شرفاً دعاء نبي

«مشيراً الى ما روي أن الرسول ﷺ ، كتب الى كسرى وقيصر يدعوهما الى الاسلام، فأما كسرى فقد مزق الكتاب لما قرأه ، وأما قيصر فلما قرأ الكتاب طواه ثم رفعه ، فلما بلغ ذلك الرسول العربي الكريم ﷺ ، قال في كسرى : مزق الله ملكه ، وفي شأن قيصر : ثبت الله ملكه . انظر « فتح الباري » طبعة الخشاب ٣٤/١ .

وجني ـ بكسر الجيم ، وكسر النون المشددة ، وتسكين الياء ـ هو اسم أبيه بالرومية ومعناها العربي الفاضل ، الكريم ، النبيل . مما يدلنا على مكانة أبيه بين الروم.

□ أساتذته ..

نشأ ابن جني بالموصل ، وتلقى مبادىءالتعلم فيها ، فقد أخذ النحو عن أحمد بن محمد الموصلي الشافعي المعروف بالأخفش .وقرأ الأدب في صباه على أبي علي الفارسي ، فقد صحبه أربعين سنة ينهل من أصفى ينابيعالأدب وأزكاها ، فهو الذي أحسن تخريجه ونهّج له البحث ، وفتّق له سبل الاستقصاءوالتوسع في التفكير ، كل ذلك صادف عند ابن جني رجل الجد والرصانة والذي كان امرأصدق في قوله وفعله . وأخذ كذلك عن أبي عبد الله محمد بن العساف العقيلي .

أما طلابه الذين أخذوا عنه اللغة والأدب فكثر ؛ فمن هؤلاء أبو بكر محمد بن الحسن المعروف بابن مقسم راوية ثعلب . واجتمعمع المتنبي بحلب عند سيف الدولة بن حمدان، وفي شيراز عند عضد الدولة ، وكان المتنبييجله ويحترمه ، واذا سئل عن شيء من دقائق النحو والتصريف في شعره يقول : سلواصاحبنا أبا الفتح . وهو أول من شرح ديوان المتنبي ، الشرح الكبير ، والشرح الصغير وهوالباقي . وأكثر من استفاد منه ابن سيده في كتابه المحكم ، وابن سنان الخفاجي في كتابهسر الفصاحة .

□ شهرته ..

بلغ أبو الفتح في علوم العربية من الجلالة والخطر ما لم يبلغه الا القليل ، حتى لقد أصبح مضرب المثل في معرفة النحو والتبرين فيه ، وقد أوتي حظاً من الشهرة العلمية في حياته ورزق من القبول ما هو أهله ، أما بعدوفاته فقد أصبح قبلة الدارسين ومنار المدلجين على دروب اللغة والأدب . ومع حرصه علىاتباع من سبقه وتبجيله لهم ، لا يبالي أن يخالفهم اذا تهدى لرأي لم يقولوا به ، واستوىله دليله ، واستقرت عنده حجته ، حتى آخر أيامه .

واشتهر ابن جني ببلاغة العبارة وحسنتصريف الكلام ، والابانة عن المعاني بأحسن وجوه الأداء . وهو يسمو في عبارته ، ويبلغبها ذروة الفصاحة ، في المسائل العلمية الجافة البعيدة عن الخيال ووجوه التطرية .

ولقد فتح ابن جني في العربية أبواباً لميتسن فتحها لسواه، ووضع أصولا في الاشتقاق ومناسبة الألفاظ للمعاني ، واهمال ما أهملمن الألفاظ وغير ذلك . وكان واسع الرواية والدراية في اللغة العربية مدافعاً عنها منافحاًعن أصحابها ، لدرجة أنه نصّب نفسه مدرهاً عن العرب يذود عن مجدها ضد الشعوبيةوالأفاقين ، ولم يتشيع أبداً بل كان حنفي المذهب ، وأما مذهبه الكلامي فكان كشيخهأبي علي معتزلياً .

□ مذهبه النحوي ..

كانت المذاهب النحوية لعهد ابن جنيثلاثة : مذهبين قديمين ، البصري ، والكوفي ، ومذهباً حدث من خلط المذهبين والتخير منهما ،وهو مذهب البغداديين .

وكان ابن جني كشيخه أبي علي الفارسي ، بصرياً ، فهو يجـري في كتبه ومباحثـه على أصول هـذا المذهب ، وهو ينافح عنـهويذب ، ولا يألو في ذلك جهداً ٠ وعلى الرغم من هذا فان الرجل كان منهوماً بالعلم يأخـذهعن أهله ، بصرياً كان أو غيره ، فهو مثلا كثير النقل عن ثعلب والكسائي واضرابهما ٠ فهوبريء من العصبية المذهبيـة التي تعمي عـن الحق ، وينحي باللائمة على من ينساق معهاويمضي في سبيلها ٠

وقد كان ابن جني اذاً امامـاً في النحـووالصرف ، كثير الرواية عن غيره ، يستشهد بالشعر والقصص ، ويجول في فنون المعرفة ،ويستطرد لما هو في سبيله فهو يقارب الجاحظ في استطراده وتنويعه ، وخروجه من باب الى باب ومن فن الى فن ٠ وهو بالاضافة الى ذلك شاعر مقل وصاحب طريقة في الخط معروفة ٠

وقد بلغ ابن جني المنهل الذي يرده كـلمن على ظهرها ، والقى عصا التسيار في هذه الحياة في يوم الخميس السابع والعشرين منصفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة للهجرة ، فرثاه جلة علماء عصـره كالشريف الرضـي بقصيدة عدتها تسعة وخمسون بيتاً ٠

□ كتبــه ٠٠٠

خلّف كتباً حساناً تدل على فضله الجموعلمه الغزير ، وقد تخير لها أسـماء حساناً كذلك ، وقد ترك لنا ابن جني اجازة بكتبـهسنة ٣٨٤ أي قبل موته بنحو ثماني سنوات ، وذكر فيها ما يأتي ٠

١ ــ الخصائص ٠
٢ ــ التمام : وهو تفسير ما أغفله السكري من أشعار الهذليين ٠
٣ ــ سـر الصناعـة ٠
٤ ــ تفسير تصـريف المازنـي ، ويسمى المنصف ٠
٥ ــ شـرح مستغلق أبيـات الحماسـة ، واشتقاق أسماء شعرائها ٠
٦ ــ شرح المقصوروالممدود لابن السكيت ٠
٧ ــ تعاقب العربية في البدل والمبدل منه والعوض والمعوض منه ٠
٨ ــ تفسير ديوان المتنبي الكبير ٠
٩ ــ تفسير معاني ديوان المتنبي ، وهـو الصغير ٠
١٠ــ اللمع في العربيـة ٠
١١ــ كتاب مختصر التصـريف ، ويعرف بالتصريف الملوكي ٠
١٢ــ كتاب مختصر العـروض والقوافي ٠
١٣ــ كتاب الألفاظ المهموزة ٠
١٤ــ كتـاب المقتضب ، وهو في اسم المفعـول المعتل العين من الثلاثي ٠
١٥ــ تفسير المذكر والمؤنث ليعقوب ٠
١٦ــ كتاب تأبيد تذكرة أبي علي ٠
١٧ــ المحاسن في العربية ٠
١٨ــ النوادر الممتعة ٠
١٩ ــ الخاطرات من المسائل المشهورة ٠
٢٠ــ كتـاب المحتسـب في شـرح شـواذ القـراءات ٠

٢١ـ تفسير أرجوزه أبي نواس • في الطرد •
٢٢ـ تفسير العلويات • وهي أربع قصائد للشريف الرضي كل واحدة في مجلد •
٢٣ـ كتاب البشرى والظفر •
٢٤ـ رسالة في مد الأصوات ومقادير المدات •
٢٥ـ كتاب المذكر والمؤنث •
٢٦ـ كتاب المنتصف •
٢٧ـ كتاب مقدمات أبواب التصريف (٤٩) مؤلفاً •

كتاب الخصائص ••

من أشهر ما ألّف أبو الفتح بن جني في أخريات حياته وبعد أن اكتملت علومه واستوت معارفه ، وذلك سنة ٣٧٩ هـ • ويتبين من هذا أنه ألّفه بعد أستاذه أبي علي الذي كانت وفاته سنة ٣٧٧ هـ • يقدم كتابه الى بهاء الدولة الذي تولى الملك في بغداد مع الخضوع للخليفة العباسي سنة ٧٧٩ الى سنة ٤٠٣ هـ فيقول في ديباجته : أطال الله بقاء مولانا الملك السيد المنصور المؤيد بهاء الدولة وضياء الملة ، وغياث الأمة ، وأدام ملكه ونصره ، وسلطانه ومجده ، وتأييده وسموه ، وكبت شانئه وعدوه ـ كتاب لم أزل على فارط الحال ، وتقادم الوقت ملاحظاً له ، عاكف الفكر عليه ، منجذب الرأي والروية اليه ، وادا أن أجد مهملا أصله به ، أو خللا أرتقه بعمله ، والوقت يزداد بنواديه ضيقاً ، ولا ينهج لي الى الابتداء طريقاً •

هذا مع اعظامي له ، واعصامي بالأسباب المنتاطة به ، واعتقادي فيه أنه من أشرف ما صنف في علم العرب ، وأذهبه في طريق القياس والنظر ، وأعوده عليه بالحيطة والصون ، وآخذه له من حصة التوقير والأوان ، وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة ؛ من خصائص الحكمة ، ونيطت بهـ من علائق الاتقان والصنعة ، فكانت مسافر وجوهه ، ومحاسر أذرعه وسوقه ، تصف لي ما اشتملت عليه مشاعره ، وتحي الي بما خيطت عليه أقرابه وشواكله ، وتريني أن تعريد كلٍّ من الفريقين ؛ البصريين والكوفيين عنه ، وتحاميهم طريق الالمام به ، والخوض في أدنى أوشاله وخلجه ، فضلا عن اقتحام غماره ولججه ، انما كان لامتناع جانبه ، وانتشار شعاعه ، وبادي تهاجر قوانيه وأوضاعه • وذلك أنّا لم نرَ أحداً من علماء البلدين ، تعرض لعمل أصول النحو ، على مذهب أصول الكلام والفقه •

هذا أنموذج بسيط من رأي ابن جني في عبقرية اللغة العربية ، لأنه أدرك أسرارها ، وحلل كيمياء اللفظة والحروف فيها ، فلاغرابة أن تسمعه يردف لفظ اللغة العربية بصفة رفيعة • ويحوطها بألفاظ الشرف والنبالة والأصالة مما يجده القارىء مبثوثا على امتداد صفحات الكتاب •

وكتاب الخصائص لابن جني يقع في ثلاثة مجلدات تتجاوز صفحاتها ألفا وخمس مئة صفحة من القطع الكبير ، وما هذا التقسيم الا لسهولة تناول الكتاب ، والنسخة المتداولة

التي بين أيدينا قام بتحقيقها رجل فاضل وعلم من أعلام هذه الأمة الأمناء على لغتها الشريفة التي حوت قرآنها وشعرها وتاريخها ، هو الأستاذ محمد علي النجار الأستاذ بكلية اللغة العربية بمصر ، وقد وضع له مقدمة ضافية وافية في ثلاث وسبعين صفحة تحدث فيها بالتفصيل عن مراحل تحقيق الكتاب ، ونسب ابن جني ، ومولده ، ونشأته ، وبعض صفاته الخَلقية والخُلقية ، وعن أساتذته وشيوخه ، ومن أخذ عنهم ، وأخذوا عنه ، ثم حدثنا بالتفصيل عن صحبته الطويلة لأستاذه أبي علي الفارسي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار وارتباطه به بأوثق الأسباب وأمتن العرى لمدة تتجاوز الأربعين عاماً ، ثم عن صحبته للمتنبي شاعر العروبة ووترها الخالد على مر السنين وتبادل الاعجاب بين الرجلين لتشابه عبقريتهما ، اجتمعا بحلب في بلاط سيف الدولة ، وفي شيراز عند عضد الدولة ، وبادله المتنبي حباً بحب وجلة بتجلة ، وكان اذا سئل عن معنى من معانيه ، فانه يقول عليكم بابن جني فهو أبصر بشعري مني ، فسلوه فانه يقول ما أردت ومالم أُرد •

وهذه العبارة الأخيرة من قول المتنبي لاتدل على سعة علم ابن جني وتشعب مذاهبه في القول فحسب ، انما تدل على ما هو أبعد من ذلك بكثير ، وتضيء لنا معالم دروب النقد الأصيل ، وتبين لنا شخصية الناقد الأدبي الأصيل الذي عليه أن يستوعب بصورة واعية جداً ، ما عاشه الفنان منشيء الأثر بصورة غير واعية •

وقام ابن جني بشرح ديوان المتنبي شرحين : الشرح الكبير ، والشرح الصغير ، وللأسف فالأخير هو الباقي • واذا عدنا لمقدمة المحقق والتي ما زلنا بصددها نراه يفرد فصلا للحديث عن مكانة ابن جني بين شيوخ اللغة العربية ويبين لنا جلال قدره ويثني عليه بألسنة معاصريه وتابعيه ، ويحدثنا عن كينونة العبارة عند ابن جني ، بلاغيتها وحسن تصرفها ، وسهولة تساوقها وانسجامها ، وعن الابانة عن المعاني بأجود وجوه الأداء ، مع السمو بهذه العبارة الى ذرى الفصاحة وقمم التبين ، حتى في المسائل العلمية الجافة البعيدة عن الخيال ووجوه التطرية ، حتى غدت لابن جني في عباراته وجوه في استعمال بعض المفردات يدونها اللغويون وينوهون بها كمايدونون ما يصدر عن العرب الأصلاء ، ثقة منهم بطبيعته العربية ، وسجيته اللغوية • فمثلا ، هو يستعمل كلمة « الأصلية » في معنى التأصيل ، ويطنب ابن منظور في معجمه لسان العرب في الجزء الحادي عشر مادة أصل ، في ما يؤيد حسن استعمال ابن جني على الأصالة معنى الأصلية ، ولولا خشية الاطالة لوقفنا وقفة طويلة نعدد حسن استعماله لكثير من المفردات على الوجه الصحيح •

وان ذكرنا تفرده في استعماله لكثير من المفردات على الوجه الأصيل لها ، كان لزاماً أن نذكر أيضاً بعض الهنات الكلامية التي سقط بها ، وان كانت هذه الهنات لا تثلم شرف البلاغة ، ولا تغض من شأوه ، وفراهة أسلوبه ، من مثل ادخاله (قد) على الفعل المنفي ، كقوله في الصفحة العشرين من الجزء الأول : « كما أن القول قد لا يتم معناه الا بغيره » وهذا لا يجيزه النحويون •

ومنها أيضاً ادخال « ال » على بعض ، والنحويون يمنعون هذا ، على الرغم من أنه جاء في عبارة سيبويه ، والأخفش ، ومن أمثلةذلك ما جاء في الصفحة الرابعة والستين من الجزء الأول : «فلما كان الأمر كذلك واقتضت الصورة رفض البعض واستعمال البعض » .

واسمحوا لي أن أضيف هذا المثال الأخير لتعم الفائدة ، جاء في الخصائص في الصفحة ست وثلاثين من الجزء الأول ما يلي : « وبذلك تعرف حاله : أصلب هو أم رِخو؟ وأصحيح هو أم سقيم ؟ » اذا أنعمنا النظر في قوله السابق نراه قدم حرف العطف على أداة الاستفهام « وأصحيح هو أم سقيم؟ » وهذا لايجيزه النحو ، اذ الواجب أن يقال : أوَ صحيح هو أم سقيم ؟ .

ثم ننوه بأثره الذي انسحب على من جاءوا بعده ، وما له من كبير الأهمية وعميم الفائدة ، فابن جني الذي فتح في اللغة العربية باباً ، لا بل أبواباً لم يتسن فتحها لغيره ، ووضع أصولا في الاشتقاق ومناسبة الألفاظ لمعانيها وغير ذلك .. حتى اذا جاء لغوي نابه، وعالم كبير ناضج أغار على هذه الأبواب وولج منها،وهذا العالم علي بن أحمد المعروف بابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ والذي ترك لنا ثروة لغوية ضخمة في مؤلفه الذائع الصيت ، الجليل المنزلة « المحكم » والذي يعتبر قمة ماوصلت اليه اللغة من اتقان وانسجام . ثم يأتي صاحب اللسان لينقل ما في المحكم لابن سيده وينسبه اليه ، وهو في الأصل لابن جني، والشواهد طويلة لا يتسع المقام لذكرها، فعلى المختص العودة اليها في مظانها . واذا تركنا ابن سيده وابن منظور ، نقف عند عالم آخر هو ابن سنان الخفاجي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ هـ في كتابه سر الفصاحة الذي يعتبر ثمرة ناضجة من ثمار دوحة ابن جني . ولو ابتعدنا قليلا الى القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ودخلنا في السابع لألفينا ابن الأثير نصر الله بن محمد المتوفى سنة ٦٣٣ هـ ، صاحب المثل السائد ، وجدناه بنى ما بناه على نقاش مع ابن جني وكتابه الخصائص ، وهو ويا للأسف أيضاً يسلك مسلك صاحب اللسان فيأخذ دون أن يذكر أنه أخذ من ابن جني ، فقد نقل من الخصائص فصلا برمته ولم يَعزُه لأبي الفتح وهو موجود في الصفحة ٢١٧ من الجزء الأول وما يليها .

ويظل الاشتقاق باباً من أوسع الأبواب التي نهّجها ابن جني لعلماء اللغة الذين جاءوا بعده . والذي يفتح اليوم أمامنا أبواب التعريب وصياغة الجديد لكل معلم من معالم الحضارة فتظل لغتنا حية متطورة متنامية دون أن تفقد أصالتها أو تتهجن سحنتها .

واذا أدمنا النظر في هذا السفر القيم من أسفار لغتنا وثقافتنا ـ أقول ذلك وأنا آسف أشد الأسف لأن تسعاً وتسعين وتسع مئة بالألف من دارسي اللغة العربية ، لا بل والمختصين بها لم يطلعوا على هذا الكتاب ،وانما سمعوا به كما سمعنا عن مرور مذنب هالي في لحظة جنون اخباري ـ أقول اذا أنعمنا النظر فيه وجدناه يشتمل على اثنين وستين ومئة باب ، موزعة على مجلداته الثلاثة .

حوى الجزء الأول أربعة وخمسين باباآخرها باب في امتناع العرب من الكلام بما يجوز في القياس ٠

أما الجزء الثاني فاشتمل على خمسة وخمسين باباً أي من الباب خمسة وخمسين حتى الباب التاسع بعد المئة ٠

والجزء الثالث اشتمل على ثلاثة وخمسين باباً بدءاً من الباب التاسع بعد المئة حتى الباب الثاني والستين بعد المئة ٠ وفي نهاية كل مجلدأو جزء فهرست كامل للمواضيع، واستدراكات للخطأ والصواب ، وفي المجلد الأخير فهرست عام للأعلام والشواهد الشعرية ، والقبائل ، والأقوام ، والكتب ، والأماكن على خير طراز فجزى الله المحقق خير الجزاء ، وعوضه الله خير العوض عن كل ما بذله من وقت وصحة في سبيل اخراجه لأهل اللغة وقرائها هذا المؤلف العظيم ٠

ونظراً لصعوبة التعامل مع هذا الكتاب ، الا لمن أوتي من العربية شيئاً كثيراً ، سأحاول أن ألج معكم بعض أكثر الأبواب سهولة وفائدة عامة ، ونشرح معانيها ٠

ففي باب القول على اللغة ، ماهي ٠٠ يقول : أما حدها (فانها أصوات) يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ٠ وفي سبيلنا لتفسير قوله : (فانها أصوات) فهذا يعني أننا ندخل في دنيا الموسيقى وبصورة خاصة الأدوات النفخية فنحن أمام قربة ملأى بالهواء هي الرئة ، وقناة يمر عبرها الهواء ، وفتحات تغير كمية الهواء المار خلالها فيتغير بذلك الصوت طولا وقصراً ونغمة ، وهذه الفتحات التي تؤدي اليها القصبة الهوائية ، اللهاة أو لسان المزمار ، والحلق وجوف الفم والأنف واللسان والأسنان والشفتان ، ومن هذه الأدوات اذا صح التعبير يتشكل المدرج الموسيقي للهواء المنفوخ من الرئة عبرها وتواضع العلماء على تحديد تسعة عشر صوتاً مجهوراً وعشرة أصوات مهموسة ، أطلقنا على كل صوت من هذه الأصوات حرفاً ، فأصبح عدد الحروف تبعاً لمخارجها تسعة وعشرين صوتاً أو حرفاً ٠

ومعنى المجهور : هو الحرف الذي لزم موضعه الى انقضائه ، وحبس النفس أن يجري معه ، فصار مجهوراً لأنه لم يخالطه شيء يغيره وهذه الحروف هي : الألف ، والعين ، والغين ، والقاف ، والجيم ، والباء ، والضاد ، واللام ، والنون ، والراء ، والطاء ، والدال ، والزاي ، والظاء ، والذال ، والميم ، والواو ، والهمزة ، والياء ٠

ومعنى المهموس : أنه صوت هامس لأن مخرجه دون المجهور ، وجرى معه النفس ، وكان دون المجهور في رفع الصوت ، وهو عشرة أحرف : الهاء ، والحاء ، والخاء ، والكاف ، والشين ، والسين ، والتاء ، والصاد ، والثاء ، والفاء ، وقد يكون الحرف المجهور شديداً ، ويكون رخواً ، والمهموس كذلك ٠

ولو أردنا أن ترتب هذه الأصوات ــ أو هذه الحروف ــ على المدرج الموسيقي من البم حتى الزير أو من الصدر فالحلق واللهاة والفم واللسان والشفة فالأنف لقلنا :

ــ الحروف الحلقية : العين ، والهاء ، والحاء ، والخاء ، والغين ٠

ــ الحروف اللهوية : القاف ، والكاف ٠

ــ الحروف الشجرية : الجيم ، والشين ،والضاد ٠ (الشجر مفرج الفم) ٠

ــ الحروف الأسلية : الصاد ، والسين ،والزاي ٠ (لأن مبدأها من أسلة اللسان ، وهي مستدق طرفه) ٠

ــ الحروف النطعية : الطاء ، والدال ،والتاء ٠ (لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى للفم) ٠

ــ الحروف اللثوية : الظاء ، والذال ،والثاء ٠ (لأن مبدأها من اللثة) ٠

ــ الحروف الذلقية : الراء ، واللام ،والنون ٠

ــ الحروف الشفوية : الفاء ، والباء ، والميم ٠

ــ الحروف الهوائية : الواو ، والألف ،والياء ٠٠

وهكذا نجد هذه السعة المتناهية في المدرج الموسيقي لهذه اللغة الشريفة ٠ وليس هذا كل ما في جعبتنا من تفسير لقوله (أصوات) فهذا موجز شديد ومقتضب لذلك ٠

ودعنا ننتقل الى قوله : وأما اختلافها ــ أي اللغة ــ فلما سنذكره في باب القول عليها : أمواضعة هي أم الهام ؟ ٠٠ هذا قول يحتاج الى كثير من الايضاح ، يشرحه لنا ابن جني في الباب السادس والذي عنوانه : « باب القول على أصل اللغة أإلهام هي أم اصطلاح . » وتلخيص ذلك :

ان القول في أصل اللغة فيه : ثلاثة أقوال، أو ثلاث نظريات ــ تواضع، واصطلاح وتوقيف ٠

١ ــ الا أن أبا علي الفارسي رحمه الله، قال لابن جني يوماً : ان اللغة من عند الله ٠ واحتج على ذلك بقوله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله وهو أصدق القائلين ، في ثنايا قصة آدم حينما انتدبه ربه ليجعله خليفة في الأرض يعمل على تنفيذ شريعته وأحكامه جل وعلا ، فقال الملائكة : أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيهاويسفكُ الدماء ؟ فأجابهم سبحانه وتعالى أنه يعلمُ مالا يَعْلمون ٠ وأراد أن يضرب لهم مثلاً على ذلك ، وعلى تفوق آدم عليهم بعلوم يجهلونها ، فقال : « وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها ، ثم عرضَهم على الملائكة ٠ فقال : أنبِئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين »فأفحَمهُم ، فأجابوا « قالوا سُبحانَكَ لا عِلمَ لنا الاّ ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم » مُقرين بربوبيته وتنزيهاً له عن

اعتراضهم على تنصيبه لآدم .. وللمزيد في المعرفة أتمنى العودة الى ذلك في سورة البقرة بدءاً من الآية ثلاثين وما بعدها .

فاحتجاج أبي علي « وعلم آدم الأسماء كلّها » يجوز أن يكون تأويله :

ـ اقْدر آدم على أن واضع عليها ، وهذا المعنى من عند الله سبحانه وتعالى لا محالة . وكان أبو علي قد قال به ، وكذلك رأي أبي الحسن الأخفش .

على أنه لم يمنع ذلك قول من قال ، انها تواضع منه ، على أنه قد فسّر هذا بأن قيل : ان الله سبحانه علّم آدم أسماء جميع المخلوقات ، بجميع اللغات : العربية والفارسية والسريانية والرومية وغيرها من سائر اللغات، فكان آدم وولده يتكلمون بها ، ثم ان ولده تفرقوا في الدنيا وعلِق كل منهم بلغة من تلك اللغات .

فاذا اعترض معترض فقال : اللغة فيها أسماء وأفعال وحروف ، وليس يجوز أن يكون المعلم من ذلك الأسماء دون غيرها ؛ مما ليس بأسماء ، فكيف خص الأسماء وحدها ؟

قيل في الجواب على ذلك : اعتمد ذلك من حيث كانت الأسماء أقوى الأنواع الثلاثة ، فلا بد لكل كلام مفيد من الاسم . فقد تستغني الجملة المستقلة عن كل واحد من الحرف والفعل .

لكن لما كانت الأسماء من القوة الأولية في النفس والرتبة ، على مالا خفاء به ، جاز أن يكتفى بها مما هو تال لها ، ومحمول في الحاجة اليه عليها .

وقد بني ابن جني هذا الجواب على أن المعنيَّ بالأسماء في الآية الكريمة مصطلح النحاة فيها ، وهذا اصطلاح حادث . والاسم في اللغة ما كان علامة على مسمى ، وهذا يشمل الأنواع الثلاثة ؛ الاسم والفعل والحرف انظر المزهر لجلال الدين السيوطي صفحة ١١ الجزء الأول .

٢ ـ والنظرة الأخرى لأصل اللغة ، أنها لا تكون وحياً ، وذلك لأنهم ذهبوا الى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة ، قالوا : وذلك أن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً ، فيحتاجون الى الابانة عن الأشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً ، اذا ذكر عرف به ، مسماه ، ليمتاز من غيره ، وليغني بذكره عن احضاره ، أقرب وأخف وأسهل من تكلف احضاره .

كأن يومئوا الى بني آدم ، فيقولوا : انسان انسان انسان ، ثم يغيبوه ، فأي وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوقات ، الانسان ... وهكذا الى ما لا نهاية .

٣ ـ وذهب البعض الى أن أصل اللغات كلّها انما هو من الأصوات المسموعات ؛ كدوي الريح ، وقصف الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج البغل ، ونعيق الغراب ، وصهيل

الفرس ، ونزيب الظبي ، وعـواء الذئب ،ونباح الكلب ، وثغاء الماعز ، وخوار البقر ، وفحيح الأفعى الخ ٠٠ ثم ولدت اللغات عـن ذلك فيما بعد ٠ ويقول ابن جني « وهـذا عندي وجه صالح ، ومذهب متقبل » ٠

وهكذا نرى ابن جني ذا عقل مفتوح وبصـيرة واعيـة ، يـورد لك النظريـات ويناقشها مالها وما عليها ويبين رأيه فيها ،ما لها وما عليها ، ثم يفضل منها ما وافـق عقله وجارى بحثه ، ولا يمنعه هذا من تغيير رأيه اذا بدا له أفضل منه وأكثر صحة ممـا اعتقد ، فيقول :

واعلم فيما بعد ؛ أنني على تقادم الوقت ، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع ، فأجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي ،مختلفة جهات التغول على فكري ، وذلك أنني اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة ، الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقـة ، والارهاف والرقـة ، ما يملـك علي جانب الفكر ، حتى يكـاد يطمـح به أمام غلـوة السحر ٠٠٠ الخ ٠

اللهم نوّر قلوبنا ، واشـرح صدورنا ،ويسر لنا فهم أسرار هذه اللغة الشريفـة ، لغة القرآن ، والتراث ، انـك سميع مجيب لا تخلف الميعاد ، والسلام عليكم ورحمـة الله وبركاتـه ٠

علي المصري

* * *

إعادة فحص التراث القصصي العربي

عبد الله أبو هيف

يتوجه اهتمامنا بالتراث القصصي العربي الى استجلاء النقاط التالية :

١ ـ فهم القصة .
٢ ـ فهم التراث القصصي العربي .
٣ ـ نقد الفهم السائد للتراث القصصي العربي .

وهذا الاستجلاء يفضي بنا الى حدوداستخدام التراث القصصي العربي في تشكل القصة وسيرورتها من جهة، والى اضاءة مدىتأثير الغرب في القصة العربية الحديثة من جهة أخرى .

١ ـ فهم القصة :

ما يزال فهم القصة مستعصياً على النظرية ، وعلى فكرة الأجناس الأدبية ، فثمة أشكال قصصية قديمة، وأخرى حديثة، وثمةتداخل في كثير من هذه الأشكال في مفهوم الأدبية والفكر الغربي .

الموضوع واللغة والتاريخ والحقيقة والتسلية والاحساس الواقعي ، وهي قضايا متفاوتة الظهور ومتباينة التمثل في الفن القصصيمما يجعلها عرضة للتصنيف المتشدد والتعقيد المبالغ فيه أحياناً ، ولعلنا نتبينجانباً من السعي لفهم القصة .

١ـ١ تعريف القصة القصيرة :

اعترف غالبية منظري القصة القصيرة ونقادها بحيرتهم ازاء تعريف فن القصة القصيرة لتطورها عن أشكال قصصية أبسطأولا ، ولاختلاطها بأشكال قصصية أكثر

تعقيداً خلال عمليات نموها المتصلة ثانياً ،ولتداخلها بمجالات الأدب الشعبي الارحب ، الرموز والأساطير والتخييل والتحفيز أكثرمن أجناس الأدب الأخرى ثالثاً ٠

لا شك ، أن ثمة تعريفات جاهزة للقصة القصيرة ، وأن ثمة كتباً كثيرة باللغة العربية منذورة لتقديم هـذه التعريفات المتواترة بتأثير الغرب ، أو بالتعريب المتصرف لكتب غربية ، لا ترى لفـن القصة الا فهماً محدداًمأخوذاً عن انجاز الغرب القصصي في القرن التاسع عشر كادجار آلان بو وأوهنري وغي دي موباسان وسواهم ، وفي هذا المجال ما يزال كتـاب رشاد رشدي هو الأكثر رواجـاً بـين المتأدبين والمشتغلين بالقصة القصيرة ، أعني « فن القصة القصيرة »(١) ٠

لقد اعترف شلوفسكي ، وهو من أبرزمنظري فـن القصة ، أنه وقبل كل شيء لم يعثر بعد على تعريف للقصة القصيرة(٢) ٠

ولو نظرنا في أي قاموس لمصطلحات الأدب فاننا نقع على تعريفات كثيرة لفن القصة ومصطلحاته ، فهناك القصة Story والقصة الوحيـدة الحـدث Novelle والأقصوصـة Novella والقصة داخل القصة Story within story والقص الخيـالي Fiction والقص الرمزي Allesory والقص الشعري Balaed والقصـة القصيـرة Short story والقصـة الحكاية Tale ٠٠٠ الـخ(٣) ٠

وغني عـن القـول ، أن التعريف أو المصطلح يؤخذ دائماً من النماذج الدالة المعبرة عـن نضوج هذا الفن وانتشاره وسيرورته ،وما هذه التعريفات والمصطلحات الواردة في القواميس والمعاجم والموسوعات الا حصيلةمآل الفن القصصي في الغرب ، لأننا بالتأكيد لا نستطيع أن نطابـق بـين هذه التعاريف والمصطلحات وفن القصص العربي، والمعضلة التي قادتنا الى هذا البحث تثير السؤال اياه:

ماذا نقول بشأن المقامة والخبر والمسامرة وسوى هذه الأشكال التراثية ؟

ان اشكالية تعريف القصة القصيرة قائمة حتى في أحدث الدراسات الغربية ، فها هو ذا روبرت شولز ، وهو من أبرز النقاد المعاصرين ، يحاول في كتابه « عناصر القصـة » أن يكون واضحاً ودقيقاً من غـير الافراط فيتبسيط ما هو متنوع في مواقع القصة ووهمها المعقدين » وحين رأى « القصة Fiction » حكايـة مختلفـة « وسع فهـم القصة ليتضمن الأكاذيب الشخصية التي نقولها لنحمي أنفسنامن التدقيق المزعج ، والنكات العرضية التي نسمعها ونعيد سردها بوصفها حديثاً كيِّساً أو غير كيِّس ، بالاضافة الى أعمال الرؤية العظيمة في الأدب كالفردوس المفقود للمتون والكتاب المقدَّس نفسه »(٤) ٠

ونلاحظ أن شولز يساوي بـين القصة العظيمة والقصـة السوقية كمـا في الحيـاة اليومية ، وكان دعا منظرو الأدب منـذ زمن طويل الى التفريق بين الفن القصصي وسرد الحياة اليومية الذي يفتقر الى المعنى والمستوى والرؤية كما هو الحال في تقارير رجـال الشرطة عن حادثة ما ، أو تبادل الكلام بين عاشقين، أو أحاديث النساء من نوافذ البيوت

أو على مداخلهـا وعتباتهـا ، ثم يستدرك شولز القول ويمحص تعريفه استناداً لبحثه في عناصر القصة ، وهو ما سنأتي على ذكره ٠

هل هذا التعريف كاف ومناسب ، لنذكر بعض التعريفـات :

« القصة مصطلح يـدل على أي سرد لحدث أو أحداث ، وفي القصص الأدبي نجد القصة غالبـاً ما تظهر في شكل صراع بـين قوتين متضادتين في سبيل الوصول الى هدف »٠

« القصة القصيرة تصور حدثاً معيناً لايهتم الكاتب بما قبله أو بما بعده ، وتروي خبراً ، وليس كل خبر قصة ما لم تتوافر فيه خصائص معينة ، أولهـا أن يكون له أثر أو معنى كلي ، كما يجب أن يكون للخبر بداية ووسط ونهاية ، بمعنى أن يصور ما نسميه بالحدث ، ولكي يصبح الخبر كاملاً يجب أن يتضمن بالاضافة الى كيفية وقوعـه زمنـه ومكانه وسبب وقوعه ، وهذا يتطلب التعرف على الشخص أو الأشخاص الذيـن فعلوا الحدث أو تأثروا بـه ، اذ وحـدة الحـدث لا تتحقق الا بتصوير الشخصية وهي تعمـل عملاً له معنى ، وبدون المعنى لا يمكـن أن يتحقق للحدث الاكتمال لأن أركانه الثلاثة ، وهي الفعل والفاعل والمعنى ، وحدة لا يمكن تجزئتها ، ويجب أن تقوم الأحداث والشخصيات على خدمـة هـذا المعنى من أول القصة الى آخرها ، والا أصبحت مختلة البناء ٠

وينبغي أن تجلو القصة موقفاً فنياً يضاء في لحظة التنوير ويندغم في نسيجها المتقن وبنائهـا المدروس ٠

لا بأس مـن النظر في القص أولاً وعناصره ثانياً ، وعناصر القصة ثالثاً ٠

١ـ٢ القص وعنـاصـره :

هـل نبحث في معنى المصطلـح أم في رحلتـه ؟

بمعنى آخر : هل نستعين بدلالة المصطلح اللغوية أم نبحث في استعمالاته ونموها ؟

تفيد كلمة القص باللغة العربية اقتفاء الأثر أو تتبعه ، فصارت الى مجاز هو تتبـع الخبر والحديث ، وجـاء في القرآن الكريم :

« **فارتدا على آثارهما قصصا** » فالقص هو ذكر الحدث أو الخبر ٠ ويستقيم هـذا المعنى مع أحدث تعريفات القص Narration لـدى الشكـلانيين الـروس ومـن والاهـم بأنه استعراض لأحداث ماضية كلاماً ، وقد يوجد ذلك ضمن سـرد طويـل كالقصة أو الرواية ، أو ضمن حوار المسرحية ٠

ثم لا يختلف هذا عن معنى آخر للقص Relation بأنه حكاية الأحداث بحيث يأخـذ بعضهـا بحجز بعض مـع مراعاة التسلسل الزمني لحدوثهـا ٠

ويوضح شولز معنى كلمـة Fiction القاموسي وكيف آل الى التخييل القصصي ، فالواقع Fact والخيال أو القصة Fiction مستمد من المعارف القديمـة ٠

والكلمتان مشتقتان من كلمتين لاتينيتين ، فقد جاءت Fact من Facere ومعناها الصنع أو العمل ٠

وجاءت Fiction من Fingere ومعناها الصنع والتشكيل ، وارتبطت كلمة Fact بالواقع والحقيقة ، بينما عرفت Fiction بانسجامها مع الصفات المريبة كالوهم والكذب، والمفارقة بعد ذلك ، ليس لـ Fact وجود حقيقي ، على حين أن Fiction قد تدوم قروناً ، أما مكان وضوح العلاقة الغريبة بينهما فهو التاريخ بما يعنيه :

الأشياء التي حدثت والرواية المدونة عن الأشياء التي يفترض أنها حدثت، فالقصة هي بحث يعتمد على التاريخ History ويضفي على أعمال الناس الزائلة شكلاً أشد دواماً(٥) ٠

فالقص اذن اقتفاء الخبر وسرده ، لا على سبيل المعلومات ، بل على سبيل اختلاقها أيضاً في الحكاية أو القصة من خلال مبنى حكائي ٠

ان عناصر القص ، بهذا المعنى ، أقرب للوضوح ، وتتبدى في ذكر الماضي وسرد أحداثه وأخباره سواء أكان ذلك من صميم الحقيقة أو من ابتكار الخيال على أن يتضمن ذلك أسلوباً حكائياً ، ولو طابق مواقف الحياة الواقعية وشخصياتها ٠

١ـ٣ عناصر القصة القصيرة :

لقد وجد واضعا كتاب « نظرية الأدب »الشهير ، أوستن وارين ورينيه ويليك ، ان القصة الحديثة نشأت من الأشكال السردية غير الخيالية كالرسالة واليوميات والمذكرات أو السير ، وتاريخ الأخبار أو التاريخ بشكل عام ، بل انها تطورت عن الوثائق ، أما من الناحية الأسلوبية فهي تلح على التفصيلات التمثيلية ، أي على المحاكاة بمعناها الضيق(٦) ٠

وهذا مفيد في الكشف عن عناصر أولى جرى التركيز عليها فيما بعد في فهم القصة القصيرة وأهمها السرد والتخييل والمحاكاة وابراز تفاصيل الواقعة أو الحادثة باخراجها من متوالية الواقع أو التاريخ ووضعها في نسق حكائي ضمن متوالية فنية خاصة بهذا النسق ٠

ان هذه العناصر الأولى ستكون منطلق التعمق في بقية العناصر الدالة على طبيعة القص ووظائفه ٠

في كتاب نادر ناقش القصة القصيرة ونظريتها رأى المؤلف أن العناصر الرئيسة في القصة هي العرض والنمو والعنصر المسرحي ، اذ يغلب عليها لذلك أحكام الصنعة والنهج الفني الحديث وتبني موقف جماعة مغمورة من الحياة لاعتبارات مادية ولغياب بعض الاعتبارات الروحية(٧) ، ثم راعى بعد ذلك أن تبقى القصة القصيرة بحكم طبيعتها بعيدة عن الجماعة ، رومانتيكية وفردية ومتأبية ، وأن عنصر الزمن يلعب دوره في البنيان القصصي لتمكين الخيال الأخلاقي من أداء وظيفته ، ثم ربط طول القصة بقالبها ٠

الا أن فرانك أوكونور ، وهو صاحب هذا الكتاب النادر، لا يعتني بالمبنى القصصي قدر اهتمامه بالموقف الانساني للجماعات المغمورة داخل البنيان القصصي ·

ان عناصر القصة تتمحور عنده حول ماهية الخطاب القصصي ، ويلي ذلك كيفية قول هذا الخطاب ، مما يقودنا الى انجاز الشكلانيين والمناهج النقدية المتطورة عنهم لدى البنيويين وأصحاب النقد الجديد واللغويين والأسلوبيين ·

وهكذا نستطيع أن ننظر في صنعة القصة القصيرة على أنها حصيلة تقدم معرفي وتقني هائل شهده تراث الانسانية ·

ويبدو أن جهد بروب في علم تشكل الحكاية في كتابه « مورفولوجية الحكايات الخرافية الروسية » الصادر عام ١٩٢٩ باللغة الروسية ، نقلة في فهم القصة اذ أن منهجه قابل لنبش محتويات القصة وتركيباتها وآليات تنظيمها ·

عرف بروب التحليل المورفولوجي بأنه« وصف للحكايات وفقاً لأجزاء محتواها وعلاقة هذه بعضها ببعض ، ثم علاقتها بالمجموع »ولكي يحقق بروب هذا الغرض ، اكتشف وحدة أساسية جديدة في الحكايات ، هي ما سماها بالوحدة الوظيفية Functional Unit والوحدة الوظيفية فعل من أفعال شخوص الحكاية ، بصرف النظر عن اختلاف شكل هذه الشخوص من حكاية لأخرى ·

وهذه الوحدات عناصر ثابتة في الحكايات الشعبية ، بصرف النظر عن اختلاف طبيعة الشخوص والوسيلة التي تنفذ بها ،ومعنى هذا أنه مع تغير شخوص الحكايات ، ومع تغير الوسيلة التي تنفذ بها الأفعال تظل الوحدات الوظيفية ثابتة(٨) ·

اذن ثمة وحدات وظيفية للقص يرتبط بها تنامي الفعل القصصي ، وهذا ما قاد الى مفهوم « التحفيز » الذي يدل على الترتيب الفني الواعي لهذه الوحدات ، بغض النظر اذا كانت وظيفية أو موصوفة ، ثابتة أوديناميية ، فالمعول في بناء القصة ، وهذا يفترق نسبياً عن بناء الحكاية الشعبية ،هو التعليل فيما يروى أو يحكى، وقد يسميه بعضهم «السببية» في حركة العقدة «والتحفيز Motivation لدى الألمان والروس ، يسميه الانكليز» انشاء القصة ·

ويميز بين سرد واقعي وسرد قصصي ، سرد عفوي ، أو طبيعي، The Composition وسرد منظم منضبط واع معلل ، والحافز بتعبير آخر هو صنعة ، وللحوافز والصنعات طابعها الخاص في كل عصر ، ومهمة الحافز هي زيادة توهم الواقع ·

وقد لاحظ منظرو الادب أن تمييز الشكليين الروس للحكاية Fable وهي التتابع السببي الموقت والذي هو مادة القصة مهما تنوعت أساليب سردها، عن الموضوع Subject مفيد في كشف الحافز الذي استند الى نظر معمق في بناء القصة ووحداتها ومستوياتها وعلائقها فيما بعد ، فكان هذا التفريق : ان« الحكاية » هي جماع الحوافز كلها ، في حين أن « البنية السردية » أو « الموضوع » هو التقديم الفني المنظم لكل الحوافز السائدة المختلفة تماماً في الأغلب(٩) ·

ان اكتشاف المبنى الحكائي والأنساق الحكائية والسببية فيما بين علائقها هو أبرز عناصر القصة ، الا أن هذا العنصر لم يوجد هكذا دفعة واحدة ، ولا يتيسر وجوده في كل قصة حديثة أو قديمة ، أو في كل قصة لكاتب ما ، بل ان هذا العنصر هو حصيلة الممارسة الابداعية والنقدية في الوقوف على فهم القصة ٠

لننظر في تعريف تقليدي آخر للقصة ، وهو لا يختلف في جوهره عن تعريفات أن القصة القصيرة «حكاية أدبية» ، تدرك لتقص، قصيرة نسبياً ذات خطة بسيطة ، وحدث محدد ، حول جانب من الحياة لا في واقعها العادي والمنطقي ، وانما طبقاً لنظرة مثالية ورمزية ، لا تنمي أحداثاً وبيئات وشخوصاً وانما توجز في لحظة واحدة حدثاً ذا معنى كبير(١٠) ٠

ومن الواضح أن هذا التعريف وصفي لا يفسر عناصر القصة ولا يحددها ، بل يستنبط « مقاسات » لا توافي نظرية القصة القصيرة دائماً ، حيث لا يشتمل التعريف على القواعد والضوابط المحتملة أو المحتومة ، فما معنى « قصيرة نسبياً » في حساب الطول؟ وهل تنحصر القصة القصيرة « بنظرة مثالية ورمزية » وحدها ؟

وهل تقوم القصة القصيرة على « حدث محدد » فقط ؟ وكيف يكون « المعنى » كبيراً أو صغيراً ؟

ان تحديد عناصر القصة القصيرة لا يعني الركون الى نظرية الأجناس الأدبية ، لأن فن القصة أنجب أجناساً متعددة في القديم والحديث ، وبعضها حديث تطور عن قديم كالحكاية والسيرة الى القصة والرواية ، وبعضها متطور عن أشكال أكثر بساطة كالخبر والمسامرة والليلة فيما نجده اليوم في أشكال القصة داخل القصة أو القصة الرمزية على سبيل المثال ٠

لقد قلنا ان اسهام الشكلانيين الروس هو الأبرز في دراسة نظرية القصة ، حين وجهوا عنايتهم الفائقة لشكل الخطاب القصصي باعتباره جنساً أدبياً أو يؤدي الى أجناس أدبية تتعلق بالنسق والايقاع والمبنى والتحفيز والسرد والأدبية بعد ذلك ، فاهتمت الشكلانية ، وما ماثلها من نزعات ، وما آل اليه من مناهج ، بالنص وتغير الأشكال ونوعية الجنس الأدبي ، لأنها السبيل الأمثل لتحليل « الانشاء » الأدبي ، مراعاة للكينونة الابداعية ، والتطور الأدبي لاستقلالية هذه الكينونة ووظيفتها مع التوكيد على أن النظرية هي التاريخ دوماً ، بمعنى أن النظرية، في حدود مفاهيمها ودواعيها ، قابلة للتطور وقادرة عليه(١١) ٠

١ـ٤ فكرة القصة :

ويمكننا بعد هذا الاستعراض لتكون عناصر القصة ، ولا سيما الحكائية والسرد والتحفيز والراوي والمنظور السردي (وجهة النظر) والتصميم (ضبط البناء)، أن نلاحظ أن القصة القصيرة عملية مركبة ومعقدة في حرفتها ٠ وعلى الرغم من تطور النظرية

النقدية لهذا الفن الممتع والمدهش ، فانتحديد المسافة بين القاص والقص والمتلقي هو نتاج عملية الابداع • وهو الذي تصير فيه كتابة القصة من انتاج « بالقوة على الورق » ، الى انتاج (بالفعل لدى المتلقي) ،ونذكر هنا بعض هذه العملية :

أولا :

تركيب القصة القصيرة وهو قائم على« فعلية » بسبب وحدة أو وحدات (تحفيز داخل النسق) أو بسبب علاقة أو علائق(تحفيز يحيل حركة القص الى مأثور ما) ، وهذه الفعلية السببية يقوم بها « راو »يفترق عن القاص والمتلقي ليلتقي معهما في انجاز التركيب مما يستدعي باستمرارالتناسق بين وصف الانجاز ومعياريته ، بين وجوده كقص، وبين وجوده كصياغة أو كشكلللتاريخ (الصراع الاجتماعي سواء كان راهنا أم واقعا) ، لأن الصلة بين القصوشكله يحددها بالدرجة الأولى الحضن المعرفي العظيم الذي هو عذاب البشر وشوقهم الى حياة أفضل • وغني عن القول ، ان الحضن المعرفي يستكمل معناه عبر وعي المتلقي ولاوعيه عندما يتحول الى استطاعة معرفية بالظرف التاريخي وشروط الوجودمن خلال الصلة بين القص وشكله •

ثانيا :

تتبدى « الفعلية » من خلال مستوياتالقص المتعددة التي لا بد من معاينة وظائفها في انجاز التركيب القصصي ، وهي :

آ ـ مستويات توظيف اللغة (نوعية المفردات ـ نوعية التراكيب ـ نوعية الاستخدام الانشائي أو الحقيقي أو المجازيأو الاصطلاحي أو التعبيري) •

ب ـ مستويات التنامي بين السرد والحكائية الطالعة من أبسط مظاهر الأخبار الى أعقد مدى لتحرر نسقه أو سياقه •

جـ ـ مستويات التلاقي بين التحفيز والنسق أو السياق لحساب حركة السببية في الترتيب الفني وتنظيم الحبك الحكائيوقياس التكون المعرفي في تجليه وفي مرتجاه •

د ـ مستويات التوافق بين الايقاع والنسيج لملاحظة تدفق التركيب في علاقاته بين أجزائه والقواعد التي يظهر عليها مثلالتكثيف والترابط والتحرر والتعاقب والتراكم والاستدارة •

ان الايقاع يتجلى في النسيج بوصفهعلاقة متوافقة بين أجزاء العمل القصصيكله•

هـ ـ مستويات المزج بين الواقع والخيال ، حيث يغالي الشكلانيون كثيرا في انغلاق النص على ذاته ، فلا يحيل الا الى ذاته ممايفقده العمق والتاريخية ، ويؤدي بعد ذلك الى نفي جنسيته الأدبية ، فتنتعش في ظل هذه الشكلانية أشكال الكتابة الخارجة عن منطق الأجناس ، ولربما كان تعويم الجنسالأدبي هو المنطلق لادخال الفن في دائرة اللعب الخالص أو التسلية المطلقة ، أوالقطيعة مع الذاكرة ، وهي حركة التاريخ

الموازاة ، وتكشف مستويات المزج بين الواقع والخيال جانباً من جوانب تاريخية القصة القصيرة على أنها أسلوب ينظم رؤية صيرورة زمنية أو تاريخية ما ، كما أسلفنا .

ثالثا :

مدى حمل « الفعلية » لتعيين الدلالة واثباتها داخل المتن الحكائي ، اذ يبرز انشغال القصة القصيرة بدلالاتها ، قوة علائقها أوضعفها أو تهافتها بالموضوع والفكرة والقيمة والمغزى ، ان تراثاً من فن القص في السعي الى الدلالة يتطلب « تحكيماً » لصياغتها في تلافيف التركيب القصصي .

رابعا :

معالجة دور الراوي قياساً لمدى تدخل القاص من جهة ، وقابلية تعاطي المتلقي مع القص من جهة أخرى ، ومن الملحوظ أن اسهامات كثيرة صدرت عن النقد الأنجلوسكسوني الجديد في أمريكا وانجلترا حول تصنيف الراوي ازاء القاص والقص ، كتمييز صوت المؤلف ، وتمييز ضميره داخل صنف الصوت نفسه ، وكتحديد نوع العلاقة بين الراوي ووجهة نظره ، وانطباقها أو مجافاتها للمؤلف وللقص ، وكتمييز منطلق طرق نقل مادة القص وعلاقتها بالراوي ، بقصد موضوعية القصة في بيان بلاغي متكامل لعنصر المعرفة أو طلوع الوعي بين الأدوار جميعها .

وقد عول هذا النقد كثيراً على اعتبار تصنيف الراوي ازاء القاص والقص سبيلاً لتمكين وجهة النظر من بلوغ أغراضها داخل عملية انتاج الأدب(١٢) .

وعلى هذا ، فان التبصر في فن القصة ، وفهمها ، ينبغي أن يستند ، ليس الى فكرتها الناجزة فحسب ، وهي حصيلة مخاضات تاريخية طويلة ، بل الى خصائص ممارستها لدى كل تجربة ابداعية ، وفي التراث الشعبي على وجه الخصوص ، ولا نغفل في هذا الاطار ، أن فهم القصة مرهون بفهم عناصرها الأساسية : السرد ، الحكائية ، الأغراض ، المنظور السردي ، المعنى ، أما العلاقات التي ينظمها التحفيز والدلالات وتنجم عن الفعل ، فعلى المرء أن يلمسها في كل نص قصصي ، مهما أوغل في التعقيد أو جنح الى البساطة .

٢ ـ فهم التراث القصصي العربي :

ان ما ذكرناه حول فكرة القصة لا يعني أيضاً أن نقيس التراث القصصي العربي القديم الى فكرة القصة في انجازها الحديث، ولكن فكرة القصة ضمن الفهم الذي صارت اليه تفيدنا أن أجناساً قصصية عرفها التراث العربي تتوفر لها عناصر القصة كأن تدرس المقامة كجنس أدبي مستقل وليس كقصة قصيرة غير مكتملة الخصائص ، ودراسة « ألف ليلة وليلة » باعتبارها تنتمي الى جنس أدبي متميز هو الكتاب القصصي الذي يختلف عن جنس الرواية ، بأنه رواية تتألف من حكايات متصلة الحلقات تشكل وحدة مفهومية مقابل الوحدة العضوية التي تتميز بها الرواية التقليدية(١٣) وهكذا بالنسبة لفن

الخبر الذي يعتمد على الاستدلال المنطقي والحقيقة والوثائقية في تقديم الحدث ، ورؤية العالم بعد ذلك • على أننا سننظر في موقع القص في التراث العربي وألوانه وعناصره اجابة على فهم التراث القصصي العربي ، وتقدير امكاناته وسيرورته في التقاليد الأدبية •

٢ـ١ موقع القص في التراث العربي :

لدى تقصي الجهود المبذولة حول رصد التراث القصصي العربي وتجميعه وتدوينه وتصنيفه وتحقيقه نلاحظ ما يلي :

٢ـ١ـ١ ثمة تراث كبير وعريق ينتمي الى ما قبل التدوين والتجميع ، وهو أدخل في باب الأساطير والتراث الشعبي ، « ومشكلة المشكلات هي في ضياع وافتقاد هذا التراث » ولا يخفى أن غالبية هذا التراث حكايات وأساطير وقصص ، وما وصلنا من هذا التراث يؤشر الى تميز نبرة القص فيه ، والقدرة المبكرة على التصوير والتجسيد كما في « التيجان في ملوك حمير » لوهب بن منبه ، و « أخبار ملوك اليمن » لعبيد بن شرية الجرهمي ، « السيرة النبوية » لابن اسحاق الذي رواه ابن هشام ، فهذه الكتب تأليف قصصي(١٤) •

٢ـ١ـ٢ ان الانشغال بعلوم الدين وتوجيه التدوين لما يخدم علوم الدين ، ومنه التراث القصصي ، أخمل التأليف في فنون القصة الا ما كان شرحاً لقصص القرآن وجمع الناس على كلمة الاسلام في عمل القصاصين فيما بعد •

٢ـ١ـ٣ ظل الشعر فن العرب الأول الى مطلع القرن العشرين ، ولعل رأي الأديب الموسوعي العربي المعاصر عباس محمود العقاد في فن القصة يظهر بجلاء موقف النخبة العربية المثقفة من فن القصة •

يقرر دارسو نقد العقاد « أن معظمه قد انصب على الشعر باعتباره أصل أجناس الأدب العربي وأعرقها ، كما أنه يستأثر بالنصيب الأوفى من النقد الأدبي القديم ، ومن هنا كان التحديد فيه أصعب منالاً من خلق أجناس أدبية أخرى كالقصة والمسرحية» •

ومن ناحية أخرى ، فان العقاد يرى أن الشعر أرفع الفنون الأدبية منزلة ، لقلة الأداة وكثرة المحصول الشعري والثروة النفسية ، ولأنه يروج بين طبقة تتسم بالسمو في الفكر والذوق والأخلاق(١٥) وهذا يعني أن العقاد ، الذي كتب أكثر من ثمانين كتاباً ، كرس غالبيتها للشعر ونقده ، يرى القصة أقل منزلة بين الفنون ، وله تصريحات تؤيد ذلك ، لذلك لم يكتب سوى قصة يتيمة على طريقته وتفكيره الأدبي هي « سارة » ، ولم يخص القصة العربية بشيء من نقده أو عنايته ويستفاد من هذا الشاهد أن العقاد الذي مثّل جمهرة عريضة من النخبة المثقفة العربية في النصف الأول من القرن العشرين ، لا يعترف بقيمة التراث القصصي العربي ليكون قابلاً للاحياء مثل الشعر ، لأن الأديب العربي يبدأ من الصفر في ابداع القصة (خلق أجناس أدبية) ومن الواضح أن هذا الرأي لا يصدر عن معرفة عميقة بالتراث القصصي العربي •

٢-٢ ألوان القص في التراث العربي :

يزخر التراث العربي بالألوان القصصية التي تتحقق لها عناصر القصة أو غالبيتها ، ونشير هنا الى أبرزها :

٢-٢-١ الليلة أو المسامرة أو الحديث القصصي :

وهو لون قصصي يعتمد على الجمال الأدبي ومباشرة الخطاب القصصي عن طريق الراوي الصريح ـ المؤلف بقصد استعراض المعلومات والتثقيف ، ويلجأون الى ذلك عن طريق السياق الحكائي المدعوم بقدرة فنية وبلاغية ، وبثراء فكري يعتني بالموضوع والأفكار كما هو الحال في ليالي أبي حيّان التوحيدي المسماة « الامتاع والمؤانسة » ، وهو كان ألفه على غرار « ألف ليلة وليلة »مغلباً الطابع الفكري على سرده محتفظاً بالتشويق والمتعة الجمالية في عرضه لصور عصره بأحداثه وشخوصه، اذ يغلب على الليالي في بعض الأحيان الوجد الذاتي والشجن الشخصي حين ينطلق التوحيدي ناقداً عصره والوضع البشري برمته من خلال تحليل نفسيته وسلوكه ، وسلوك معاصريه ومن حكى عنهم ٠ وتتميز ليالي التوحيدي ،بالاضافة الى ذلك ، بأنها تشكل جانباً من سيرة فكرية هو عين التوحيدي على زمنه ٠

وغني عن القول أن المجالس أو المسامرات أو الأحاديث القصصية أو الليالي كثيرة في التراث العربي وقد بلغت في بعض نماذجها شأواً عالياً في القصص الفلسفي كما في « رسالة الغفران » لأبي العلاء المعري ،و « رسالة التوابع والزوابع » لابن شهيد الأندلسي ، ورسالة حي بن يقظان لابن طفيل الأندلسي ٠ وهذه جميعها تعتمد أسلوب الحديث القصصي أو المجالس ٠

عالج ابن شهيد في رسالة التوابع والزوابع « بعض المشكلات البيانية ، وجعل الجن شخوصاً وأبطالاً يحاورهم ويتحاورون في رحلة خيالية الى « أرض لا كأرضنا » ٠

ومثلها « رسالة الغفران » ، رحلة سماوية تعرض للمشكلات الأدبية والعقلية بطريقة قصصية أو هي أميل الى الحديث القصصي المفعم بتخيل واضح ٠

أما ابن طفيل فقد جعل « حي بن يقظان » حديثاً قصصياً منسوج على نسق أسطوري رمزي عرض فيه فلسفته وأفكاره عامداً الى التوفيق بين الشريعة والعلم والفلسفة ٠

ويلاحظ المرء أمرين في هذا النوع من القصص أولهما تفاوت العناصر القصصية فيه ، وان كان السرد موجوداً بوضوح في مثل هذه النصوص ، مضافاً اليه مقدرة حكائية متباينة وتخييل يهدف الى ايصال المعرفة العلمية بالدرجة الأولى ، وثانيهما تأرجح اللون القصصي في هذه النصوص من مفهوم الحكاية الى الليلة الى المسامرة الى الحديث القصصي ٠

٢-٢-٢ الحكـايـة :

ويطلق عليها القصة أحياناً ، فهي سردلأحداث لا يشترط فيه اتقان الحبكة ، ولكنه ينسب الى راوٍ ، وتكمن في حكاية الاحداثواثارة الاهتمام ، ولا يشترط فيه أن تتعمق في الكشف عن خبايا النفس أو أن تبرع فيرسم شخصياتها • والمهم في الحكاية هو السرد المنسوب الى راوٍ ولو أخـذ مـن التاريخ أو الواقع مباشـرة باسناد والحكايات كثيرة في التـراث القصصي العربي ، وقـد تفـردتحكايات ببراعتها واتقانها ودراميتها كمـا في القصص الرمزي مثل حكاية الأسد والغواص،لمؤلف مجهول مـن القرن الهجري الرابع أو الخامس ، وهي تعرض من خلال علاقة الأسدوالغواص قضية السلطة والمثقف ، ويستعين الراوي على جـلاء جوانب هـذه القضيـةبحكايات أصغر وأمثلة وحكم وحوارات تناسب الصفوة المثقفـة •

يناقش المؤلف المجهول في الأسـد والغواص ، مشكلة السياسـة والحكم مـن خـلال المجلس أو المسـامرة أو الحكايـة ويروي فيأحاديثه حكايات وقصصاً على أسلوب القصة داخل القصة • وقد وضع المؤلف حكايته في ثوب رمزي في اهـاب الحيوانات بقصد بث الحكمة العربية والفكر السياسي العربي فيعصره • وتتميز الأسـد والغواص ، بوضوح الشخصيات ووضوح الفعل وتوالي الوحداتالوظيفية في تحفيز يعنى بدواخل الشخصيات وتبادل التأثير بينها وبين الفعل الذي تواجههوتعنى الحكايـة بالسرد والمنظور السردي اذ تتجلى وجهـة النظر على الرغم مـن الثوبالرمزي عن طريق قوة الحوار وغناه الفكري، وعن طريق وحدة الزمان والمكان الذي يتيحه مجلس الملك والحبس حيث تـدور الأحداث وتتوالى الأمثال والأخبار والوقائع(١٦) •

٢-٢-٣ النادرة والطرفة والملحـة :

وهي شكل بسيط للحكاية ، أو هي لا تخلو مـن حكاية وسـرد وغالبـاً ما يتضمن ضوءاً على خفايا الأمور أو نفسية البشر وانتميزت بالطرافـة والتسليـة وتأخـذ شـكل الحديث الوجيز اللماح أحيـاناً الذي يقتربمن تخيل الواقعة أو الحادثة التي تستند اليها النادرة أو الطرفة أو الملحة ويعتنيهذا الشكل بالأشخاص المعروفين على الغالب كنوادر جحا ونوادر أبي نواس •

أما الطرائف والملح فهي أكثر من أن تحصى وثمة تصانيف معروفة في هـذا المجال مثل (قصص العرب) لمحمد أحمد جـاد المولىورفاقه(١٧) وألف حكاية وحكاية مـن الأدب العربي القديم ، لحسين أحمد أمين(١٨) وهذهالتصـانيف لا تعنى بالشـكل القصصي بـل تختار طرائف وملحاً في موضوعات شتى •

٢-٢-٤ المقـامـة :

ويتضح في المقامات الشكل القصصي أكثر مـن بقية الأشكال السالفة وقـد قصـد مؤلفوه الى غايات لغوية واضحة ما لبثت أناستوعبت عرض الأفكار ونقد المجتمع مـن

خلال حكايات المكدين بالدرجة الأولى الذين ظهروا في حمأة التباين الطبقي والفوارق الاجتماعية وقسوة المجتمع في عصر المقامات منذ القرن الرابع الهجري، ومن أبرز أعلامها الهمذاني والحريري ثم ظلل المقامة شكلاً قصصياً حتى العصر الحديث (كتب عبدالسلام العجيلي وحسيب كيالي في سورية مقامات كثيرة في الأربعينات والخمسينات والستينات) .

تنهض المقامة شكلاً قصصياً بل جنساً قصصياً متكاملاً لوفرة عناصر القص فيها وقابلية رؤية العالم والمصائر الانسانية بالمعنى الأعم على الرغم من غلبة الأحاديث الأدبية واللغوية على تركيبها فهي تساق على نمط حكاية لأحد الرواة في جماعة من الناس والقالب القصصي فيها واضح لا يخلو من تشويق وامتاع .

وعلى الرغم من النظرة السائدة اليها كنوع من القصص اللغوي فان امكاناتها الدرامية والحكائية والسردية قد لفتت اليها الأنظار مع مطلع عصر النهضة ، فكانت جسراً الى أشكال قصصية حديثة أولاً ، وظلت شكلاً قصصياً مقبولاً يمارس بجسارة ثانياً، واستلهمت اعداداً واقتباساً واستعادة في فنون درامية واعلامية كثيرة في المسرح ووسائل الاتصال الأخرى بالجماهير ثالثاً .

وتحفل المقامة اضافة الى هذا كله بروح السخرية والدعابية المريرة التي تجعل نقدها الاجتماعي والسياسي أقرب الى المعطى الانساني في رؤية العالم .

٢ـ٢ـ٥ الخبر :

عني الباحثون والنقاد العرب بفن الخبر على أنه مقاربة لفن القصة مقايسة للقصة القصيرة في معمارها الغربي ، ثم ما لبث النقد العربي الحديث أن طور أدواته ونظرته ومفاهيمه، فكانت النظرة الى فن الخبر على أنه فن قصصي وعلى المرء في هذا المنحى ، أن يميز بين الأخبار ، وأن يبحث في فنيتها ومنظومتها السردية والحكائية والدرامية ، وأن يمحص أغراضها والتجربة الكامنة فيها من خلال منظوراتها السردية والقولية ويستفاد من هذه الاشارات أن فن الخبر مرهون بنوعيته وصياغته وتخييله ، أي أن ثمة عناصر قصصية تجعل الخبر فناً قصصياً وفي مقدمتها توهم الحقيقة عن طريق السند، فهو رواية على رواية ، والاندغام بالحديث السردي عن طريق تداخل الخيالي بالتاريخي، مادة الخبر ، وقابلية المحاكاة ، ووضوح وجهة النظر ضمن النسق الحكائي ، وهذا يعني أن فن الخبر أوجز سرداً وأكثف عبارة، وأكثر تلميحاً ، واذا كانت القصة تحكي عن حياة راهنة ممتدة الى الماضي أو المستقبل ، فان الخبر يحكي عن حياة في حساب الماضي . ثم ان الخبر يبدو مبنياً على مستوى واحد، بينما القصة تتركب من مستويات متعددة ، أي أن الخطاب الخبري موصول بمتلقيه أكثر من الخطاب القصصي ، ويفضي هذا الى أن الخبر يضيق مسافة النظر حيث يباشر السارد وظائفه أو أغراضه ، وهي غالباً وظائف ابلاغية وانتباهية واستشهادية وايديولوجية اذ يدخل في سرد الخبر عناصر تتعلق بمصدر الخبر أو التعليق عليه ، أو توجيهه مباشرة ، أو التركيز على مغزى صريح(١٩) .

٢ـ٣ ـ عناصر القص في التراث القصصي العـربي :

بدأ البحث في عناصر القص في التراث العربي مـن منطلق توكيد أن العرب عرفوا فن القصة قديماً ، فكانت عمليات اخضاع أشكال القصة العربية القديمة لمألوف القول في فهم القصة في معمارها الغربي ، وكانت مظـاهر الرفض والتردد في قبـول المعرفـة العربية القديمة لفن القصة لأن المقياس كما لاحظنا هو معمار القصة القصيرة الغربيـة ، ولدى البحث المتأني والمتقصي لألوان القصة العربية في التراث وجد الباحثون عناصر قص تميز كثيراً من الألوان القصصية العربية عـن الأجناس القصصية والأدبية الأخرى، نوجزها فيمـا يلي :

٢ـ٣ـ١ الحكـائيـة :

تبدو القصص العربية القديمة مشحونة بفيض حكائي يشمل تركيب الشكل القصصي كله ، وغالباً ما يكون المبنى الحكائي متماثلاً في اعتماده على المزج بـين الواقع والخيال أولاً ، ومباشرة القصد ثانياً ، وكسر الايهام مـن خلال تدخل الراوي أو السارد ثالثـاً ، فيتحول السرد برمته الى نسق مباشر ، وتظهر هـذه الخصائص في الحكايـة وفي الخبر وفي المقامة أيضـاً .

٢ـ٣ـ٢ السـرد :

غالباً ما يكون السرد مباشراً في التراث القصصي العربي بحكم انبثاقه من الخرافات والأساطير العربيـة القديمة ، وبحكم الحاح السارد على المغزى والتصريح به ، والمعول في عملية السرد دائماً هو السارد أو القاص نفسه، وثمة تماه واضح بينهما في غالبية النصوص وهذا ما يجعل السرد يميل الى الخطابيـة والايجاز وعلو صوت القاص في تنظيم السرد ، فتكثر الأحكام أثناء ايراد الوحدات الوظيفية ، بل ان هذه الأحكام سرعان ما تحل محل التحفيز، وتستعيض عن تنظيم الحوافز بايجاز القول أو ذكر الحكمـة ، فيحكى عـن الصراع أو الفعل دون عرضه ، ومرد هذا الى دور القاص المتعاظم في السرد .

٢ـ٣ـ٣ الراوي :

الراوي هو السـارد ، وهو صريـح ومستقل، ولا سيما في الخبر والحديث القصصي، أي أنه وهو الغريب عما يروى تاسباً الأحداث الى ضمير غائب ، فانه يكشف عـن نفسه ، ويكسر التوهم أو الايهام مشاركاً المتلقي فيمايجري ، وهي مرحلة تعرفها غالبية الفنـون البدائية ، وتحاول أن تستعيدها بعض الفنون المعاصرة عبثـاً .

ان الراوي جزء من فن المشاركة ، وما يزال « الحكواتي » اليوم في البيئات الشعبية العربية ، وفي أشكال المسرحة البسيطة راوياً يستأثر بالسرد ، بمعنى أنه عارف بكل شيء عن سرده ، مما يجعلها تحمل وجهة نظره قبل أن تحفل بحاجات المنظور السردي .

٢ـ٣ـ٤ الشخصيـات :

لا يغفل القص العربي القديم الشخصية، ويهتم من جهة أخرى بنواياها ونمو أفعالها واضاءة تصرفاتها وسلوكها وارادتها بقدرمتفاوت من النجاح ، وقد ارتبطت الشخصية على الدوام بأفعالها ، وما لحقها من فكرة الجزاء أو الثواب والعقاب،أو تثبيت المنظومة القيمية الأخلاقية حول انتصار الخير على الشر ، بل ان قصصاً متقدمة يترك فيها الفعل كله للشخصيات لتقرر ما تفعله في مواقف واضحة ٠

وعندما يسرد القاص عن شخصية واقعية أو تاريخية ، فانها تغدو تأليفية متخيلة يصوغها القاص على مقدار فعلها ومعرفتها ،وليس يخفى أن التراث القصصي العربي حافل بالمعلومات والمعارف التي تطرحها الشخصيات وتتمثلها أو تتبناها أو تدافع عنها ٠

٢ـ٣ـ٥ التشويق :

حرص القاص العربي القديم على التشويق وامتاع متلقيه فيما يروى أو يسرد ، وعلى الرغم من الطابع الأخلاقي والتعليمي الغالب على الحكايات ، اذ نجد حجماً هائلاً من القصص الديني وقصص الكرامات والمعجزات ، فان تنوع مجالات القصص وموضوعاته جعل القصة مقبولة شعبياً وجماهيرياً فصارت لها المجالس والحلقات والاجتماعات التي تطورت عن عمل القصاصين في الجوامع والمساجد ٠

٣ ـ نقد الفهم السائد للتراث القصصي العربي :

عاني ، كما لاحظنا ، التراث القصصي العربي من سوء الفهم لفترة طويلة منذ مطلع عصر النهضة وحتى أواخر الخمسينات عندماارتبط البحث في الهوية القومية وتحقيق الذات بعمليات التأصيل الشاملة في الفنون والأدب وما رافق ذلك من مد قومي تحرري تقدمي أنجز الاستقلالات العربية من الاستعمار، وخاض معارك البناء والتنمية في كثير من الأقطار العربية ، كان الفهم السائد أن العرب لم يعرفوا فن القصة ، وان القصة فن مستحدث بتأثير الصحافة والترجمة ، وتوقفت اشارات الباحثين والمستشرقين عند التسليم المطلق « بأن العرب لم يعرفوا في نثرهم الاهذه الأشكال الساذجة : سجع وأمثال وخطب في الجاهلية ، ورسائل ديوانية واخوانية الى جوار اتساع في الخطابة في العصر الأموي ، فاستمرار الرسائل الديوانية في العصر العباسي فمجموعة من المقامات والرسائل بعد هذا النثر »(٢٠) ٠

فكانت الدعوة هي المزيد من الترجمة ونقل الآثار القصصية كجزء من عملية تحديث المجتمع العربي والفكر العربي أو تغريبهما لا فرق ٠ وساعد على هذا المناخ اطمئنان شيوخ الأدب العربي الحديث كطه حسين وأحمد أمين وعباس محمود العقاد وسواهم الى أحكام المستشرقين أو ايثار السلامة وعدم الخوض في مجاهل التراث الشائكة والغنية(٢١) ٠

٣ـ١ مصادر الفهم السائد للتراث القصصي العربي :

ولعلنا نجد مصادر هذا التكريس لهذا الفهم السائد للتراث القصصي العربي ومظاهره فيما يلي :

٣ـ١ـ١ الاستشـراق :

لقد كان الاستشراق ، وما يزال محكوماً بغاياته ويتفق معظم المثقفين العرب « أن الغرب تصور الشرق ودرسه تطوراً عرقياً ، فوقياً ، متحدراً في القوة واتحاد القوة بالمعرفة، والانشاء الذي ولده ذلك كله ٠

وان الشرق لم يكن في وعي الغرب ، الآخر الخارجي فقط ، بل امتداداً أيضاً للشاذ والمنحرف والمجنون ، والمستضعف داخل الغرب: للآخر الداخلي أيضاً»(٢٢) ٠ لا شك ، أن الاستشراق قد مرّ بمراحل متعددة ، منذ نشوئه في مطلع القرن الرابع عشر ، اذ يؤرخ عادة لبدء وجود الاستشراق الرسمي بصدور مجمع فيينا الكنسي عام ١٣١٢ بتأسيس عدد من كراسي الاستاذية في العربية والعبرية والسريانية في جامعات باريس واكسفورد وبولونيا وأفنييون وسلامانكا(٢٣) ، الى انكشاف أدواره من جهة ، وتعديل أهدافه وغاياته من جهة أخرى ، عندما ارتهن في العقود الأخيرة بالتبادل الثقافي وحوار الثقافات ، والذي لم يكن مبرأ دائماً ، ولكن هذه المراحل جميعها ما زالت تعاني من ارتباطه الوثيق بالسلطة ، أي خضوع المعرفة للسلطة وهي استعمارية في الغالب الأعم كما بين ادوار سعيد في دراسته الشاملة عن الاستشراق ٠ ولذلك فان الجواب حقاً على الاستشراق هو وعي الذات أولاً ، والتخلص من فهم الآخر المتسلط والمهيمن والمدعوم بالقوة التي يمثلها هذا الآخر ٠ وان تخلص الهوية من أسر نظام فكري مجحف وممتد ساهم الاستشراق بارسائه بالدرجة الأولى ٠ ليس المطلوب معرفة مناهضة للاستشراق ، لأن المهم هو بناء الذات وسبيلها الأوضح هو معرفة جديدة للذات والآخر بمعزل عن أوهام السلطة والهيمنة التي يمثلها الغرب ، وقد قال ادوار سعيد في ختام دراسته: « واذا كان لمعرفة الاستشراق من معنى ، فانه ليكمن في كونها تذكيراً بالانحلال الاغوائي للمعرفة ، أي معرفة، وفي أي مكان، وفي كل زمان»(٢٤) ٠ ومن المؤسف، أن الدراسات الاستشراقية حول التراث القصصي العربي لا تشير في مسار تنمية الثقافة في مجتمعات متغيرة تبحث عن أصالتها ، وثمة اشارات كثيرة تعزز الرأي القائل حول التقليل من شأن القص العربي القديم أو اهماله لدى غالبية المستشرقين الذين عنوا بهذه الموضوعات ٠

٣ـ١ـ٢ الانبهار بالغرب وسرعة التلقف :

فهم التحديث خطأ بانه تقليد الغرب ، واستمرت هذه العقدة الى وقت متأخر ، وقد نماها الانبهار بالغرب تقنياً وعلمياً وثقافياً ونموذجاً حضارياً بعد ذلك ، وظهرت موجة كبيرة من المثقفين التي وسمت بسرعة التلقف لموضوعات الغرب الثقافية والأدبية ، وصار تقليد الأشكال الغربية في الآداب والفنون علامة حداثة برأيهم، ومايزال، مثل هذا الانبهار

والتلقف في الرطانة بالمصطلحات الأجنبية بلفظها السبب ودون سبب ، وفي الترويج لاتجاهات خارجة عن التطور التاريخي للآداب والفنون القومية ، ولا تلبي التطلع المشروع لتحديثها ، وفي هجانة التطبيق المناسب وغير المناسب للمناهج النقدية والأدبية ، ويقال مثل هذا ازاء الوجودية في الخمسينات والنزعات العدمية والعبثية واللامعقولة في الستينات ٠٠ الخ ٠٠٠

ويقال مثل هذا ازاء قصيدة النثر والقصيدة الألكترونية في الشعر ، والتجريب المتعمد وأشكال الكتابة المفتوحة ونفي الأجناس من خلال ما يسمى نزعة التشويه أو ما يسميه بعضهم « ابداعاً » أو كتابة أو « نصاً » دون انتمائه الصريح الى جنس أدبي ٠٠ الخ ٠٠٠ وهذا واضح في القصة والرواية والمسرح وغيرها ٠

٣ـ١ـ٣ الفهم النقدي والتعريفي :

لم يهتم المشتغلون بنقد القصة العربية الحديثة بالتراث القصصي العربي الا متأخرين على الرغم من أن ظاهرة التعريف بالقصص العربي قد شهدت عناية ملحوظة في الثلاثينات عندما أصدر محمد أحمد جاد المولى ورفاقه « قصص العرب » ٠ ان هذا الجهد الذي ستتلوه جهود أخرى مماثلة ، تعريفاً ونقداً ومختارات مماثلة ، مميز ومفيد ، ولكنه ساعد أيضاً على تكريس الفهم السائد للتراث القصصي العربي ٠

دافع جاد المولى ورفاقه عن وجود القصة عند العرب ، فاعترفوا للعرب بالقصص التي ترجموها عن الفرس والهنود ، وتزيدوا عليها في القاهرة وبغداد ، وتحدثوا للناس عن قصص عنترة وذات الهمة ، وحلوا عليهم ألف ليلة وليلة وأخبار ابن ذي يزن » ٠

ولاحظوا أن « هذه القصص ، وان كانت قد نجحت نجاحاً تاماً في تصوير العصور التي وضعت فيها ، ورسمت لنا البيئة التي ثبتت فيها ــ كثير منها تافه الفرض مبهم القصد رديء الأسلوب ، وفي قصر العرب عليها جحد للآداب العربية فضلها وانكار عليها مفاخرها ٠٠ والا فان هناك قصصاً زخرت بها مجالس الخلفاء وسوامر الأمراء ، وملأت الكتب التي انحدرت الينا عن المؤلفين القدماء ، وما منع الناس أن يردوا شريعتها ، أو يجنوا أطايبها الا ما منيت به هذه الكتب من اضطراب الترتيب ورديء الطبع وتحريف الناسخين » ٠

ثم أوضحوا فهمهم للقصة فوجدوها « طريف الأخبار شائق الأحداث ، مصورين المجالس والأشخاص ، ما صنعوه على ألسنة الطير والحيوان ، وما تخيلوه من أخبار الشياطين والجان ، اذ كان الغرض تثقيف الأذهان بذكر الطرائف وانشراح الصدور بعرض اللطائف مع كشف نواحي التاريخ ، واظهار مفاخر العرب »(٢٣) ٠

أما السلسلة المعروفة التي أصدرتها « دار المعارف » بالقاهرة حول فنون الأدب العربي ، فقد خصّوا « الفن القصصي » بالأنواع التالية : المقامة ، التراجم والسير ، الرحلات ، الترجمة الشخصية ، الملحمة ، القصة ، الحكاية والأقصوصة ٠ ولدى قراءة هذه الكتب ، نلاحظ أن المؤلفين ومنهم شوقي ضيف ومحمد عبدالغني حسن ، لم يعنوا بانتماء الرحلة الى الفن القصصي وكذلك الترجمة الشخصية أو التراجم والسير،

فلا غرو أن ينتشر التداخل في فهم القصة وأن ينسب اليها فنون قد لا توافي عناصرها أو طبيعتها التعبيرية واللغوية والخطابية ·

ثم كان جهد موسى سليمان في مجلداته الخمسة عن « الأدب القصصي عند العرب » المجلد الأول « دراسة نقدية للقصص العربي في جميع أنواعه وألوانه » والمجلدات الأخرى « مختارات من القصص العربي الدخيل والأصيل » ·

يقرر موسى سليمان « أن العرب عرفوا القصة ويعرض لآراء بعض الباحثين والمستشرقين ويفندها ، ويوزع القصص العربي الى قصص دخيل أو منقول » وهو الذي اقتبسه العرب عن غيرهم اقتباساً « وقصص موضوع أو عربي صميم » ، وهو من وضع العرب ، ومن نماذج المنقول « كليلة ودمنة » و « هزار أفسانه » عن الفارسية ، و « سندباد الكبير والصغير » و « ألف ليلة وليلة » أو بعض حكاياتها عن الهندية ، أما القصص اليوناني « فلم يترجم منه شيء يستحق الذكر كما تقدم معنا » ·

والقصص الموضوع موزع الى القصص الاخباري ومنه الحكايات الغنائية ، والقصص البطولي ومنه سيرة عنترة ، والقصص الديني ، ومنه قصة آدم وقصص الأنبياء ، والقصص اللغوي ، ومنه المقامات ، والقصص الفلسفي ومنه « رسالة التوابع والزوابع » و « رسالة الغفران » و « حي بن يقظان »(٢٥) ·

نظر موسى سليمان في التراث القصصي العربي القديم اعتماداً على المصادر القديمة، حسب شكلها حيناً كالقصص الاخباري، وحسب موضوعها حيناً آخر كالقصص البطولي أو الديني ، وحسب ما يغلب عليها من غرض حيناً ثالثاً، كالقصص اللغوي بينما هو مقامة، والقصص الفلسفي بينما هو حكاية أو مسامرة أو حديث قصصي ·

ولا شك أن مثل هذا الفهم النقدي والتعريفي لا يراعي فهم القصة وعناصر القص ، ولا يتابع الشغل النقدي الحاصل في ميادين دراسة هذا التراث ·

٣ـ٢ نظرة جديدة للتراث القصصي العربي :

لقد لاحظنا أن التقاليد الأدبية في مجال القصة (الأصول الأولى للقص والرواية العربية) لم تعد موضع جدل من حيث وجودها أولاً ، ومن حيث قيمتها الفنية والفكرية ثانياً ، ومن حيث الاعتراف بمراحل تشكل علم الحكاية أو علم القص في نماذج دالة ثالثاً، ولم تعد نظرات غير متفهمة، أو لا تريد أن تتفهم التراث القصصي العربي ، في موضعها المفيد من دراسة التراث على وجه العموم ، كأن تسمع أو تقرأ مقولة للمستشرق رينان تقول ان العقلية العربية مباشرة لا تستطيع التركيب وهي بهذا لا تستطيع أن تبدع العمل القصصي ثم يرددها بعض شيوخ الأدب العربي كأحمد أمين على سبيل المثال ، أو أن تسمع أو تقرأ أن ما عرفه العرب من العمل القصصي مجرد مجموعة من الأخبار والطرائف التي لا فن فيها ولا حرفية فنية ، قياساً على ما عرفوه من فن وحرفية في أشكال القصة والرواية والمسرحية المنقولة عن الغرب، ثم يردد غالبية الباحثين والمثقفين العرب هذه الآراء على أنها مسلمة مطلقة حتى نهاية الخمسينات(٢٧) ·

ان نظرة جديدة تقوم الآن في التعامل مع التراث القصصي العربي ويمكننا أن نحدد تجلياتها في الظواهر التالية :

٣-٢-١ تراجع النظرة الغربوية للتراث :

يشهد الأدب العربي المعاصر ، والثقافة العربية الحديثة على وجه العموم تطوراً في فهم تراثهم وتقاليدهم الأدبية ، فقد أدرك حشد من المبدعين والنقاد الامكانات الكبيرة لفن القص العربي ، والخصائص المميزة التي تسهم في طبع المعاصرة بهوية عربية خاصة • ويقرر نفر من المثقفين المستغربين أيضاً أن العرب « ليسوا في حاجة الى اعتماد الحداثة الغربية ، لأن هذا يؤدي فقط الى الاغتراب والى استمرارات التوترات الداخلية » ملاحظين أن التحديث أو العصرنة لا يقوم على نقل الحداثة ، وعلى العرب المعاصرين « ابداع معاصرتهم العربية الخاصة • وهذا هو التحدي الذي يجب أن يقبلوا به ، اذا أرادوا أن ينهضوا ، وأن يكون لهم اعتبار » • وقد برهنت عقود الأخذ عن الغرب عن تكريس الضعف في أعقاب قرون عديدة من الركود والخضوع الفعليين « فكانت الأصالة قوة عندما تسترجع وتثبت أهليتها في بحث مستمر هو تركيب جديد ، تنصهر فيه العناصر الحية في الموروث العربي الاسلامي مع العناصر الهامة في الثقافة المعاصرة بحيث ينتهي الأمر الى ابداع معاصرة عربية متكاملة عضوياً »(٢٨) •

ويعترف الآن غالبية المشتغلين بالقصة العربية بالمسار الذي قطعه — القص العربي — في رحلته من التقليد والتأثر بالرواية الأجنبية الى مرحلة التشكيل الخاص المستمد لعناصره من التراث ومن المرددات الشعبية والأمثولات الدينية والفلسفية (٢٩) •

واستند هذا الانجاز الى الوعي بأهمية التأصيل استجابة للتغير الثقافي وقوة التقليد في عمليات التحديث المنتشرة في الأجناس الأدبية كافة ، قد سجل تراجع النظرة الغربوية للتراث اخفاق مقايسة القص العربي القديم لأشكال قصصية مختلفة نمت وتكونت في سياقات مختلفة •

٣-٢-٢ فكرة التقدم والحوار الثقافي :

لقد نشأت في العقود الأخيرة بفعل التطور الثقافي الذاتي والتفاعل الثقافي بين الأبنية الثقافية الموروثة للمنطقة والثقافة العربية الحديثة ، والتفاعل الثقافي بين الثقافة العربية وثقافات الأمم القديمة والوسيطة والحديثة (٣٠) نظم معرفية أدت الى أبنية ثقافية لا تركن لوهم الخصوصية وحده ، أو وهم العصرنة وحدها •

وقد ناهضت هذه النظم نزعة الاستعلاء الثقافي فاعترف بقيمة عناصر القص العربي ، ليس في تجربة القصة العربية الحديثة فحسب ، بل في أساليب القص العالمية أيضاً ، بل أن نقاداً جدوا اليوم في تصنيف المكونات الفنية والعربية والأجنبية في القصة العربية الحديثة (٣١) ، فثمة أشكال أو عناصر قص عربية يستفاد منها الآن في تحديث القصة العالمية كما هو الحال مع فن الخبر العربي وفن « الليالي » العربية على سبيل « القصة داخل القصة » أو « القصة الجامعة » (٣٢) •

ان باحثة المانية ، هي روتر أودفيلانت، ختمت بحثها عن « صورة الأوربيين في أدب المسرح والقصة العربي الحديث » بالعبـارة التاليـة :

« واذا أراد الأوربيون جدياً أن يضعوا أساساً علمياً للتفاهم مع العرب في المستقبل ، فعليهم أن يكفوا نهائياً عن التكبر السياسي والاستعلاء الثقافي ، وكلاهما كانا فيما مضى ركيزة الاستعمار الحديث »(٣٣) ٠

هل أصبحنا متكافئين ، ثمة من يرى أنداجب أن نجعل من هذا الوهم حقيقة ان لم يكن كذلك ٠ ان الكثيرين يؤكدون في أبحاثهم وفيواقع حصيلة التفاعل بـين الثقافتين العربية والأوربية ، « أن الثقافـة الاوربية وبصورةخاصة الأدب الأوربي ، وبصورة أخص القصة الاوربية تأثرت تأثراً واضحاً وموثقاً بالقصص العربيـة النشاة »(٣٤) ٠

أجل ، ان مثل هذا الجدل عقيم فالمرء عندما يبحث في أصالة ثقافته وأدبه ، فانما يسعى الى أصالة الثقافة عموماً ، وقد أشاع الحوار الثقافي بين الأمم ، وهو انجاز حديث صراحة أو من خلال تمثل المبدعات الأدبية أن فكرةالتقدم في أساسها ثقافيـة ، وان فائدة كـل تطبيـع لجنس أدبي نشأ في الغـرب لا تعطي ثمارها الا اذا كانت امتداداً للأساليب التراثية في الوقت نفسه ، وهـذا في جوهره النظـرةالجديدة التي انتشرت منذ قرابة ثلاثة عقود مـن الزمن الى التراث القصصي العـربي ٠

* * *

□ هوامش واحـالات :

١ ـ طبع هذا الكتاب لاول مرة عام ١٩٥٩ بالقاهـرة ، ثم توالت طبعاته الكثيرة عن دار العودة بـيروت ، بـدءاً مـن عام ١٩٧٥ ٠
ونذكر من امثلة هذا الكتاب :
ـ القباني ، حسين : فن كتابة القصة ـ الدار المصرية للتاليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٦٥ ثم أعاد موجزاً له أو بعض فصوله في
ـ مكي ، الطاهر أحمد : القصة القصيرة ـ دراسة ومختارات ـ دار المعارف ـ القاهرة الط ١٩٧٨ ٠
ـ مريدن ، عزيزة : القصة والرواية ـ دار الفكر ـ دمشق ١٩٨٠ ٠

٢ ـ شلوفسكي : بناء القصة القصيرة والرواية ٠ ضمن « نظرية المنهج الشكلي ـ نصـوص الشكلانيين الروس » ـ (ترجمة ابراهيم الخطيب) ـ الشركة المغربية للناشرين المتحدين ـ الرباط ومؤسسة الأبحاث العربيـة ـ بـيروت ١٩٨٢ ـ ص ١٢٢ ٠

٣ ـ قاموس مصطلحات الأدب ـ في صفحات متعددة : (٥٣٨ ـ ٥٦٢ ـ ٤٦١ ـ ١٠ ـ ٣٩ ـ ٣٢٠ ـ ٣٥٦ ـ ١٧٠ ـ ٠٠ الـخ ٠٠٠) ٠

٤ ـ شولز ، روبرت : عناصر القصة (ترجمة محمود منقذ الهاشمي) دار طلاس ـ دمشق ١٩٨٨ ص ٩ ـ ١٣ ٠
٥ ـ عناصر القصة ص ١٤ ـ ١٦ ٠

٦ ـ ويليك ، رينية (واوستن وارين) : نظرية الادب (ترجمة محي الدين صبحي) ـ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ـ دمشق ١٩٧٢ ـ ص ٢٨١ .

٧ ـ اوكونور ، فرانك : الصوت المنفرد ـ مقالات في القصة القصيرة ـ (ترجمة محمود الربيعي) ـ الهيئة العامة للتاليف ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٠ .

٨ ـ ابراهيم ، نبيلة : قصصنا الشعبي من الرومانسية الى الواقعية ـ دار العودة ـ بيروت ودار الكتاب العرب ـ طرابلس ـ ١٩٧٤ ص ٢٥ ـ ٢٦ .

٩ ـ نظرية الادب ـ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

١٠ ـ القصة القصيرة ـ دراسة ومختارات ص ٧٧ ـ ٧٨ .

١١ ـ انظر كتاب : نظرية المنهج الشكلي ـ ص ٦٨ وانظر ايضا مقالتنا القصة القصيرة العربية وقضية الايصال ـ ص ١٧٠ .

١٢ ـ القصة القصيرة العربية وقضية الايصال ـ ص ١٧ ـ ٧٢ ، انظر ايضا :
ـ سمعان ، د. انجيل بطرس : وجهة النظر في الرواية المصرية ـ في مجلة « فصول » ـ القاهرة المجلة ٢ ـ العدد ٢ ١٩٨٢ ـ ص ١٠٦ ـ ١٠٨ .
ـ بارت ، رولان : النقد البنيوي للحكاية (ترجمة انطوان ابو زيد) ـ منشورات عويدات ـ بيروت ـ باريس ١٩٨٨ ص ٨٩ ـ ١٤٨ .
ـ المقدسي ، انطون : مقاربات من الحداثة (حواره مع عادل يازجي) في مجلة « مواقف » بيروت العدد ٣٥ ربيع ١٩٧٩ ـ ص ٢ ـ ٦٠ .

١٣ ـ الشمعة ، خلدون : المنهج والمصطلح ـ مداخل الى أدب الحداثة ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٩ ـ ص١٠٢ .

١٤ ـ في الرواية العربية ـ عصر التجميع ص ٨٨ وما بعدها .

١٥ ـ دياب ، عبد الحي : عباس العقاد ناقدا ـ المكتبة العربية ـ التاليف ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٦ ـ ص ١٠ .

١٦ ـ السيد ، رضوان (تحقيق) : حكاية الأسد والغواص ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ ١٩٧٨ .
وانظر ايضا تحليل علي عقلة عرسان لامكانات الأسد والغواص الدرامية في كتابه :
ـ عرسان ، علي عقلة : الظواهر المسرحية عند العرب ـ الط ٣ ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٨٥ ص ٢١٠ وما بعدها .

١٧ ـ جاد المولى ، محمد احمد (ورفاقه) : قصص العرب ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ الط ١ القاهرة ١٩٣٩ ـ الطبعة الجديدة وفيها زيادة وضبط وشرح وتحقيق ـ القاهرة ١٩٧١ .

١٨ ـ أمين ، حسين احمد : الف حكاية وحكاية من الادب العربي القديم ـ المائة الأولى ـ دار الشرق ـ بيروت ١٩٨٤ .

١٩ ـ من أهم الأبحاث التي عالجت فنية الخبر :
ـ النص الأدبي : مظاهر وتجليات الصلة بالقديم ـ مصدر سابق .
ـ حماد ، محمد : الكتابة القصصية في القرن الثاني ـ في مجلة « المناهل » ـ الرباط ـ العدد ٣٠٠ تموز ١٩٨٤ ـ ص ٣١١ وما بعدها .
ـ فن الخبر في تراثنا القصصي ـ مصدر سابق .
ـ محمد ، محمد سعيد : القصة الأدبية والخبرية ـ في « المجلة العربية للعلوم الانسانية ـ الكويت » العدد ١٢ خريف ١٩٨٢ ـ ص ٨٥ ـ ١٣٣ .
ـ مجموعة مؤلفين : دراسات في القصة العربية ـ وقائع ندوة مكناس ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت ١٩٨٦ (أبحاث توفيق بكار وعبد الفتاح كيليطو) .

٢٠ ـ في الرواية العربية ـ عصر التجميع ـ ص ١٦ •

٢١ ـ سليمان ، موسى : الأدب القصصي عند العرب ـ جـ ١ ـ دار الكتاب اللبناني ـ مكتبة المدرسة ـ بيروت ١٩٨٣ •

٢٢ ـ سعيد ، ادوار : الاستشراق : المعرفة ـ السلطة ـ الانشاء (ترجمة وتقديم كمال أبو ديب) ـ مؤسسة الابحاث العربية ـ بيروت ١٩٨١ ص ٦ •

٢٣ ـ الاستشراق ـ ص ٨٠ •

٢٤ ـ الاستشراق ـ ص ٣٢٥ •

٢٥ ـ قصص العرب ـ جـ ١ ـ ص ـ ٤ ـ ٥ •

٢٦ ـ الأدب القصصي عند العرب ـ ص ٥ ـ ٢٥ ـ ٢٨ •

٢٧ ـ خورشيد ، فاروق : بحث في الأصول الاولى للرواية العربية ـ ضمن كتاب (الأدب العربي : تعبيره عن الوحدة والتنوع ـ بحوث تمهيدية) (تحرير عبد المنعم تليمة)مركز دراسات الوحدة العربية ـ جامعة الأمم المتحدة ـ بيروت ص ٨٧ ـ ٨٨ •

٢٨ ـ بلاطة ، عيسى : (التغيير الثقافي ، الابداع والاصالة) ضمن كتاب (العقد العربي القادم : المستقبلات البديلة) ـ مركز دراسات الوحدة العربية ومركز دراسات العربية المعاصرة في جامعة جورجتاون ـ بيروت ١٩٨٦ ـ ص ١٨٥ ـ ١٩٩ •

٢٩ ـ براده ، محمد : (الرواية العربية المعاصرة : استشراف لآفاق التطور المستقبلي) ضمن (الأدب العربي تعبيره عن الوحدة والتنوع) ـ ص ٣٠٧ •

٣٠ ـ تليمة ، عبد المنعم : في الأدب العربي ـ تعبيره عن الوحدة والتنوع ـ ص ١١ •

٣١ ـ غزول ، فريال جبوري : المنهج والمصطلح ص ١٦٩ ـ ١٧٠ •

٣٢ ـ انظر ايضا : المنهج والمصطلح ـ ص ٨٨ ـ ٨٩ •

٣٣ ـ فيلاندت روتراود : صورة الاوروبيين في أدب المسرح والقصة العربية ـ بيروت ١٩٨٠ (باللغة الالمانية) مع خلاصة باللغة العربية ص ٦٥٣ •

٣٤ ـ غزول ، فريال جبوري : نفسه ـ ص ١٩٩ •

★ ★ ★

رسالة في بيان مذاهب التصوّف

لأبي حفص عمر بن محمّد النسفي السّمرقندي

تحقيق وتقديم :
علي أكبر ضيائي

□ المؤلـف :

أبو حفص نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد بن اسماعيل النسفي ، عالم بالتفسير والحديث والأدب والتاريخ وعلم الكلام ، من فقهاء الحنفية وكان يلقب بمفتي الثقلين ، ولد بنسف حدود سنة ٤٦١ هـ واليها نسبته ونسف هي نخشب من بلاد ما وراء النهر(١) .

وكان صاحب فنون ، ألّف في الحديث والتفسير وغيرهما وله نحو مائة مصنف ، حجّ وسمع ببغداد من أبي القاسم بن بيان في الكهولة(٢) .

وسمع أبا محمد اسماعيل بن محمد النوحي النسفي وأبا اليسر محمد بن الحسن البزدوي وأبا علي الحسن بن عبدالملك النسفي ومهدي بن محمد العلوي وعبدالله بن علي بن عيسى النسفي وحسين الكاشغري وأبا محمد الحسن بن أحمد السمرقندي وعلي بن الحسن الماتريدي .

وروى عنه عمر بن محمد بن العقيلي ومحمد بن ابراهيم التوربُشتي وولده أبو الليث أحمد بن عمر وغير واحد(٣) .

قال السمعاني : « وأما مجموعاته في الحديث فطالعت منها الكثير وتصفحتُها ، فرأيت فيها من الخطأ وتغيير الأسماء واسقاط بعضها شيئاً كثيراً وأراها غير محصورة ولكن كان مرزوقاً في الجمع والتصنيف . كتب اليّ بالاجازة بجميع مسموعاته ومجموعاته ولم أدركه بسمرقند حياً . وحدثني عنه جماعة، قال : وانما ذكرته في هذا المجموع لكثرة تصانيفه وشيوع ذكره وان لم يكن اسناده عالياً وكان ممن أحب الحديث وطلبه ولم يرزق فهمه وكان له شعر حسن مطبوع على طريقة الفقهاء والحكماء ، قال : وكان إماماً

فاضلا مبرزاً متفنناً ، صنف في كل نوع من العلم في التفسير والحديث والشروط وبلغت تصانيفه المائة ، ونظم « الجامع الصغير » لمحمد بن الحسن وهو صاحب « القند في علماء سمرقند »(٤) ٠

توفي بسمرقند في ١٢ جمادى الأولى سنة ٥٣٧ هـ ٠

□ آثاره :

من مائة المصنف التي له ، نذكر هنا :

١ ـ الأكمل الأطول في التفسير ٠

٢ ـ التيسير في التفسير ٠

٣ ـ يواقيت المواقيت ، ألفه في فضائل الشهور والأيام ٠

٤ ـ تعداد الشيوخ لعمر مستظرف على الحروف مستطرف ٠

٥ ـ الاشعار بالمختار من الأشعار ، عشرون جزءاً ٠

٦ ـ نظم الجامع الصغير للشيباني في فروع الفقه الحنفي ٠

٧ ـ قيد الأوابد ، منظومة في الفقه ٠

٨ ـ منظومة الخلافيات ، منظومة في الفقه ولها شروح كثيرة منها شرح عبدالجليل السمرقندي ولأبي البركات حافظ الدين عبدالله بن أحمد النسفي (ت ٧١٠ هـ) وغيرهما ٠

٩ ـ القند في تاريخ سمرقند ٠

١٠ـ تاريخ بخارى ٠

١١ـ طلبة الطلبة ، في اصطلاحات الفقه ٠

١٢ـ العقائد ويعرف بعقائد النسفي ٠

١٣ـ مجمع العلوم ٠

١٤ـ شرح صحيح البخاري سمّاه النجاح في شرح كتاب أخبار الصحاح ٠

١٥ـ تطويل الأسفار لتحصيل الأخبار ٠

١٦ـ بعث الرغائب لبحث الغرائب ٠

١٧ـ الجمل المأثورة ٠

١٨ـ الحصائل في المسائل ٠

١٩ـ مشارع الشارع في فروع الحنفية ٠

٢٠ـ منهـاج الدرايـة في فروع الحنفيـة ٠
٢١ـ الهـادي في عـلم الكـلام ٠
٢٢ـ اليـاقـوتـة ٠
٢٣ـ الاجازات المترجمة بالحروف المعجمة ٠
٢٤ـ الحصـن ٠
٢٥ـ الفتـاوى ٠
٢٦ـ رسـالة في بيـان مـذاهب التصوف ٠

وغـيرها مـن الكتب والرسـائـل

التصـوف في عصـر المؤلف :

انه كان معاصراً لعصر الحروب الصليبيـة ـ عصـر السلاجقة والأيوبيين ـ وذلك العصر كان عصراً زاهراً بالثقافـة والعلم ،فمن مشاهير رجال الفكر في ذلك الحين حجـة الاسلام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) وأخوه أحمـد(ت ٥١٧ هـ) والمتصـوفـان ابن الفـارض (ت ٦٣٢هـ) وابن‌عربي (ت ٦٣٨ هـ)والأديب‌عبـداللطيف البغـدادي (ت ٦٢٩ هـ) وابن الأثـير المؤرخ الشهير (ت ٦٣٠ هـ) وأخـوه‌الكـاتب الناقـد ضياءالديـن (ت ٦٣٧ هـ) والفخـر الرازي الفيلسـوف (ت ٦٠٦ هـ)والقزويني العـالم الطبيعي (ت ٦٨٢ هـ) ٠

زاد انتشار التصوف في هذه الفترة ، فان جماعات مـن النـاس هالَهُـم استمرار الحروب الصليبية مدة طويلة مع ما رافق تلك‌الحروب من الكوارث والصعاب فَجَبَنُوا عن الكفاح وهربوا الى كسل التصوف٠ ومن الحق‌آن يُعـد التصوف المتطرف والمنحرف مـن الحركات الهدامة في الاسلام ، مع أن المقصود‌الأول أن تكون حركة التصوف اتجاهاً انسانياً روحانياً واجتماعياً وأن يكون ظاهره العبادة‌وباطنه الجهاد، والعمل على التقدم والرفعة٠

ومثل هـذا السلوك من المتصوفة دفع المؤلف الى كتابة هـذه الرسـالة للرد على مذاهب التصوف عـدا مذاهب أهـل الحق ٠

تحقيـق الرسـالـة :

اعتمدنا لتحقيق هذه الرسالة على النسخ التـاليـة :

١ ـ نسخة مكتبة الأوقاف بحلب ، الرقم ١٥٩١٤ وهي الأصل في هذا التحقيق ٠
٢ ـ نسخة مكتبة الظاهرية بدمشق ، الرقم ٢٣٨٥ ورمزت لهـا بنسخة « ب » ٠
٣ ـ نسخة أخرى لمكتبة الظاهرية بدمشق ، الرقم ١١٨٥ ورمزت لهـا بنسخة « ج » ٠

□ مصادر عن المؤلف :

السمعاني ، التحبير ، ٥٢٩/١ ؛

مرآة الجنان ، لليافعي ، ٢٦٨/٣ ؛

طبقات المفسرين ، للسيوطي ، ص ٢٧ ؛

تاج التراجم ، لابن قطلوبغا ، ص ٤٧ ؛

شذرات الذهب ، لابن عماد الحنبلي ، ١١٥/٣ ؛

مفتاح السعادة ، لطاش كبرى زاده ، ١٠٨/١ ـ ١٠٩ ؛

الفوائد البهية، للكنوي، ص ١٤٩ـ١٥٠ ؛

طبقات الحنفية ، ٢/٢٤ الظاهرية ؛

سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ٢٠/١٢٦ـ١٢٧ ؛

الجواهر المضية ، ص ٣٩٤ـ٣٩٥

الكنى والألقاب ، ٢٤٩/٣ ؛

طبقات المفسرين ، للداودي ، ٧/٢ـ٨ ؛

العبر ، للذهبي ، ٤٥٢/٢ـ٤٥٣ ؛

لسان الميزان ، ٣٢٧/٤ ؛

معجم الأدباء ، ٧٠/١٦ـ٧١ ؛

الايرانيون والأدب العربي (رجال علوم القرآن) ٢٨٧/١ـ٢٩٨ ؛

عيون التواريخ ، ٣٧٥/١٢ ؛

طبقات المفسرين ، لطاش كبرى زاده ، ص ٩٢ ؛

كتائب أعلام الأخيار ، رقم ٣٠٧ ؛

الطبقات السنية ، رقم ١٦٤٦ ؛

طبقات المفسرين، للأدنهوي ، ورقة ٤١ ؛

تاريخ الأدب العربي ، لعمر فروخ ، ١٤٧/٣ـ١٤٨

الأعلام ، للزركلي ، ٦٠/٥ ؛

معجم المؤلفين ، لعمر رضا كحالة ، ٣٠٥/٧ـ٣٠٧ .

الكتبخانة ، ٨٥/٧ ؛

كشف الظنون ، ص ٢٤٧ ، ٢٩٦ ، ٤١٥ ، ٥١٩، ٥٥٣، ٥٦٤، ٦٠٢ ، ٦٦٨ ، ٧٠٦، ٧٥٦ ، ١١١٤، ١١٢٥، ١١٤٥، ١٢٣٠، ١٣٥٦، ١٦٠٢، ١٦٨٦، ١٧٣١، ١٨٦٧، ١٨٦٨، ١٨٧١، ١٩٢٩، ٢٠٢٧، ٢٠٤٨، ٢٠٥٤ ؛

هدية العارفين ، ٧٨٣/١ ؛

ايضاح المكنون ، ٢٥/١ ؛

معجم المطبوعات ، ١٨٥٤ ؛

فهرس الفهارس ، ٢١٥/١ وأيضاً :

— Brock, I/548 (427) ; S/I : 758-762.

— Wensincki, Ensyclopedie de l'isla m, III/905.

— Les manuscrits arabes de l'Escuri al, 3/104.

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة في

بيان مذاهب التصوف

لأبي حفص عمر بن محمد النسفي السمرقندي (ت ٥٣٧ هـ)

الحمد لله ربّ العالمين والصّلوة على سيّد المرسلين وعلى آله وعترته الطّاهرين ٠

هذه رسالة في بيان مذاهب التصوف من تصنيف الشيخ الامام الأجل نجم الدين عمر النّسفي رحمه الله تعالى ٠

اعلم أن أصحاب(٥) أهل(٦) التصوف على(٧) اثني عشر(٨) فريقاً(٩) ، واحد منهم(١٠) على الطريق(١١) المستقيم(١٢) والباقي على البدعة والضّلالة وذلك الذين على البدعة والضّلالة أحد عشر فريقاً :

الأول : الحبيبيّة(١٣) ٠	والسابع : الحُوريّة ٠
والثاني : الأوليائيّة ٠	والثامن : الواقفيّة ٠
والثالث : الشمراخيّة ٠	والتاسع : المتجاهلة(١٤) ٠
والرابع : الاباحيّة ٠	والعاشر : المتكاسلة(١٥) ٠
والخامس : الحاليّة ٠	والحادي عشر : الالهاميّة ٠
والسادس : الحلوليّة ٠	

الحبيبيّة

أما الحبيبيّة فيقولون(١٦) : العبد يتخذ الله تعالى حبيباً ويقطع عن محبة المخلوقين فيُرفع التكليف عنهم وأيضاً يُرفع خطاب العبادات(١٧) والحرام [عليهم](١٨) حلال وترك الصّلوة والصّوم جائز وهذا القوم لا يسترون عورتهم (١٩) وهذا كُفر محض ولا يوقفهم(٢٠) الناس بأقوالهم الا بأفعالهم ، احذروا منهم ٠

والأوليائيّة

وهم قوم يقولون : ان(٢٢) العبد يبلغ درجة الولاية فيرفع عنه(٢٣) خطاب الأمر والنهي وهذا كفر وضلالة(٢٤) ، نعوذ بالله من ذلك ٠

والشمراخيّة

وهم قوم يقولون : اذا الصحبة(٢٥) تكون قديماً يرفع(٢٦) الأمر والنهي عنهم وبسماع الدفّ والطبل والمزمار راغبون(٢٧) ويقولون : النساء كالرياحين وتشميم الرياحين(٢٨) مباح(٢٩) وهذا قوم عبدالله الشّمراخي وهم يسيرون(٣٠) في العالم في كسوة أهل الصّلاح [و] يفسدون في العالم(٣١) وهذا القوم مباح الدّم ٠

والاباحية

وهم قوم يقولون : نحن لا نقدر على امتناع أنفسنا(٣٢) من المعاصي وليس بينهم آمر معروف ونهي عن منكر • وأموال المسلمين وفروجهم حلال ويقولون قول الكفر والايذاء حجاب في الطريق • وأمر معروف ونهي عن منكر عندهم ايذاء وهذا القوم أشر خلق الله تعالى على وجه الأرض •

والحالية

وهم قوم يقولون : السّماع والرقص مباح وهم مدهوشون كما لا تكون(٣٣) الحركة في وجودهم وهذا الطريق خلاف سنة رسول الله (ﷺ) وكل أمر على خلاف السُنّة(٣٤) يكون بدعة وضلالة •

والحلولية

وهم يقولون : النظر في الوجه(٣٥) الجميل من الأمرد والنساء(٣٦) حلال وفي حالة النظر يرقصون ويقولون في حالة الرقص صفة من صفات الله تعالى حالة(٣٧) علينا ولنا بتلك الصفة التقبيل والمعانقة وهذا كفر محض •

والحورية

مثل مذهب(٣٨) الحالية وهم قوم(٣٩) يقولون: لنا في الحالة يأتي بنا(٤٠) حواري(٤١) الجنّة ولنا معهن الوقاع والوطء • قلنا : هنّ الشياطين يأتين(٤٢) في خيالهم(٤٣) واذا(٤٤) يفرغون عن الحالة(٤٥) يغتسلون غسل الجنابة •

الواقفية

وهم قوم يقولون ان العبد [عاجز](٤٦) عن معرفة الله تعالى [وهي](٤٧) على الحقيقة محال ويقولون هذا البيت بالفارسية :

تراتو داني توترا(٤٨) نداندكس تراكه داند(٤٩) تراتو داني بس(٥٠) [و] هذا ضلال محض •

والمتكاسلة(٥١)

وهم قوم يتركون الكسب ويتوجهون على أبواب الخلائق بالكدية ويرضون عن حياتهم بعبادة البدن ويأكلون أموال الزكاة بغير حق(٥٢) و [هذا] خلاف سنّة رسول الله (ﷺ) •

والمتجاهلة(٥٣)

وهم قوم في لباس الفاسقين ويقولون : مرادنا دفع الرّياء وهذا ضلال محض •

والالهامية

وهم قوم من القرمطيين(٥٤) الذين هم معرضون عن قراءة القرآن(٥٥) وتعلم العلم(٥٦) ، يقنعون(٥٧) بمتابعة كتب الحكماء والمبتدعين ويقولون : ان القرآن حجاب الطريق وأبيات الحكماء(٥٨) وأشعارهم قرآن الطريق وهذا كفر محض •

وأهل الحق(٥٩)

وهم قوم(٦٠) يتّبعون سنّة رسول الله (ﷺ) ويؤدون الصلاة في الوقت(٦١) ويحذرون من الشرب والزنا والسماع(٦٢) والرقص(٦٣) وأكل الحرام ويشتغلون(٦٤) بكسب الحلال ويعيشون بطريق أهل البيت والأخيار(٦٥) ويحترزون من صحبة الأشرار(٦٦) [ولا يكون الخلائق مشاراً اليهم](٦٧) [وهم متحمّلون](٦٨) عن الخلايق ولو يعرفهم(٦٩) الخلايق ليعزونهم(٧٠) • وهم رحماء على جميع المسلمين ويدعون(٧١) المغفرة(٧٢) من(٧٣) الله تعالى ذنوب(٧٤) المذنبين(٧٥) ولا يشتغلون بغيبة(٧٦) المسلمين ولا يريدون زينة الدنيا ونعيمها ويمشون على سيرة [الصحابة](٧٧) والتابعين ، هذا قوم على طريق الحق واليقين ومحبتهم محبة الله ورسوله (ﷺ) كما قال الله تعالى : أولئك الّذينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأجْرٌ عَظِيمٌ(٧٨) •

واذا وقفت على حال(٧٩) أهل التصوف(٨٠) أوصيك(٨١) بمصاحبة(٨٢) [هذا](٨٣) القوم(٨٤) و [متابعتهم](٨٥) واحذر(٨٦) من ذلك الفريق(٨٧) الذين هم [أحد](٨٨) عشر فريقاً(٨٩) كما ذكرنا وهم أهل البدعة والضّلالة ، والسعي في اهانتهم واجب عند الشرع كما قال النبي (ﷺ) : « مَن أهانَ صاحب بدعة آمنه الله تعالى يوم القيامة(٩٠) من الفزع الأكبر » •

وفّقنا الله تعالى على سعي مشكور والله أعْلَمُ وأحْكَمُ(٩١) •

□ الحواشي :

١ ـ السيوطي ، لب اللباب ، مادة النسفي ، ابن الأثير الجزري ، اللباب في تهذيب الانساب ، ٣ ـ ٣٠٨ ، ياقوت الحموي معجم الأدباء ، ١٦ ـ ٧٠ ـ ٧١ ، السمعاني ، الانساب ، ٥ ـ ٤٨٦ ، الكنى والالقاب ، للقمي ، ٣ ـ ٢٤٩ ، اسماء الكتب ، لرياضي زاده ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ ، طبقات المفسرين ، للداودي ، ٢ ـ ٧ ـ ٨ •

٢ ـ الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ٢٠ ، ١٢٩ ـ ١٢٧ •

٣ ـ المصدر السابق ، طبقات المفسرين ، للداودي ، ٢ ، ٧ ـ ٨ •

٤ ـ الداودي ، طبقات المفسرين ، ٢ ، ٧ ـ ٨ ، السمعاني، التحبير ١ ـ ٥٢٩ •

٥ ـ في ج : ارباب وفي ب : لم ترد هذه الكلمة •

٦ ـ مفقودة في ج •

٧ ـ لم ترد في ج •

٨ ـ في ج : اثنا عشر •

٩ ـ في ج : فرقة •

١٠ ـ زيادة في الأصل ولم ترد في ب ووردت في ج هذه العبارة عوضا عن واحد منهم : كلهم في ضلال الا واحد منها ٠

١١ ـ في الأصل : طريق وهو خطا وما اثبتناه موافق لنسختي ب و ج والقواعد النحوية ٠

١٢ ـ في ج : وهم ، ثم ذكر اسامي الفرق ٠

١٣ ـ في الأصل : الحبيبة وما اثبتناه موافق لنسخة ج ٠

١٤ ـ في ج : المتجاهلية ٠

١٥ ـ في ج : المتكاسلية ٠

١٦ ـ في ب : الأولى الحبيبة وهم يقولون وفي ج : الحبيبية يقولون ان ٠

١٧ ـ في الأصل : برفع التكليف عنهم وايضا برفع خطاب العبادات وفي ب : برفع التكليف عنهم وايضا برفع الخطاب للعبادات ٠

١٨ ـ الجار والمجرور لم يردا في الأصل

١٩ ـ في الأصل : وهذا القول لا تستر عورتهم وفي ب : هذا القوم لا يسترون عورتهم ولم ترد هذه الجملة في ج ٠

٢٠ ـ هذا موافق لنسخة ب وفي الأصل : ولا يعرفون وفي ج : ولا يعرفهم وهذا ايضا صحيح ٠

٢١ ـ في ب : الثاني: الأوليائية ٠

٢٢ ـ لم ترد كلمة ان في ب ٠

٢٣ ـ ما اثبتناه موافق لنسخة ج واما في الأصل فالعبارة هي : بدرجة الولاية يرفع خطاب الأمر والنهي وفي ب : ويرفع خطاب الأمر والنهي عنهم ٠

٢٤ ـ في الأصل و ب ، اما في ج فهي ، وهذا ايضا كفر محض وضلال ٠

٢٥ ـ في الأصل : اذ الصحبة وفي ب : اداء النصحة وفي ج :اداء الصحبة ٠

٢٦ ـ في الأصل ب : برفع ولم ترد في ج ٠

٢٧ ـ في الأصل : راغب ٠

٢٨ ـ « وتشميم الرياحين » لم ترد في ب ٠

٢٩ ـ في ج : مباح جائز في العالم لكل واحد ٠

٣٠ ـ في ب : وهم متيسرون ٠

٣١ ـ عبارة « هذا قوم ٠٠٠ في العالم » لم ترد في ج ٠

٣٢ ـ في ج : نفوسنا ٠

٣٣ ـ في ب : كما تكون ٠

٣٤ ـ عبارة « وكل امر ٠٠٠ خلاف السنة » لم ترد في ج ٠

٣٥ ـ في ب : وجـه ٠

٣٦ ـ في ج : دون النساء ٠

٣٧ ـ في الأصل ، ب : حال وفي ج : حالة ٠

٣٨ ـ كلمة « مذهب » لم ترد في ج ٠

٣٩ ـ في ب : وهم قوم مذهبهم مثل الحالية ٠

٤٠ ـ « بنا » لم ترد في ب وفي ج : في الحالية تاتينا ٠

٤١ ـ في ج : حور من ٠

٤٢ ـ من ب ، ولكن في الأصل : يا ياتيهن ٠

٤٣ ـ في ج : تاتيهم في خيالهم من الشياطين ٠

٤٤ ـ في ب وفي الأصل : واذ وفي ج : فاذا ٠

٤٥ ـ في ب بعد « الحالة » زيادة : غير اطالة ٠

٤٦ ـ لم ترد في الاصل ، بل في ب و ج •

٤٧ ـ لم ترد في الاصل بل في ب وفي ج : هي •

٤٨ ـ « ترا » لم ترد في « ب » •

٤٩ ـ في الاصل بعد « داند » زيادة : كي •

٥٠ ـ معنى البيت : انت وحدك تعرف نفسك ولا يعرفك احد من يستطيع ان يعرفك ، انت وحدك العارف •

٥١ ـ في ج : المتكاسلية ويجب تقديم المتجاهلة على المتكاسلة حسب الترتيب الذي ذكره المؤلف في المقدمة وقدمت المتجاهلة على المتكاسلة في نسخة ج •

٥٢ ـ لم ترد « بغير حق » في ج ، كما لم ترد « حق وهذا » في ب •

٥٣ ـ في ج : المتجاهلية •

٥٤ ـ في ب : رطين ، في ج : قرمطين •

٥٥ ـ في ج : القرآن العظيم •

٥٦ ـ في ج : تعنمه •

٥٧ ـ في ج : ويعتقدون •

٥٨ ـ العبارة من « والمبتدعين » الى « الحكماء » لم ترد في ج •

٥٩ ـ في ج : ومذهب اهل الحق •

٦٠ ـ عبارة « وهم قوم » لم ترد في ج •

٦١ ـ الجار والمجرور لم يردا في ج •

٦٢ ـ في ج : سماع الحرام •

٦٣ ـ في ج : الرقص باللهو •

٦٤ ـ في ج ولكن في ب والاصل : يشغلون •

٦٥ ـ في ج ولكن في النسختين : مع اهل السنة والجماعة والاول انسب بالوزن والمقام •

٦٦ ـ في ب : يحسرون وفي الاصل : عن صحبة الاشرار يحترزون عن الخلايق •

٦٧ ـ في ج ولم ترد في الأصل و ب •

٦٨ ـ في ج ولم ترد في الأصل و ب •

٦٩ ـ في ج والأصل و ب : ولو يعرفون لهم •

٧٠ ـ في الأصل : المتنفرون •

٧١ ـ في ج : يستدعون •

٧٢ ـ في ج مغفرة •

٧٣ ـ في النسخ الثلاثة : عن •

٧٤ ـ في ج : لذنوب •

٧٥ ـ في الأصل المؤمنين •

٧٦ ـ في ج : الغيبة •

٧٧ ـ في الأصل فراغ وفي ج : الصلحاء •

٧٨ ـ سورة الحجرات الآية ٣ •

٧٩ ـ في ب : هذا اعلى •

٨٠ ـ في ج : احوال المتصوفين •

٨١ ـ في ج : فاحترز عن مصاحبة •

٨٢ ـ في ب : مصاحبة •

٨٣ ـ في ب و ج •

٨٤ ـ المراد منه اهل الحق •

٨٥ ـ في ب ولكن في الأصل : متابعته •

٨٦ ـ في ج : فاحترز في الأصل واحذروا •

٨٧ ـ في ج : الطريق •

٨٨ ـ في الأصل فراغ وفي ب : احذى •

٨٩ ـ زيادة في الأصل و ب •

٩٠ ـ « يوم القيامة » زيادة في الأصل •

٩١ ـ في ب : تمت الرسالة بحمد الله تعالى وفي ج : وفقنا الله واياكم على سعي مشكور وعمل مقبول وتجارة لن تبور ، تم بعون الله •

العقرب

بين الحقيقة والخيال في بعض كتب التراث العربية

اعداد: محمد فيض الله الحامدي

عندما يشاهد احدنا عقربا لا يتردد في قتلها ، لقناعته أن هذه الدويبة ، اذا تمكنت من انسان أو حيوان لدغته ، وأفرغت سمها فيه ، فيقاسي الملدوغ من آلام مبرحة قد تودي بحياته .

وعند ذكر العقرب في مجلس أنس ، يتحول الحديث عنها الى روايات وقصص ، بعضها من غرائب ما روي في كتب التراث ، وبعضها من مشاهدات الحاضرين وتخيلاتهم .

وأذكر أن شخصاً من حوض الفرات يحترم نفسه ، ويحترمه الآخرون ، جمعنا مجلس أنس ، ودار الحديث عن العقارب ، فأقسم بالله العظيم ، أنه شاهد في مزرعته عقرباً بجسم الكف ، بلون رمادي ضارب للخضرة ، وأكد أنه شاهد في مقدمتها قروناً بالاضافة الى كلابيتها ، فتناول حجرة كبيرة وهوى بها على ظهر العقرب ، فتطاير منها الماء وأصاب ثوبه ، ودفنها تحت التراب كي لا يطأها عابر سبيل .

لقد كان هذا الشخص صادقاً في ما شاهده ، ولكن ما شاهده لم يكن عقرباً ، بل كان سرطاناً للماء العذب ، خرج من النهر الى المزرعة ، والمعروف أن للسرطان تجاويف يحتفظ فيها بالماء للتنفس بالغلاصم ، ولم يدقق هذا الشخص في تفاصيل الجسم فحكم على هذا الحيوان من وجود كلابات له ، على أنه عقرب . فلا غرابة أن نصادف في كتب التراث روايات من هذا القبيل .

وفي كتب التراث قصص عن العقارب ، بعضها من نسج الخيال ، وبعضها يستحق الوقوف عليها والتأكد من صحتها .

ومن الكتب التراثية التي اهتمت بالحيوانات نذكر :

أولاً : كتاب (الحيوان) للجاحظ(١) (٧٧٥ ــ ٨٦٨) م ٠

ثانياً : كتاب (عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات) للقزويني(٢) (١٢٠٣ ــ ١٢٨٣) م ٠

ثالثاً : كتاب (حياة الحيوان الكبرى) للدميري(٣) (١٣٤٩ ــ ١٤٠٥) م ٠

وهي لا ترقى الى مستوى كتب التصنيف العلمية في العصر الحاضر ، لأنها تناولت قضايا لا تتعلق بالحيوانات فقط ، ولم يصنف الجاحظ كتابه حسب الأحرف الهجائية بالنسبة للحيوانات ، بينما صنفها القزويني والدميري حسب الأحرف الهجائية ٠

وفي هذا البحث سوف نتناول العقرب من خلال نظرة القدماء اليها ، تلك الدويبة التي أثارت الرعب في النفوس ، وأصبحت وسيلة من وسائل التعذيب في جهنم ، ونقدم التعليق العلمي المناسب ، مع اعطاء صورة صحيحة عن هذه الدويبة التي لم يرحمها الانسان عبر التاريخ ٠

وللأمانة سوف أنقل الشواهد من كتب التراث دون تعديل في العبارات وان بدت ركيكة ، ولا تنسجم مع نهج البحث العلمي ٠ والشواهد من الكتب الثلاثة أعلاه ٠

☐ تصنيف العقـرب :

اعتبر العرب لقدامى العقرب من الهوام ، والهوام هي تلك الحيوانات الصغيرة التي تهيم باحثة عن طعامها ، وتلحق الأذى بالانسان ، بشكل مباشر أو غير مباشر ٠

يقول الدميري : « العقرب دويبة من الهوام ، تكون للذكر والأنثى بلفظ واحد ، واحده العقرب ، وقد يقال للانثى عقربة وعقرباء ممدود غير مصروف ، ويصغر على عقيرب ٠٠٠ والذكر عقربان بضم العين والراء ، وهو دابة له أرجل طوال وليس ذنبه كذنب العقارب »(٤) ٠

وفي التصنيف العلمي الحديث تعتبر العقرب من العنكبوتيات، وليس من الحشرات. فشعبة مفصليات الأرجل تضم أربعة صفوف هي :

١ ــ **صف الحشرات : وهي سداسية الأرجل**، جسمها مقسوم الى ثلاثة أقسام ، رأس وصدر وبطن ، غالباً لها أجنحة ، ومن الحشرات ، البعوض ــ الذباب ــ الصراصير ، الجراد ــ النحل ــ النمل ــ الخنافس ــ القمل ــ البراغيث ٠٠٠

٢ ــ **صف العنكبوتيات : وهي ثمانية الأرجل**، جسمها مقسوم الى قسمين ، رأس صدري ، وبطن ليس لها أجنحة مطلقاً ، مثل العنكبوت المنزلي والنطاط ، والرتيلاء والعقارب والقراد والحَلَم وهامة الجرب ٠

٣ ــ **صف القشريات : وهي عشارية الأرجل** جسمها مقسوم الى قسمين ، رأس صدري وبطن ، تعيش في الماء مثل سرطان الماء العذب ، والسرطان البحري ، والجمبري المعروف بالقريدس ٠

٤ ـ صف كثيرات الأرجل : وهي كثيرة الأرجل، من ستة أزواج فما فوق ، أشهرها الحريش العاض المعروف باسم (أم أربع وأربعين) ٠

ومن لم يدقق في أقسام الجسم ، وعدد الأرجل ، قد يتوهم ، فيعتبر بعض الحشرات من العناكب وبعض العناكب من الحشرات ٠فالعناكب ليس لها أجنحة مطلقاً ، وقد ذكر ألجاحظ وجود عقارب طيارة فقال : « ومن العقارب طيارات وجرارات و ومعقفات ، وخضر وحمر »(٥) أي بعضها يطير ، وبعضها يجر ذيله خلفه ، وبعضها يعقف ذيله على ظهره ، والدميري نقل عن الجاحظ والقزويني فقال : « ومن نوع العقارب الطيارة قال القزويني والجاحظ وهذا النوع يقتل غالباً، قال الرافعي وحكى العبادي وجهاً أنه يصح بيع النمل في نصيبين لأنه يعالج به العقارب الطيارة »(٦) ٠

والحقيقة لا توجد عقارب طيارة ، قد تكون هناك حشرات سامة ، لها بطون تشبه ذنب العقرب وتعقفها الحشرات لتحاكي بها العقارب ، وهذه الظاهرة معروفة تعرف علمياً (بالمماتنة) ٠

للعقارب أجناس وأنواع كثيرة ، يتراوح طولها بين (٢ ـ ٢٠) سم ، تتباين في أشكالها وألوانها ، أحصى العلماء منها أكثر من (٥٠٠) نوع ، فمنها الأسود والأحمر والبني والأصفر ، والأخضر ، وتتداخل الألوان حسب البيئة ٠ وقد تكون كلاباتها ضخمة أو رفيعة ، وذيلها غليظاً أو رفيعاً ٠ ومن المفيد التعرف على شكلها وطباعها ٠

□ الشكل الخارجي للعقرب :

يقسم جسم العقرب كسائر العناكب الى قسمين ، الرأس الصدري والبطن ٠

أولاً : الرأس الصدري : (الرأس والصدر ملتحمان) ، ويتكون من سبع حلقات ملتحمة ، نلاحظ على الوجه الظهري في الوسط ، زوجاً من العيون للرؤية الليلية ، وفي المقدمة على كل جانب زوجاً من العيون للرؤية النهارية ، وبعض الأنواع التي تعيش في الكهوف المظلمة تكون عمياء ، بدون عيون ٠

ترتبط بمقدمة الرأس الصدري لامستان قدميتان ، تنتهي كل واحدة بكلابة لمسك الفرائس ٠ كما ترتبط بالرأس الصدري من الأسفل أربعة أزواج من الأرجل المفصلية ، تنتهي كل رجل بمخلبين ، وتشاهد فتحة الفم في مقدمة الرأس الصدري من الأسفل ، وعلى جانبيها قطعتان ماضغتان ، ويُلحق بالفم ملقطان صغيران ٠

ثانياً : البطن : يتكون من قسمين : قسم عريض مفلطح ، مكون من سبع حلقات لينة يعرف بمقدم البطن ، وقسم طويل قاس ، مكون من خمس حلقات قابلة للطي عبر المفاصل، وهو مؤخر البطن ، ويعرف عند العامة بذنب العقرب ٠ وسبب اعتبار الذنب من البطن ، لأن المعي يخترقه ، وفتحة الشرج تقع في نهاية الحلقة الخامسة عند التقاء الغدة السامة بالحلقة الخامسة ٠

تنتهي الغدة السامة بابرة قاسية معقوفة ، تعرف (بالزبانة) ٠

نشاهد على الوجه البطني للعقرب ، بدءاً من الرأس الصدري ما يلي :

١ ـ فوهة تناسلية على الحلقة الأولى ، لهاغطاء رقيق ٠

٢ ـ زوج من الزوائد المشطية على الحلقة الثانية ، ولم تعرف وظيفته ، وقد يكون للتحسس ، أو له وظيفة في السفاد ، يتحرك أثناء المشي ٠

٣ ـ أربعة أزواج من التجاويف ، تظهر بلون فاتح على الحلقات (الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة) وهي الرئات الكتبية ٠ ولا نلاحظ على الحلقة السابعة أي شيء ٠

لم تفصل كتب التراث الشكل الخارجي للعقرب ، لكن هناك اشارات الى بعض مظاهره كوجود العيون ، وعدد الأرجل ، والابرة ، والألوان ٠

يقول القزويني : « أخبث العقارب يلدغ كل شيء يلقاه ، عينها على بطنها،وولدها يخرج من ظهرها ، فاذا ولدت ماتت ، واذا لسعت هربت ولا تقف »(٧) ٠

وقد أخطأ القزويني في تحديد العين على البطن ، واذا كان يقصد بالبطن كامل الجسم دون الذنب ، فلا شك أن وجود زوج العيون المتوسطة للرؤية الليلية في مكان يبعد عن مقدمة الجسم يوحي بأن العين على البطن ولكن من جهة الأعلى ٠ أما الدميري فيقول : « والعقرب أشد ما تكون اذا كانت حاملاً ، ولها ثمانية أرجل وعيناها على ظهرها »(٨)٠

وابرة العقرب قاسية ، وبها قناة تنتهي بثقب صغير تصعب رؤيته بالعين المجردة ٠

وقد تعجب الجاحظ عندما أخبره بختيشوع برؤيته لثقب الابرة ٠ قال الجاحظ : « وزعم لي بختيشوع بن جبريل أنه عاين الخرق الذي في ابرة العقرب ، واذا كان صادقاً كما قال فما في الأرض أحد بصر امنه »(٩) ٠

العقرب منفصل الجنس ، يمكن تمييز الذكر عن الأنثى بالزوائد المشطية ، على الحلقة الثانية من البطن ، فهي في الذكر أطول منها في الأنثى ، وغالباً يكون الذكر أصغر حجماً ، وأرفع جسماً ٠

☐ طباع العقرب :

يقول الجاحظ : « وفي العقارب أعجوبة أخرى ، لأنه يقال انها مائية الطباع من ذوات الذرء والانسال وكثرة الولد »(١٠) ٠

يعتقد علماء الأحياء أن أول حيوان لافقري خرج من الماء الى البر هو العقرب أي كانت أسلاف العقارب حيوانات مائية قبل (٤٠٠) مليون سنة ، وكان حجم أسلاف

العقارب يصل الى حجم القدم ، وقد أطلق علماء الاحاثة على الجد الأول للعقرب اسم (بليو فونس) ويعني (السفاح القديم) •

وتطورت العقارب ، كما تطورت سائر الأحياء ، فصغر حجمها ، وتبدل شكلها قليلا ، وفقدت صلتها بالحياة المائية كلياً ، فهي لا تستطيع السباحة ، واذا ألقيت في الماء لا تبدي أي حركة • وقد لاحظ الجاحظ ذلك أيضاً فقال : « ومن أعاجيبها أنها لا تسبح ، ولا تتحرك ، اذا ألقيت في الماء ، كيف كان الماء ساكناً أو جارياً »(١١) •

☐ غذاء العقرب :

العقرب حيوان ليلي لاحم ، يبحث عن الحشرات والديدان ، وقد يصطاد صغار الفئران والزواحف الصغيرة ، كما يتغذى ببعض العناكب أيضاً •

يقول القزويني : « والعقرب اذا خرجت من بيتها أول الليل ، ولها نشاط ، أي شيء لقيته ضربته ، قال بعضهم لقيت العقرب قمقماً فضربته بابرتها فسال منه الماء ، والعقرب اذا لقيت الحية لدغتها ، والحية تسعى في طلبها ، فان وجدتها أكلتها تبراً ، وان لم تجدها تموت الحية ، والعقرب اذا لدغت يُمسح مكان لدغها برطوبتها يسكن ألمها في الحال »(١٢) •

لم يبين القزويني لماذا تضرب العقرب كل شيء !؟ والعقرب لا تفرغ سمها الا عند الضرورة ، عندما يعترضها عائق ، أو تشتبك مع كائن آخر ، أو مع عقرب آخر ، وصراع العقارب عنيف ، والعقرب لا تلدغ فريستها الا اذا حاولت الفرار ، ولا تتأثر بسمها اذا تناولته عن طريق الفم مع سوائل الضحية •

وحتى الجاحظ الذي كان يهتم بدقائق الأمور عن الحيوان ، لم يذكر أنواع الأطعمة التي يتناولها العقرب ، لكنه ذكر ما بين الخنافس والعقارب من مودة ، حيث قال : « وبين العقارب وبين الخنافس مودة ، والمودة غير المسالمة »(١٣) وفي مكان آخر يقول : « المودة كما يكون بين العقارب والخنافس ، فان بعضها يتآلف بعضاً وليس تلك بمسالمة »(١٤).

ولتوضيح ما ذهب اليه الجاحظ ، نقول: بين الانسان والغنم مودة ، ولكن الغنم هي مصدر غذائي للانسان ، والحقيقة أن العقارب لا تتغذى بالخنافس ، لقساوة غلافها ولكن تتواجد العقارب في نفس البيئة التي تتواجد فيها الخنافس ، لأن هناك حشرات وديدان تعيش في نفس البيئة تشكل غذاءً دسماً للعقرب • وتحس العقرب دبيب الخنفساء فتتبعها ، ولذلك شاع عند العامة أن الخنفساء دلالة للعقرب •

للعقرب جهاز هضمي متطور ، يبدأ بالفم ، يليه البلعوم المزود بعضلات ماصة قوية ، تنقلب الى الخارج ، فاذا أمسك العقرب فريسته ، مضغها وعصرها ، فيمتص البلعوم سوائل جسمها وتتحرك السوائل الى تجويف يشبه المعدة ، في الرأس الصدري ، ثم يتابع سيره الى المعي حيث تصب عليه عصارات كبدية هاضمة ، وتصب في المعي عند نهاية

مقدم البطن الفضلات البولية ، فتتابع الفضلات الصلبة والسائلة سيرها في المعي داخل مؤخر البطن (الذنب) وتطرح من فتحة الشرج • خلال مرور السوائل الممتصة في الجهاز الهضمي ، تمتص جدران الأمعاء المواد النافعة ويوزعها الدم على سائر أنحاء الجسم •

□ تنفس العقـرب :

تنفس العقرب هوائي ، لها ثمانية رئات كتبية ، وهي تجاويف ، تتوضع فيها زوائد بشكل صفائح رقيقة تشبه توضـع الكتب في مكتبة ، ولـذلك سميت بهذا الاسم ، بينمـا سائر الحشرات والمفصليات الأخرى تتنفس بالغلاصم ان كـانت مائيـة ، وبالقصبـات الهوائية ان كانت بريـة ، ولبعض العناكب غير العقرب ، قصبات هوائية ورئة كتبية على بطنها في الأسفل • ولا توجد عقارب مائية ، واذا كانت هناك كائنات شبيهة بالعقارب في الماء ، فهي من القشريات غالباً •

يدخل الهـواء الى تجـاويف الرئـات الكتبية ، فيحدث تبادل بين الهواء ودم العقرب « وهو سائل فيزيولوجي » فيطرح الدم غـازثاني اكسيد الكربون عبر أغشية الزوائد ، ويأخذ الاكسجين من الهواء ، ويوزعـه الدم على سائر أنحـاء الجسم بفضـل دورتـه ، وللعقرب قلب أنبوبي مفتوح مثل الحشرات ، يقع في الناحية الظهرية •

ينشط العقرب في الفصول الدافئة ، وفي الفصول الباردة يتوقف عن الحركة ، فيسبت عدة شهور لأنه من ذوات الدم البارد (المتبدل الحـرارة) •

يكون تنفس العقرب في سباته في حده الأدنى ، لعدم وجود حركة وتغذية ، ويعـود العقرب لنشاطه في بداية الفصل الحار ، وفي المناطق الاستوائية الحـارة دائماً ، يبقـى العقرب ناشطاً طوال العام •

□ تكـاثر العقـرب :

قال الجاحظ « خبرني من أثق بعقله ، وأسكن الى خبـره أنـه رأى العقـرب عياناً وأولادها يخرجن من فيها ، وذكر عدداً كثيراً ، وأنها صغار بيض ، على ظهرها نقط سود ، وأنها تحمل أولادها على ظهرها ، وأنه عاين ذلك مرة أخرى ، فقلت ان كانت العقرب تلد من فيها ، فأخلق بها أن يكون تلاقحها من حيث تلد أولادها »(١٥) •

وأورد الدميري (في حياة الحيوان الكبرى) هذا الخبر عن الجـاحظ ، ورجحـه على الروايات الأخرى • وكان الرأي السائد أن صغار العقرب تكبر في بطن الأم ، فتلتهم جلدة ظهرها من الداخل وتخرج من الظهر وتبقى فترة على ظهر الأم ، حيث تمـوت الأم ، وفي ذلك قال الشاعر في العقرب من باب الألغاز :

وحامـلةٍ لا يكمُـلُ الدهـرَ حملُهـا   تمـوت ويبقـى حملُهـا حـين تعطبُ

والحقيقة العلمية عن تكاثر العقرب ، هي أن معظم العقارب ولودة باستثناء بعض الأنواع ، ويحدث (السفاد) بين الذكر والأنثى في الوقت المناسب ، فيقوم الذكر برقصات

غريبة لاغراء الأنثى ، فترفع الأنثى جسمهاحتى تبرز فوهتها التناسلية ، ويتخذ الذكر وضعاً بحيث تنطبق فوهته التناسلية علىفوهة الأنثى • ويقذف السائل المنوي الى جوف الأنثى ، لتلقيح البيوض ، وغالباًما تلتهم الأنثى الذكر ، بعد السفد في بعض الأنواع •

للذكر خصيتان في البطن ، لكل خصيةقناة ناقلة للنطاف ، تجتمعان في قناة واحدة ، وتنتهي القناة بفتحة الذكر التناسلية •

أما الأنثى فلها مبيض واحد ، مكون منثلاثة أنابيب ، تتصل بها جُريبات جانبية تتكون فيها البيوض ، تتوحد الأنابيب فيوعائين ناقلين ، ينتهيان بالفتحة التناسلية •

تتطور البيوض الملقحة داخل الأنابيب، فتصبح أجنة كاملة ، لونها أبيض ، وتخرج من الفوهة التناسلية ، وتكون في البدايةمحاطة بغشاء رقيق ، تزيله الأم ، وترفعها على ظهرها حيث تمكث الصغار على ظهر الأممدة أسبوعين ، تتغذى خلال هذه المدة بما يحمله جسمها من مواد غذائية من بقايا البيضة •

يتراوح عدد الصغار في كل ولادة من ٤٠ الى ٩٠ عقرباً ، حسب الأنواع ، ولا تعيش العقارب حياة اجتماعية ، ولكن تكون جحورها متقاربة ويعود ذلك الى كثرة نسلها ، فالصغار التي تقوى على الحركة لا تبتعد كثيراً عن مكان ولادتها ، ولذلك شاع أن منطقة معينة فيها عقارب أكثر من منطقة أخرى •

قد تموت الأم بعد فترة من ولادتها ، والصغار على ظهرها ، لذلك توهم من رآها على هذا الوضع ، واعتقد أن صغارها تخرج من ظهرها •

☐ العقرب دويبة ملعونة :

يقول الجاحظ : « والعقرب تطلب الانسان وتقصد نحوه ، فاذا قصد نحوها فرت وهربت ، وتقصد أيضاً نحو الانسان ، فاذا ضربته هربت هرب من قد أساء وتعلم أنها مطلوبة »(١٦) •

ولا تكون خطورة العقارب واحدة في كل الأنواع ، والسلالات ، فبعضها شديد السمية وبعضها خفيف السمية •

يقول الجاحظ : « والعقارب القاتلة تكون في موضعين ، بشهرزور وقرى الأهواز ، الا أن القواتل التي بالأهواز جرارات ، ولم نذكر عقارب نصيبين لأن أصلها من شهرزور حين حوصر أهلها ، ورموا بالمجانيق وبكيزانمحشوة من عقارب شهرزور حتى توالدت هناك فأعطى القوم بأيديهم »(١٧) • وتذكرنا هذهالحادثة بالحرب البيولوجية المحرمة في القانون الدولي •

ويقول الجاحظ أيضاً : « وسنذكر عقارب الشتاء وعقارب الحر ، وكل شيء من هذا الباب ، ولكن نبدأ بذكر جرارات الأهواز ،••• ذكروا أن أقتلها عقارب (عسكر مُكرم)

وأنها متى ضربت رجلا فظن أن تلك العضةعضة نملة ، أو وخزة شوكة ، فنال من اللحم تضاعف ما به »(١٨) ٠

وقد أورد الدميري في (حياة الحيوان الكبرى) أحاديث عن العقرب، وأذاها للرسول عليه السلام ، فأمر بقتلها ، وبين أنها دويبة ملعونة ٠

- « روى الطبراني وأبو يعلى الموصلي ،عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : دخل علي بن أبي طالب على رسول الله ﷺ وهو يصلي فقام الى جنبه بصلاته ، فجاءت عقرب حتى انتهت الى رسول الله ﷺ ثم تركته وذهبت نحو علي ، فضربها بنعله حتى قتلها ، فلم ير رسول الله ﷺ بقتلها بأساً »(١٩) ٠ وفي اسناده عبد الله بن صالح كاتب الليث ، وهو ضعيف ٠

- وروى ابن ماجة عن أبي رافع ، أن النبي ﷺ قتل عقرباً وهو يصلي ، وفيه أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : لدغت النبي ﷺ ، عقرب وهو في الصلاة ، فقال : لعن الله لعقرب ، ما تدع مصلياً ولا غيرمصلٍ ، اقتلوها في الحل والحرم »(٢٠) ٠

- « وروى الحافظ أبو نعيم في تاريخ أصبهان ، والمستنفري في الدعوات ، والبيهقي في الشعب عن علي رضي الله تعالى عنه،قال : لدغت النبيﷺ عقرب وهو في الصلاة، فلما فرغ من صلاته قال: لعن الله العقرب ما تدع مصلياً ولا غيره ، ولا نبياً ولا غيره، الا لدغته ، وتناول نعله فقتلها به ، ثم دعا بماء ملح ، فجعل يمسح عليها ويقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين »(٢١) ٠

وأورد الدميري أحاديث أخرى تجيز استعمال الرُقية اتقاءً من أذى العقارب ٠ لا مجال لايرادها هنا ٠

□ الفوائد العلاجية للعقارب :

تناولت كتب التراث غير الطبية الفوائد العلاجية للعقرب ، ويمكن ترتيبها في قسمين :

أولاً : العلاج بسم العقارب الحية : (الفوائد الحاصلة من لدغة العقرب) ٠
يقول القزويني : « والعقرب اذا لسعت صاحب الحمى الدقيقة تقلع عنه ، واذا لدغت المفلوج يزول عنه الفالج »(٢٢) ٠

وقال الجاحظ : « وقال يحيى وقد تلسع أصحاب ضروب من الحميات العقارب فيفيقون »(٢٣) ٠

وقال أيضاً : « وقد لسعت عقرب مفلوجاً ، فذهب عنه الفالج ، وقصة هذا المفلوج معروفة ، وقد عرفها صليبا وغيره من الأطباء »(٢٤) ٠

لا يمكن القطع بصحة ما أورده الجاحظ والقزويني ، بشأن شفاء المفلوج من لدغة العقرب له ، اذ قد تكون حالة خاصة ، تتعلق بحالة جسم المفلوج ، وأصبح سم العقرب علاجاً ناجعاً له ، واذا كان ما ورد صحيحاً ، فان الحادثة ستنتقل كخبر على ألسنة الناس ، وتروى من باب التعجب ، ويصل الخبر في مثل هذه الحالة الى حد التواتر وكتب التراث الطبية ، لم تذكر أن علاج المفلوج لدغة القرب وفي التاريخ وكل مجتمع ، يصاب المئات والآلاف بالفالج ٠

أما بالنسبة لاقلاع الحمى عن محموم بعد لدغة العقرب ، فيمكن ارجاعه الى عاملين :

الأول : تأثير السم من الناحية الفيزيولوجية في الجسم ، **والثاني** ، التأثير النفسي فالمصاب بالحمى اذا تعرض لموقف خطر ينسى ما به من آلام خفيفة ، والمثل الشعبي الدارج « رأى الموت فنسي الحمى » لم يأت من فراغ ، بل وضع بعد ملاحظات واقعية ٠ ويروي كثير من الناس أن بعض الأشخاص اذا لدغتهم العقرب ، تموت العقرب في الحال ، ولايتأثر الملدوغ ، والروايات تصل الى حد التواتر ، وقد ذكر الجاحظ ذلك في كتاب الحيوان فقال : « ونجد العقرب تلدغ انساناً فيموت ، وتلسع آخر فتموت هي ، فدل ذلك على أنها كما تعطي تأخذ ، وان للناس أيضاً سموماً عجيبة »(٢٥) ٠

فما تفسير هذه الظاهرة ؟

يقول الجاحظ : « وتلسع بعض الناس فتموت هي ولاينال الملسوع منها من المكروه قليل أو كثير ، ويزعم العوام أن ذلك انما يكون لمن لسعت أمه عقرب وهو حمل في بطنها »(٢٦) .

والروايات عن موت العقرب بعد لدغها لأشخاص معينين تصل الى حد التواتر وهي صحيحة ، ولكن تفسير الظاهرة يدخل في باب الاحتمالات ٠

فالاحتمال الأول : وهو تحايل العقرب والتظاهر بالموت ، حيث تتوقف عن الحركة تماماً ، ولكن تبقى حية ، والملدوغ عادة يقتل العقرب بعد اللدغ ويحطم جسمها ، لذلك لا يكشف حيلتها ، وظاهرة التحايل نجدها عند بعض الحشرات ، فنوع من الخنافس اذا لمسناها وشعرت بالخطر تتوقف عن الحركة وتستلقي على ظهرها ، وتصلب أرجلها كأنها ميتة تماماً فاذا راقبناها مدة ربع ساعة أو أقل ، نجد أنها تبدأ بالحركة بعد أن تشعر بالأمان ٠

والعقارب لها أكثر من ٥٠٠ نوع ، فلا تتساوى في سلوكها تماماً ، ولاثبات تحايل العقرب يجب تركها فترة من الزمن ، فاذا لم تتحرك ، يجب لمسها بقطعة معدنية ساخنة فاذا لم تتحرك أيضاً فانها ميتة فعلاً ٠

والاحتمال الثاني : أن العقرب يتلقى صدمة كهربائية من جسم الملدوغ ، تشل حركته أو تقتله ، وما ذكره الجاحظ عن احتمال دخول شيء من جسم الملدوغ الى جسم

العقرب أي للملدوغ سم أيضاً ، لا يستقيم مع المعطيات العلمية عن العقرب والتفاعلات الكيميائية • فاذا دخل شيء من دم الملدوغ الى جسم العقرب عن طريق ابرة العقرب ، فانه سيدخل في الغدة السامة ، ومنه الى الجسم ، وهذا يحتاج الى فترة زمنية طويلة ، والروايات تؤكد موت العقرب في الحال ، والاحتمال الذي اعتبره الجاحظ زعماً للعامة ، قد يعلل المناعة عند الملدوغ ولكن لا يعلل موت العقرب • واذا صح الاحتمال الثاني (الصدمة الكهربائية) فان بعض الأشخاص في أجسامهم كهربائية خاصة وهذا مؤكد، وعندئذ تتلقى العقرب صدمة كهربائية لأن جسمها يصبح ناقلاً بمجرد ادخال ابرتها في جسم الملدوغ وامتزاج السم مع الدم •

وثمة حقيقة أشار اليها الجاحظ وهي أن نتائج اللسعة لا تكون متماثلة لكل العقارب والأشخاص ، فالعقرب الذي يلدغ شخصاً بعدوجبة غذائية ، أو بعد معركة ضارية بينه وبين عدو غير الانسان ، لا يؤثر مثل عقرب يستفتح بالانسان• وهناك عوامل كثيرة تحدد درجة التأثر باللدغة ذكرها الجاحظ بشيء من التفصيل فقال : « وتختلف سموم العقارب بأسباب ، منها اختلاف أجناسها ، كالجرارة وغيرها ، ومنها اختلاف الترب كفرق بين جرارات وعقارب شهرزور ، وعسكر مكرم ، وتختلف مضرة سمومها على قدر طباع الملسوع ، ويختلف قدر سمومها على قدر مواضع اللسعة ، وعلى قدر اختلاف ما بين النهار والليل ، وعلى قدر ما صادفت عليه الملسوع من غذائه ، ومن تفتح منافسه ، وعلى قدر ما تصادف عليه العقرب من الحَبَل وغير الحَبَل ، وعلى قدر لسعتها في أول الليل عند خروجها من جحرها ، بعد أن أقامت فيه شتوها ، وأشد من ذلك أن تلسع أول ماتخرج من جحرها بعد أن أقامت فيه يومها ، قال : ماسرجويه فلذلك اختلفت وجوه العلاج ، فصار ضرب من العلاج يُفيق عنه انسان ولا يُصلح أمر الآخر »(٢٧) •

ثانياً ـ العلاج بمخلفات العقارب :

يقول الجاحظ : « والعقرب تجعل في جوف فخار مشدود الرأس ، مطين الجوانب ، ثم يوضع الفخار في تنور ، فاذا صارت العقرب رماداً ، سقي من ذلك الرماد مَن به الحصاة مقدار نصف دانق • وقال : حنين وقد يسقى منه الدانق وأكثر ، فيفتتت الحصاة من غير أن يضر بشيء من الأعضاء الصحيحة »(٢٨) •

والدانق يعادل سدس الدرهم ، والدرهم يعادل (٢ر٣) غراماً ، أي ثقل الدانق يزيد قليلاً على نصف غرام •

ويقول الجاحظ أيضاً : « وتلقى العقرب في الدهن وتترك فيه حتى يأخذ الدهن منها ويمتص ويجتذب قواها كلها بعد الموت، فيكون ذلك الدهن يفرق الأورام الغلاظ ، وقد عرف ذلك حنين »(٢٩) •

ويقول في مكان آخر في كتاب الحيوان : « والعقارب يأكلها مشوية مَن بعينيه ريح السَبَل فيجدها صالحة ، ويُرمى بها في الزيت حتى اذا تفسخت ، وامتص الزيت ما فيها

من قواها ، فطلوا بذلك الدهن الخصى التي فيها النفخ ، فرق تلك الريح حتى تخمص الجلدة ويذهب الوجع،فاذا سمعت بدهن العقارب فانما يعنون هذا الدهن »(٣٠) .

وذكر القزويني في عجائب المخلوقات : « وتجعل العقرب في فخارة مسدودة الرأس، وتترك في تنور مسجر حتى تصير رماداً،ويسقى من ذلك مَن به حصاة المثانة فيفتتها »(٣١) .

ويقول : « ويشق بطنها ويوضع على موضع اللسعة ، فانه ينفع في الحال ، واذا أخذت عقرباً كبيراً أسود ، وجففتها وعجنتها بالخل ، وطلي به البرص أزاله ،ورماده يذاب بدهن ويُطلى به ينبت الشعر »(٣٢) .

والدميري في (حياة الحيوان الكبرى) يروي : « وقيل أن العقرب اذا أحرقت ودخن بها البيت ، هربت العقارب منه ، واذا طبخت بزيت ووضع على لدغ العقارب سكن الوجع، ورماد العقارب يفتت الحصى ، وان أخذت عقرب وقد بقي من الشهر ثلاثة أيام وجعلت في اناء،وصب عليها رطل زيت،وسد رأس الاناء ، وتركت حتى يأخذ الزيت قوتها ثم أدهن من به وجع الظهر والفخذين ، فانه ينفعه ويقويه »(٣٣) .

ويقول الدميري أيضاً « وان طبخت العقرب بسمن البقر ، وطلي به موضع لسعتها سكنتها من وقته ، وقال ابن السويدي : اذا وضعت العقرب في اناء فخار وسد رأسه ثم وضع في تنور الى أن تصير رماداً ، وسقي من ذلك الرماد من به الحصى نفعه وفتتها »(٣٤) .

نحن أمام مجموعة أمراض تعالج بمخلفات العقارب ، كما وردت في كتب تراثية غير طبية والأمراض هي : الحصى البولية ، الأورام الغليظة ، ريح السبل في العين ، انتفاخ الخصى ، البرص ، الصلع ، وجع الظهر والفخذين ، بالاضافة الى تسكين الألم عند الملدوغ . فكيف توصل القدماء الى طريقة اعداد الأدوية بمخلفات العقرب ؟ وما مدى صحة تلك المعالجات ؟ بالتجارب أم بالصدفة ؟

حالياً تجرى في مخابر طبية في معظم أنحاء العالم ، التجارب الدقيقة للاستفادة من سموم العقارب ، حيث تمزج مع الأدوية بمقادير مناسبة ، ويتم استخراج السم من غدة العقرب بطريقة كهربائية ، أي يتم حلبها ان صح التعبير .

يمسك العقرب من ذنبه بملقط معدني ، وتمسك كلابتاه بملقط آخر ، والملقطان موصولان بمولد كهربائي يعطي تياراً خفيفاً ،فاذا تلقى العقرب صدمة كهربائي ارتجف وقذف قطرة من السم من مؤخرته (الابرة) ،يؤخذ السم وتجرى به تجارب على الأحياء لاثبات تأثيراته على القلب والجملة العصبية وسائر أجهزة الجسم .

ولا يمكن قبول الوصفات المذكورة في كتب التراث على علاتها ، لخطورة استعمالها.

المعالجة الصحيحة للملدوغ بالعقرب :

تتم معالجة الملدوغ بالعقرب أو الثعبان أو أي حشرة سامة وفق الترتيب التالي :

١ ـ الطلب من الملدوغ عدم التحرك ، لأن الدورة الدموية تنشط بالحركة ، وذلك يساعد على سرعة انتشار السم في الجسم ٠

٢ ـ ربط العضو الملدوغ من جهة القلب ، اذا كان اللدغ في الأطراف ، لاعاقة رجوع الدم الى القلب ٠

٣ ـ احداث جرح متصالب بالشكل (+) مكان اللدغ بآلة حادة نظيفة معقمة ٠

٤ ـ عصر الجرح لاخراج كمية من الدم المسموم ، أو مص الجرح بفم سليم خال من القروح وبصق الدم بسرعة ٠

٥ ـ اعطاء الملدوغ السوائل المهدئة للأعصاب كالزهورات وما شابه ذلك ٠

٦ ـ في الحالات الخطرة ، يسعف الملدوغ الى أقرب طبيب ، لحقنه بمضاد للتسمم ٠ ولذلك يحتاط من يعمل في البراري أو أثناء الرحلات الكشفية ، بتأمين مستلزمات المعالجة في جعبته ٠

غرائب ما روي عن العقارب :

أورد الدميري في كتاب (حياة الحيوان الكبرى) قصصاً عجيبة عن العقارب ، يتداولها العامة أحياناً للتندر ، أو لاثبات حتمية القضاء والقدر ، أوردها تحت فقرة (غريبة) فقال : « في تاريخ شيخنا اليافعي رحمه الله تعالى ، في حوادث سنة تسع وخمسمائة ، ذكر أن بعض الملوك قال له منجموه ، انه يموت الساعة الفلانية ، في الشهر الفلاني ، من سنة كذا ، من عقرب تلدغه ، فلما كانت الساعة المذكورة ، تجرد من جميع ثيابه سوى ما يستر عورته ، وركب فرساً بعد أن غسله ، ونظفه ، وسرح شعره ، ودخل به البحر حذراً ، مما ذكر له منجموه ، فبينما هو كذلك عطست الفرس ، فخرج من أنفه عقرب فلدغته فمات، فما أغناه الحذر من القدر »(٣٥) ٠

« وعن معروف الكرخي قال : بلغنا أن ذا النون المصري ، خرج ذات يوم يريد غسل ثيابه ، فاذا هو بعقرب قد أقبل عليه كأعظم ما يكون من الأشياء ، ففزع منها ، فزعاً شديداً ، واستعاذ بالله منها ، فكفي من شرها ، فأقبلت حتى وافت النيل ، فاذا هو بضفدع قد خرج من الماء ، فاحتملها على ظهره ، وعبر بها الى الجانب الآخر ، فقال : ذو النون فاتزرت بمئزري ونزلت الماء ، ولم أزل أرقبها الى أن أتت الى الجانب الآخر ، فصعدت ثم سعت ، وأنا أتبعها ، الى أن أتت شجرة كثيرة الأغصان ، كثيرة الظل ، واذا بغلام أمرد أبيض نائم تحتها وهو مخمور ، فقلت لا قوة الا بالله ، أتت العقرب من ذلك الجانب للدغ هذا الفتى ، فاذا أنا بتنين قد أقبل يريد قتل الفتى ، فظفرت العقرب به ، ولزمت دماغه

حتى قتلته ، ورجعت الى الماء ، وعبرت على ظهر الضفدع الى الجانب الآخر ، فأنشد ذو النون يقول :

يا راقداً والجليل يحفظه ... من كل سوءٍ يكون في الظلم
كيف تنام العيون عن ملك ... تأتيك منه فوائد النعم

قال : فانتبه الفتى على كلام ذي النون ، فأخبره الخبر فتاب ، ونزع لباس اللهو ، ولبس أثواب السياحة ، وساح ومات على تلك الحالة رحمه الله تعالى »(٣٦) ٠

لا يمكن التسليم بصحة هذه القصص ، فالعقل والمنطق يرفضان تسلسل الأحداث فيها ، وهاتان القصتان وغيرهما من القصص التي وردت في كتب التراث ، تُروى من باب الترغيب على الايمان بالقدر ، وتعزيز الايمان بالغيب ، وضرورة أن يكون الانسان في طاعة الله وعبادته ٠

□ العداوة بين العقرب والحية :

ركزت كتب التراث على العداوة بين العقرب والحية ، فالقزويني يقول : « والعقرب اذا لقيت الحية لدغتها ، والحية تسعى في طلبها ، فان وجدتها أكلتها تبرأ ، وان لم تجدها تموت الحية »(٣٧) ٠ ويقول الجاحظ « ومن أعاجيب العقارب أنها تلسع الأفعى ، فتموت الأفعى ، ولا تموت هي »(٣٨) ٠ ومن قصة ذي النون المصري كما رواها السري عن معروف الكرخي ، بلغت العداوة بين العقرب والحية (التنين) ذروتها ، فقتلت العقرب التنين لانقاذ الفتى المخمور ، العاصي ، فكانت فرصة مناسبة لتوبة الفتى٠

واذا حللنا هذه النظرة الى العقارب والحيات من زاوية المعطيات التي قدمها علم النفس الفردي والاجتماعي ، فاننا نجد أن العداء بين العقرب والحية في القصص يحقق رغبة الانسان في التخلص من عدويه ، اذ تأكد للانسان عبر تاريخه الطويل عدم امكانية العيش مع العقارب والحيات بسلام ، فهي مصدر خطر دائم للانسان ٠ وهذا العداء بين العقارب والحيات في الحياة الدنيا ، ينقلب الى مصالحة وتعاون يوم القيامة في جهنم ، ضد الكفار والمنافقين ٠ واذا كانت آيات الذكر الحكيم تؤكد على فظائع التعذيب في نار جهنم ، فانها لم تُشر الى وجود العقارب والحيات فيها فابتدع خيال الانسان من واقع خبرته في الحياة أساليب أخرى للتعذيب في جهنم ، ونسب ذلك الى الأحاديث النبوية الشريفة ٠

أورد صاحب كتاب : « الترغيب والترهيب في الحديث الشريف » في الجزء الرابع عدة أحاديث عن التعذيب في جهنم أذكر منها :

« ان في جهنم سبعين ألف وادٍ ، وفي كل وادٍ سبعون ألف شعب ، وفي كل شعبٍ سبعون ألف دار ، وفي كل دار سبعون ألف بيت ، وفي كل بيت سبعون ألف بئر ، وفي كل

بئر سبعون ألف ثعبان ، في شدق كل ثعبان سبعون ألف عقرب ، لا ينتهي الكافر أو المنافق ، حتى يواقع ذلك كله »(٣٩) .

قال الحافظ سعيد بن يوسف وهو اليمامي لحمصي الرحبي ، ضعّفه يحيى بن معين ، وقال النسائي ليس بالقوي ، وقال ابن أبي حاتم ليس بالمشهور .

ولو أحصينا عدد العقارب في جهنم كماوردت في الحديث أعلاه ، لكان العدد (٨٢٣٥٤٣) وعلى يمينه (ثمانية وعشرون صفراً) الحديث ضعيف حكماً .

« وعن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى « زدناهم عذاباً فوق العذاب » قال زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال ، رواه أبو يعلى والحاكم موقوفاً ، وقال صحيح على شرط الشيخين »(٤٠) .

هل العقارب مخيفة الى هذه الدرجة ؟ حتى تكون وسيلة لزيادة التعذيب في جهنم ! ان حرق النار أشد ايلاماً من لدغ العقرب ، ويصف الملدوغ آلامه بأنها محرقة وعندما يصف لدغة العقرب له ، يقول : شعرت بوخزة كأنها لذعة سلك حار . واضح أن الرهبة التي تركتها العقرب في نفس الانسان كفرد ، ودخلت في وجدانه الاجتماعي ، أصبحت وسيلة للترهيب في جهنم ، ليتجنب الانسان الطريق المؤدية الى ذلك المصير المؤلم .

□ التأثير الكيميائي لسم العقرب :

سم العقرب مكون من مجموعة مركبات ، أملاح وخمائر ، لها تأثير على الانسان والحيوان وقد يتفاعل السم مع بعض المعادن ، كالنحاس والتوتياء ولذلك ماروته كتب التراث لم يكن بعيداً عن الحقيقة .

قال الجاحظ : « ومن أعاجيبها أنها تضرب الطست أو القمقم فتخرقه ، وربما ضربته فتثبت فيه ابرتها ، ثم تنصل حتى تبين منها »(٤١) .

وروى القزويني كما مر سابقاً « قال بعضهم لقيت العقرب قمقماً فضربته بابرتها فسال منه الماء »(٤٢) .

والقمقم وعاء ضيق العنق من نحاس ، توضع فيه السوائل وخاصة الماء ، فهل خرق جدار القمقم نتيجة قساوة ابرة العقرب ، وقوة ضربتها ؟ أم بتأثير سمومها ؟

يقول الجاحظ : « على أن العقرب ليس تخرق القمقم من جهة الأيد وقوة البدن ، بل انما ينفرج بطبع مجبول هناك »(٤٣) .

أي يحدث انفراج في مكان ضربة الابرة نتيجة خواص المادة وتفاعلها مع السم ، وعبر الجاحظ عن ذلك (بطبع مجبول) . والمعروف أن الزئبق يتفاعل مع المعادن ، والسم السليماني المشهور يدخل في تركيبه الزئبق فمن المحتمل أن يحتوي سم العقارب على شوارد من الزئبق أيضاً .

العقرب في الأدب :

تناول بعض الشعراء العقرب من باب التفكه ، أو كالغاز يطلب معرفتها ، وقد أورد الجاحظ والدميري نماذج من أشعارهم ، نثبت بعضها هنا :

قال الجاحظ : « وفي أشعار اللغز قيل في أكل العقرب بطن الأم ، وأن عطبها في أولادها ،

وحاملة لا يكمُلُ الدهرَ حملُها تموت ويبقى حملها حين تعطبُ»(٤٤)

والدميري في حياة الحيوان الكبرى أورد أبياتاً لبعض الشعراء منها :

« رأيت على صخرةٍ عقرباً وقد جعلت ضربها ديدنا
فقلتُ لها انها صخرةٌ وطبعك من طبعها ألينا
فقالت صدقت ولكنني أريد أعرِّفها من أنا »(٤٥)

ونقل الدميري عن الجاحظ فقال : « كان في دار نصر بن حجاج السلمي عقارب ، اذا لسعت قتلت ، فدب ضيف لهم الى بعض أهل الدار ، فضربته عقرب في مذاكيره ، فقال نصر يعرض به(٤٦) :

وداري اذا نام سكانها أقام الحدود بها العقرب
اذا غفل الناس عن دينهم فان عقاربها تضربُ
فلا تامنن سرى عقربٍ بليلٍ اذا أذنبَ المذنبُ

وقد دخلت العقرب في الأمثال الشعبية ،وعبر عن ذلك الشاعر :

« ومن لم يكن عقرباً يتقى مشت بين أثوابه العقربُ »(٤٧)

وفي أشعار الغزل شبه الكثيرون خصلات شعر المحبوب بالعقارب على الأصداغ ولا يتسع المجال للغوض في هذا الجانب . وهذا البحث لا يغني من العودة الى كتب التراث وبشكل خاص المراجع المثبتة في نهايته، ورجائي أن يكون ما قدمته ، عن العقرب فيه فائدة علمية ومتعة لكل مهتم بالتراث .

المراجع :

١ ــ **الجاحظ** : أبو عثمان عمرو بن بحر ــ كتاب (الحيوان) تحقيق عبد السلام هارون ــ الجزء الخامس ــ دار احياء التراث العربي ــ بيروت ١٩٦٩ .

٢ ــ **القزويني** : زكريا بن محمد بن محمود ــ كتاب (عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات) ــ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ــ ١٩٥٨ .

٣ ـ **الدميري** : كمال الدين ـ (كتاب حياة الحيوان الكبرى) مطبعة الاستقامة بالقاهرة ـ ١٩٥٨

٤ ـ **المنذري** : الامام الحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي ـ كتاب (الترغيب والترهيب من الحديث الشريف) ـ الجزء الرابـع الطبعة الثالثة ـ ١٩٦٨ •

٥ ـ **الموسوعة العلمية الميسرة** : المجلد الثاني ـ الجزء الثاني ، وزارة الثقافة دمشق ـ ١٩٦٨ •

٦ ـ **موسوعة الطبيعة الميسرة** : مكتبة لبنان ـ بيروت ـ طبعة أولى ـ ١٩٨٥ •

٧ ـ **موسوعة الشباب** : المجلد الثالث ـ ميدليفانت ـ سويسرا •

☐ الهـوامش :

١ ـ الجاحظ ـ أبو عثمان عمرو بن بحر ـ (٧٧٥ ـ ٨٦٨م) ولد في البصرة وتوفي فيها ، تثقف في البصرة وبغداد ، مطلعا على جميع العلوم المعروفة في عصره ، نسبت اليه فرقة الجاحظية من المعتزلة • كان ثاقب البصيرة ، متزن العقل ودقيق التعليل ، حر التفكير ، فجاءت كتبه تعلم العلم والتفكير • وكان ذا ملاحظة دقيقة وروح مرحة فكهة وقلم رشيق ، فصور أحوال عصره ، وحياة أهل زمانه وأخلاقهم ، وعاداتهم تصويراً يمتزج فيها الجد بالدعابة ، والجاحظ من ائمة الأدب العباسي بل العربي • من مؤلفاته الكثيرة « الحيوان » في سبعة أجزاء (طبع في مصر ١٩٣٨) و « البيان والتبيين » (طبع في مصر ١٩٣٢)و « البخلاء » (طبع في مصر ١٩٣٨) ـ عن (المنجد في الأدب والعلوم) •

٢ ـ القزويني : زكريا بن محمد بن محمود (١٢٠٣ ـ ١٢٨٣ م) تعرف الى ابن العربي في دمشق ـ تولى القضاء في واسط ، له كتاب « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » وهو مجموع من استطـرادات متنوعة في علـم الطبيعة والسياسة والتاريخ والأدب ، فاستحق لقب هيرودوتس القرون الوسطى ، وبلينوس العـرب ، (عـن المنجـد في الأدب والعلوم) •

٣ ـ الدميري ـ محمد كمال الدين (١٣٤٩ ـ ١٤٠٥ م) ـ ولد في القاهرة ، وتوفي فيها ، كان خياطا ثم انصرف الى درس وتدريس التفسير والحديث والفقه والفلسفة والأدب في الأزهر والظاهرية له كتاب (حياة الحيوان الكبرى) ـ (عن المنجد في الأدب والعلوم) •

٤ ـ حياة الحيوان الكبرى ـ للدميري ـ ص ١٣٥ من الجزء الثاني •

٥ ـ الحيوان ـ للجاحظ ـ الجزء الخامس ـ ص ٣٦٣ •

٧ ـ عجائب المخلوقات ـ للقزويني ـ الجزء الثاني ـ ص ٣٣٤ ـ على هامش حياة الحيوان الكبرى •

٨ ـ حياة الحيوان الكبرى ـ ص ١٣٥ ـ الجزء الثاني •

٩ ـ الحيوان للجاحظ الجزء الخامس ـ ص ٣٥٦ •

١٠ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الثاني ـ ص ٣٥٧ •

١١ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الثاني ص ـ ٣٥٤ •

١٢ ـ عجائب المخلوقات للقزويني ـ الجزء الثاني ـ ص ٣٣٤ •

١٣ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الخامس ـ ص ٣٥٥

١٤ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الخامس ـ ص ٣٥٦ •

١٥ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الثاني ـ ص ٣٥٨ •

١٦ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الثاني ـ ص ٣٥٥ •

١٧ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الثاني ـ ص (٣٥٨) ـ شهرزور كورة بين اربل وهمذان ـ ونصيبين مدينة تقع حالياً في تركيا شمال مدينة القامشلي في سورية على الحدودتماما ٠
١٨ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الثاني ـ ص (٣٦٠) ٠ ١٩ ـ حياة الحيوان الكبرى للدميري ـ الجزء الثاني ص (١٣٧) ٠
٢٠ ـ حياة الحيوان الكبرى للدميري ـ الجزء الثاني ص (١٣٧) ٠
٢١ ـ حياة الحيوان الكبرى للدميري ـ الجزء الثاني ص (١٣٧) ٠
٢٢ ـ عجائب المخلوقات للقزويني ـ الجزء الثاني ـ ص (٣٣٥) ٠
٢٣ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الخامس ـ ص (٣٥٤) ٠
٢٤ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الخامس ـ ص (٣٦٢) ٠
٢٥ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الخامس ـ ص (٣٦١) ٠
٢٦ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الخامس ـ ص (٣٦٢) ٠
٢٧ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الخامس ـ ص (٣٦٣) ٠
٢٨ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الخامس ـ ص (٣٥٤) ٠
٢٩ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الخامس ـ ص (٣٥٤) ٠
٣٠ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الخامس ـ ص (٤٠٠) ٠
٣١ ـ عجائب المخلوقات للقزويني ـ الجزء الثاني ـ ص (٣٣٤) ٠
٣٢ ـ عجائب المخلوقات للقزويني ـ الجزء الثاني ـ ص (٣٣٥) ٠
٣٣ ـ حياة الحيوان الكبرى للدميري ـ الجزء الثاني ـ ص (١٤٦) ٠
٣٤ ـ حياة الحيوان الكبرى للدميري ـ الجزء الثاني ـ ص (١٤٦) ٠
٣٥ ـ حياة الحيوان الكبرى للدميري ـ الجزء الثاني ـ ص (١٣٨) ٠
٣٦ ـ حياة الحيوان الكبرى للدميري ـ الجزء الثاني ـ ص (١٣٨) ٠
٣٧ ـ عجائب المخلوقات للقزويني ـ الجزء الثاني ـ ص (٣٣٤) ٠
٣٨ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الخامس ـ ص (٣٦٢) ٠
٣٩ ـ الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ـ للمنذري ـ الجزء الرابع ـ ص (٤٧٠) ٠
٤٠ ـ الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ـ للمنذري ـ الجزء الرابع ـ ص (٤٧٦) ٠
٤١ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الخامس ـ ص (٣٦١) ٠
٤٢ ـ عجائب المخلوقات للقزويني ـ ص (٣٣٤) ٠
٤٣ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الخامس ـ ص (٥٥٠) ٠
٤٤ ـ الحيوان للجاحظ ـ الجزء الخامس ـ ص (٣٥٨) ٠
٤٥ ـ حياة الحيوان الكبرى للدميري ـ الجزء الثاني ـ ص (١٣٧) ٠
٤٦ ـ حياة الحيوان الكبرى للدميري ـ الجزء الثاني ـ ص (١٣٧) ٠
٤٧ ـ حياة الحيوان الكبرى للدميري ـ الجزء الثاني ـ ص (١٤٣) ٠

* * *

مِن أعماق التاريخ والصحراء ومن رُقاد الليالي :

قيس يعود إلى ليلاه

نذير الحسامي

أيـن ليـلى قيـس ؟ حنـانيـك يا صحراء عُودي خَطـا قيسِ ليلى
عـاد قيس" اليـك يطلب ليـلاه ويـذكـي في غـُل ليـلاه غـلا
عـاد لليـل والصبـابـة والعشـق يغنـّي فتـرقص البيـد جذلى
بـرّح الوجـد والحنين به دهـراً فهـلاّ مـلاّت كاسّيه هـلاّ !
الغـريب الشـريـد عـاد به الجـرح فكـوني لـه كمـا كنتِ أهـلا
لـم يـر السهد طيّبـاً بعـد ليلاه كمـا لم يـر الحـُلم قبـلا ..
زرع القلب في الدجى والبـراري نغمـاً هاديـاً الـى حيث ضـلا
في مـراميـك كـل حبـة رمـلٍ شـربـت من هـواه مـاء" وظـلا
وعـلى كـل مطـرحٍ من ليـاليـك ارتمـى بالجـراح يطـرح حمـلا
قـذفتـه النـوى وراءك أحقـابـاً طـوالاً طـوتـه ليـلاً فليـلا
لم تـُنله من وصـل ليـلاه هجـراً أو تـُذقـه من هجرها الحلو وصلا
عرفتـه الرمضاء يـنـدى بذكراهـا اذا طيفهـا عليـه تجـلـّى
جـرحـه مـورق" حنينـاً لليـلى لا الحنـين ارتوى ولا الجرح بُلاّ
تخفـق الريـح باسـم ليـلى باذنيـه فيجـري عـلى : عسى ولعلاّ
ويذوق الخبّـال صحـواً بليـلى ثم يمضي بالسكـر علاّ ونهـلا !

كيف عاد الآن الطريد الى حضنك يا أم واصلاً بك حبلا ؟
يشتكي في حماك ما كابد المشتاق في شوقه الذي ليس يبلى
يتفانى على حديثك عن ليلى وعن قلبها الذي ما تسلّى
هو ذا قيسك المعذّب يا صحراء جاء الغداة يَنشد ليلى
عاد قيس الشجون يسأل مسراك أبقى لقلبه فيك سُبْلا ؟
هل محت غارة الليالي مغانيه وجرّت على الملاعب ذيلا ؟
يسأل الرملَ : أين من تذكر الرمل أولّت من بعد ما هو ولّى ؟
أم اقامت على رسيس هواها تأتلي أن قيسها لن يضلا ؟
في هوامي عينيه ألف سؤالٍ وسؤالٍ عما بليلاه حلّا
حدّثيني عن حيّنا في بني عامرَ هل سرُّ حبنا فيه يُتلى ؟
اتغنّي على هوانا العذارى ويميد الفتيان رقصاً وغَزْلا ؟
وشيوخ المضارب الشُمّ من أهلي ومن أهلها يضجّون غِلاً ؟
حدّثيني أما حلّت سيرة المجنون ؟ أم أصبحت على البعد أحلى ؟
واغاني قيسٍ بليلى أما زالت شفاه الملا بها تتحلّى ؟؟
وماقي ليلى يكحّلها قيسٌ على السهد هل زهت فيه كُحلا ؟
سامح الله أهل ليلى أما رقوا لحب مآ زال كالأمس طفلا ؟؟
جرح ليلى وجرح قيس على البيد أضاءت عليهما البيدُ نُزْلا
يا ليالي الصحراء انّا سكناك على عشقنا وزدناك نُبلا
احفظينا انّا حفظناك فينا وارفعينا جرحين أعلى فأعلى
ايه ليلى هذا ندائي .. فليلى لم تجد عن نداء قلبيَ شُغلا
هبّ وجدُ الصحراء منأرض نجدٍ مرحباً في الهوى بنجدٍ وأهلا
جئت أبكيكِ ، عفوَ جرحك ، بل جئت أغنّيك مثلما كنتُ قبلا
نشقتني الصحراء طيباً برياك فضمي هوىً على اسمك صلّى
وانفضي مثلما نفضتُ نعاس الحلم وامشي الى حبيبك عجلى
جئت بالذكريات ألثم جفنيك وأغفو على جناحيك كهلا